المختلف

رواية

المختلف

رواية

تأليف :

فاطمة الزهراء الرياض

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2018/22878

الترقيم الدولي: 978-977-820-056-0

الطبعة الأولي : يناير ٢٠١٩

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01000405450-01001872290

بريد إلكتروني: info@kayanpublish.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublish.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابيٍ من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلةِ القانونية.

رجل لا يقول أنا

المختلف

فاطمة الزهراء الرياض

رواية

إهداء

إلي ندى..

كل الشـخصيات والأحـداث في هـذا العمـل الأدبي ومـا يحتويـه مـن أسـماء وحـوارات؛ مـن نسـج خيـال الكاتبـة وتعبيرهـا الحـر، وأي تشـابه أو إشـارة أو تطابـق مـع الأحـداث الواقعيـة أو الأشـخاص أو الأسـماء أو الأماكـن الحقيقيـة؛ هـو محـض صدفـة غـير مقصـودة.

-١-

أواخر غشت

ثم رن هاتفي:

- لا تـزوري بيتنـا مجـددا؛ أنـت لا تصلّـين وتضعـين حمـرة مبهرجـة وحجابـك غـير سـوي. ثـم فصـل الخـط.

كان صـوت زوج عمـتي رائقـا وهـو يبلغـني خـبرا كهـذا؛ صـوت أشـبه بمنطـاد أسـود يحـاول أن يطـير، لمسـت بالحـروف الأخـيرة هـدوءا بالرغـم مـن أنهـا كلمـات قـد حُملـت بارتيـاح مـن جهتـه.. كنـت بالـكاد أسـمع أنفاسـه المتقطعـة بفعـل السـمنة؛ دقـات قلبـه لـم تكـن متسـارعة وحـتى في آخـر الجملـة الـتي بـدت جملـة آمـرة؛ كنـت أحـاول مـن جهـتي أن أفهـم.. هـل كانـت مزحـة ثقيلـة؟ لا لـم ولـن تكـون؛ هـذا الرجـل ظـل طـول حياتـه غامضـا بصوتـه الجـدي الـذي لا يقبـل المـزح؛ مـاذا فعـل زوج عمـتي بعـد أن أبلغـني بقـرار عـدم الزيـارة مـرة أخـرى؟ بـلا أدنى شـك قـد حـرك ذراعـه اليمـنى بتثاقـل ومسـح عـلى رأسـه الأصلـع؛ وتحـرك تمامـا كالغرندايـزر إلى المطبـخ مُسـمعا كلّ مـن في البيـت صـوت خفـه البلاسـتيكي وهـو يتمسـح عـلى زليـج البيـت الأبيـض؛ سـيميل جهـة اليسـار إلى المطبـخ ويفتـح الـبراد ويخـرج ثـلاث بيضـات بلديـات ونصـف لـتر حليـب؛ سـيفتح بيـده الثانيـة قنينـة المـاء البلاسـتيكية غـير المملـوءة بالمـاء المعـدني؛ سـيشرب مـاء الصنبـور في قنينـة المـاء المعـدني.. بـاردا وحلـوا أصيـلا حـتى أنـه سيسـيل إلى أن يبلـل سـترته البيضـاء وسـتنزل

القطـرات إلى أن تبلـل كرشـه العامـر بـالأكلات؛ سيسـلق البيضـات ويغـلي الحليـب ثـم سـيضع كل ذلـك أمامـه فـوق الطاولـة؛ زيتـون أسـود مـن البارحـة لا زال يسـتعرض عضلاتـه المتجعـدة بذبـول أسـود؛ زيـت زيتـون العـام الماضي؛قارورتـان صغيرتـان بهمـا ملـح وكمـون غـير قابلتـان للاسـتعمال حيـث ثقوبهمـا الصغـيرة قـد أقفلت بفعـل الرطوبـة أو بالإهمـال.. وعمومـا سـيجلس بالشـكل المعتـاد دون أن يتحـدث في الموضـوع مـع أحـد! بـبرودة شـديدة النـدرة؛ سـيكمل إفطـاره بنفـس شـهية البارحـة وأكـثر مـن شـهية الغـد؛ إنـه رجـل ضخـم طويـل الكتفـين عريـض المنكبـين وأنـا أعـرف طباعـه منـذ طفولـتي وإني مدينـة لـه بالطبـع بالمـبررات العظيمـة الـتي تلاهـا عـلى مسـامعي والـتي لـم تـرق لحضرتـه في آخـر زيـارة لي عندهـم بأحـد أيـام رمضـان المـاضي منـذ عشريـن يومـا فقـط.

وعمومـا كانـت الجملـة واضحـة جـدا؛ سـمعتها تطـرق بداخـلي أبـواب القلـب والكبـد؛ فاسـتطاعت بنجـاح الإعصـار تخريـب مـزاج اليـوم والأيـام المقبلـة أيضـا؛ هكـذا: تلـك «لا تـزوري بيتنـا مجـددا» تـسيء لقدمـي اللتـين كانتـا تقصـدا البيـت بـكل عنفـوان الصغـر.. تلـك الجملتـان اللتـان أتتـا بعـد جملـة الأمـر كانـت عبـارة عـن أحـكام مسـبقة منتهيـة الصلاحيـة.

سـألتني والـدتي عـن الـبرود الـذي أصـاب وجهـي؛ كنـت لتـوي قـد اسـتيقظت؛ لـم أسـتطع الإجابـة عـن السـؤال ولكـن عقـلي الـذكي قـد تكلـف مسـبقا بوضـع إجابـة أكـثر رأفـة مـن الواقـع:

-كان زوج عمتي على الهاتف.

-وماذا قال؟

-لـم يقـل شـيئا فقـط ظـل صامتـا وفصـل الخـط بعدهـا.

(بشحوب بادٍ على الملامح).

-زوج عمتك لا يصمت.

-بل صمت يا أمي بدليل أن المكالمة لم تتعد أجزاء الثانية.

وحتما كانت إجابة لا يمكن أن يصدقها أحد ولا يمكن أن يكذبها أحد أيضا؛ كنت متأكدة من أن هذا الخبر السعيد لا يحتاج لسماعه أحد على الريق! لقد ذهب بما تبقى من الشهية وذهب بالدفء الذي نخبئه كبشريين لأيام الوحدة واللااستقرار؛ أمي كذلك لا تحتاج أن يؤكد لها الآخرون أن خيارات ابنتها المصون لم تعد تعجب أحدا! أمي التي تعشق «الآخر» بكل تفاصيله المجنونة وتقيم له ألف اعتبار! ومجددا؛ لم يكن من الصعب على عقلي إيجاد جواب أكثر رأفة من الواقع؛ عقلي الذي تشبع بتحليل شخصياتهم وتفكيكها لجزيئات صغيرة.. لو كان فقط باستطاعتي إعادة هيكلة أرواحهم المعقدة التفكير.. القاسية؛ غير أنك بالأخير تصنع حلا وسطيا؛ تختلق كذبة شفافة اللون مفتوحة على آلاف الاحتمالات وعلى آلاف الأسئلة؛ كذبة لا يمكن تصديقها ولا يمكن تفنيدها ولا يمكن أيضا أن تتأكد من صحتها لأنها بلا قيمة! ليس بالكذبة من معلومة تحتاج للبحث والتنقيب؛ أن يظل الإنسان صامتا أثناء المكالمة قد يعني أنه أخطأ في تركيب الرقم وكما أنها قد تعني أنه بلا شغل شاغل (خصوصا وإن سبق أن فعلها مع أحدهم) وقد تعني أن الإنسان يود قول الكثير. على أيٍّ فأنا اختزلت الموقف هكذا لأني -على الأقل- فهمته على ذلك الشكل واعتبرت أن ما قيل مجرد صمت قديم طويل قد استطاع أن يقوله دائما في معاملاته الباردة والجافة خلال الزيارات العائلية؛ وبغير ما مرة تعرضنا لنظراته

الـتي كانـت تطردنـا بغـير ذي عبـارة.. لقـد وجـد الشـجاعة اليـوم؛ الشـجاعة الكافيـة ليتلفـظ بالطـرد وبأسـبابه كذلـك.. لقـد عـاش تقيـا ورعـا يقـرأ القـرآن آنـاء الليـل وأطـراف النهـار؛ فلـم يكـن قلبـه رحيمـا بمـا يكفـي ليكفـني شر مكالمتـه هـذا الصبـاح.. بالعـادة؛ فهـذه الحـوارات لا تحصـل صباحـا؛ أعـني قـد تسـتيقظ عـلى مكالمـة هاتفية تحـوي مضمونـا معينـا يتأرجـح بـين الفـرح والحـزن.. وكنـت في وقـت سـابق لا أجيـب إطلاقـا عـلى أي مكالمـة صباحيـة مهمـا كان المتصـل ومهمـا بلـغ فضـولي أشـده؛ تجـدني متربصـة الفرائـص ولكنـك مـع هـذه العائلـة؛ كل شيء وارد جـدا.

بـات صباحـي بائسـا منـذ الوهلـة الأولى؛ غيرت مـكاني ودخلـت غرفة الضيـوف (الذيـن لا يـترددون عـلى بيتنـا إلا في المناسـبات)؛ بـدوت كضيفـة؛ جلسـت عـلى الأريكـة الفخمـة الـتي تتوسـط الصالـون؛ وانتزعـت وسـادة مـن جانـبي الأيمـن ووضعتهـا عـلى صـدري كأني أحمـل رضيعـا أحتمـي بـه في أضلعـي؛ ورائي النافـذة الوحيـدة الـتي تطـل عـلى الشـارع.. نظـرت إلى السـقف وإلى الثريـا وكأني أنظـر إليهـا لأول مـرة؛ تدلـت المصابيـح كحكايـاتي وبـدت تلمـع في خفـاء برغـم ضـوء النهـار.. لمعـت وكأنهـا تخـبرني أن مـا يلمـع نهـارا قـد يـضيء ليـلا.. وكأن السـواد يفضـح بمـا تنضـح بـه ذواتنـا الكئيبـة عنـد نهـار مشـمس.

جلسـت أرقـب السـقف مرتعبـة؛ كنـت أتحسـس فعـلا عينـين مهترئتـين داخـل جمجمـة مفزوعـة؛ جسـد بـارد في مـزاج متقلـب مـن أعـلى التذمـر إلى أسـفل التأفـف؛ اسـتلقيت عـلى بطـني ودفعـت بركبـتيّ نحـو عنقـي كأني ذات الجنـين الـذي أعيـد إلى الحيـاة بعـد مـوت صغـير؛ بـذات غصتـه القـادم إلى شيء لا يجهلـه كانـت غصتي؛

ولـم تكـن بي رغبـة في الـكلام مـع أي أحـد؛ ولا رغبـة لـدي إلا في تكـرار ذات المشـهد عـلى مسـامعي؛ «رنـين الهاتـف.. ألـو.. لا تـزوري بيتنـا مجـددا» ثـم تعـود الفكـرة ذاتهـا لتتدحـرج وتعـود عـلى ذات سـكة الأنـين؛ وهكـذا.

لا.. لـم يكـن ذلـك مجـرد مشـهد كوميـدي؛ فبـدوت لنفـسي متهالكـة بـلا حجـم؛ وكان قـد قـال لي معلمـي فيمـا مـضى:

«الفتيـات بشـعرهن الأشـعث المجعـد يلقـين حيـاة صعبـة. يمشـين بـرؤوس شـبه حليقـة فيتشـبهن بـأولاد الشـارع السـفلي».

وعـلى هـذا النحـو تنقسـم الحيـاة لحيـاة سـعيدة وحيـاة تعيسـة بمجـرد توفرنـا عـلى شـعر مجعـد! حـتى عشـت أنظـر للشـعر الأملـس عـلى أنـه غايـة لا تـدرك؛ وأني حـين امتلاكـه سـتقف القسـوة بعيـدا.. اعتقـدت إلى حـد كبـير أن مـن كانـت تمتلـك شـعرا حريـرا كانـت لهـا أحـلام الفـراش وكنـت متأكـدة أن لوسـادتها إمكانيـة تحقيـق الأحـلام.. أمـا مـن كانـت تمتلـك شـعرا مجعـدا -مثـلي- فكانـت تنـام عـلى الشـوك وعـلى المزيـد مـن الكوابيـس الأنيقـة الـتي تنبـت مبـاشرة مـن أسـفل الوسـادة.. مـاذا كان سـيحدث لـو تحولـت وسـائدنا بفعـل البـكاء إلى حدائـق؟ كان ليكـون شـعري حدثـا عارضيـا لا يسـتثني مـا حـدث لي!

لـم تكـن الأيـام عـلى موعـد بـشيء جديـد قـادم ولا كنـت أملـك أجوبـة كافيـة لـكل الذيـن قـرروا دفعـة واحـدة أن يتخـذوا في حـق «اختـلافي» ثمنـا لا رجعيـا لعـدم العـودة.. المفارقـة مضحكـة: أن نكـون عـلى قـدر كبـير مـن التديـن ثـم نسـتطيع الحسـم في طـرد مـن لا يشـبهوننا حـتى وإن كان نفـس ذلـك الديـن يقـول العكـس؛ كل هذه السـنين الـتي عشـتها وسـط هـذه الأفـكار اللامعـة بعـدم الاحـترام؛

كل تلـك العيـون الناقمـة وتلـك الألسـن المزيفـة للحقائـق تقـول عكـس مـا تضمـره وتجهـز عـلى أحقيتـك في أن تكـون مـن تريـده.. والـدتي الـتي تمنـت أن أصـير آلـة صرافـة مثـلا.. الأقربـاء أغبيـاء جـدا لأنهـم يظنـون أن علاقـة القرابـة تسـتوجب تطابقـا خالصـا مـن الشـوائب لـكل العـادات واللكنـة و»إتكيـت» المعامـلات.. لقـد اتفـق أقربـايئ عـلى جعلهـم مجموعـة قبليـة قديمـة تحتفـي بعُنجُهيتهـا المتوارثـة في تحطيـم كل جديـد ومبتـدع.. حـتى وإن كان هـذا الـشيء الجديـد المرعـب «ربطـة حجـاب جديـدة!».

الآن أشـعر بـأني أصبحـت رائحـة مـا؛ رائحـة ريـش مـنزوع مـن طائـر محلـق؛ أو رائحـة آخـر حبـة سـكر بكراميـل الجـدة الـتي خانتهـا حاسـة الشـم.. رائحـة السـيجارة الوحيـدة في يـد رجـل.. الآن أصبحـت مفرغـة مـن الروائـح ومشـبعة بالفـراغ المحيـط بي؛ رائحـة زائـر أثـير يستكشـف تحفـة أثريـة قديمـة.. رائحـة كتـاب عنـد بائـع «مـول الزريعـة».. أو رائحـة لمسـافر لا يعـرف وجهـة سـفره؛ اقتنعـت بالرائحـة الأخـيرة ورحـت أجمـع حقيبـة سـفري دون أن أنظـر إلى الوجـوه الـتي تسـببت في انبثـاق كل تلـك الروائـح المزكمـة بالحـزن والأسى.. إنهـم بـلا شـك يريدونـني مجـرد فتـاة عاديـة تنسـج لهـا في زاويـة مـن هـذا البيـت موقعـا اسـتراتيجيا للمراقبـة الحثيثـة عـلى أفـراد المـنزل؛ وهـم ذاهبـون وآتـون مـن ممـر ضيـق وسـط البيـت؛ وهـم يحـضرون للمجـة الإفطـار وهـم يسـبحون وهـم يقفـون صفـا صفـا عـلى بـاب المرحـاض ينتظـرون دورهـم للوضـوء خوفـا مـن خـروج وقـت الصـلاة أو خـروج بعـض الريـح.

أو يريدونـني آلـة صرافـة لا تتوقـف عـن صـك الأمـوال الحـلال؛ هـذا الجـو طافـق بالنفـاق؛ العـودة تبـدو لي مهمـة مسـتحيلة وحارقة

وقد أخذ زوج عمتي على عاتقيه هدم ما بقي من صرح احترام.

***

ببيتنا أربع غرف كلها مفتوحة على بعضها بعضا؛ لا مجال لوجود باب؛ بل إنها كانت بالأبواب غير أن والدي غير هذا الديكور تنفيذا لرغبات دفينة في السيطرة على كل شيء؛ كأن الأبواب حواجز إسمنتية لقراءة ما أبعد من تغيير ملابس أو حديث على هاتف! لا أبواب.. الغرف أمام بعضها في تآلف تام!

ببيتنا من الصعب عليك إيجاد رقعة صغيرة خاصة لتبديل ملابسك مثلا؛ سواها غرفة نومهم كانت بباب لا يقفل وبنافذة مفتوحة لا تقفل أيضا تطل بشكل غبي على غرفة المعيشة؛ وبباب هذه الغرفة التي لا يقفل أيضا (بلا أسباب منطقية) ينبثق ممر ضيق يجمع بين صالونين مفتوحين على بعضهما بعضا؛ الانفتاح شيء عظيم ببيتنا! الانفتاح على العالم الداخلي للشؤون الداخلية لكل فرد منا! كان الممر إلى المرحاض بآخر الشقة ممرا محفوفا بالمخاطر؛ إذ يجعل الخارج محط تساؤل عن وجهة خروجه ويضع الداخل في محط تساؤل عن مكان مجيئه ويضع الزائرين محلا لاكتشاف كل شيء بالبيت؛ فعلا لم يكن لدينا كأسرة ما نخبئه! كانت كل مشاكلنا تخرج على شكل صراخ شجي قد يتلقاه الجيران بلا أدنى عناء.. ولكني كنت أخفي الكثير وكان لدي ما لدي لأخبئه؛ وهذا البيت واسع بلا أبواب يخنق صوتي فلا أجد طريقة واحدة فيها للغناء مثلا؛ الغناء حرام.. والتجوال داخل البيت بسروال قصير حرام.. وسماع الأغاني على التلفزيون حرام أيضا.. كل شيء هنا معرض للانتقاد

وفـق منطـق واحـد يـرى أنـه عـلى صـواب وأنـه المصـدر الوحيـد للسـلوكيات «الصحيحـة» حـتى وإن أثبـت هـو نفسـه العكـس.

هـذا البيـت لا يناسـبني؛ لا يناسـب جنـوني وهـدوئي وتغـيرات ملامح وجهـي؛ كل مـا يمكـن أن أفعلـه محـط مسـاءلة: سـأسرح شـعري.. لـم سـتسرحين شـعرك هـل تضربـين موعـدا مـع أحـد مـن الرجـال؟ أبتسـم وراء شاشـة الحاسـوب.. لمـن تبتسـمين ألرجـل مـن وراء شاشـة الحاسـوب؟ أغـني.. لمـن تغنـين ألرجـل هجـرك؟ سـأطبخ.. لـم تـأت بـشيء مـن عنـدك لتطبخينـه! سـأنام.. هـذه ليسـت وسـادتك بـل وسـادة أختـك الصغـرى.. سـآخذ هـذه! لا ليسـت لـك.. هـذه وسـادة خاصـة بالضيـوف؛ هـذه مواقـف يمكنهـا أن تتحـول إلى نقاشـات تخرجـين بعدهـا بغالـب أو مغلـوب بقضـاء الأمـر مـن عدمـه؛ ولكـن ثمـة مواقـف ينهونهـا بالكلمـة السـحرية «لا» الـتي تحـد منـك ومـن شـخصك ومـن سـنك ومـن وظيفتـك ومهمـا بلغـت في الكـبر وفي الثقافـة مثـلا فذلـك راجـع لـك وهـذه الـ»لا» الـتي تخـرج مـن فِـم أحدهـم هـي كلمـة تُنهـي كل ذلـك! سأسـافر.. لا. جـاء أحدهـم لخطبـتي مـن أصـل شـمالي.. لا. (دون نقـاش ودون أن ننبـس ببنـت شـفة) سأسـتحمر.. لا. وهـذه الـ»لا» غـير المـبررة في بعـض الأحيـان هـي كلمـة مـا بعـد الميتافيزيقـا؛ لأنهـم يعتقـدون اعتقـادا كبـيرا بأنهـا نُطقـت لحكمـة في نفوسـهم وأنهـم وحدهـم يمتلكـون تفسـيرا لهـا.. قريبـون منـك جـدا بحيـث تسـتطيع أن تشـعر بسـخونة أجسـادهم؛ بعيـدون جـدا عـن أحلامـك وقراراتـك والطريقـة الـتي تـرى بهـا الحيـاة.

في ذلـك اليـوم لـم يكـن بالبيـت لا خـبز ولا مـاء؛ وكان قـد انقطـع التيـار الكهربـائي ليلـة كاملـة فكنـت أسـمع حديـث أمـي الصباحـي

عن عمال البلدية الذين يقومون بقطع الماء والتيار دون إعلام أو إخبار؛ زمجرت في وجه الثلاجة وقالت لجدتي وهي تفتحها بعنف: هل ترين ماذا يفعلون بنا؟ سوف يتلفون محركها آجلا أو عاجلا! كانت تتفقدها بنية أنها قد أُتلفت فعلا؛ ولكني من سريري بغرفة المعيشة كنت أستطيع أن أعرف ملامح أمي الغاضبة؛ كنت أسمع حركاتها المندفعة من وإلى الثلاجة محاولة إخراج سلكها من المأخذ وإعادة وضعه بالشكل الصحيح حتى يتسنى لها سماع صوت محركها عند الاشتغال؛ لكن ذلك لم يحدث! يبدو أنها أُتلفت حقا! والظاهر أنني قلت أنه يوم رائع وتبدو روعته من هذه السويعات القليلة قبل المكالمة.. كانت السادسة والنصف صباحا؛ نهضت فيها أمي لتصلي فجرا متأخرا تُدركه به؛ وحين أرادت الوضوء انتبهت إلى أن ضوء المرحاض لا يعمل؛ حاولت فتح وغلق قاطع التيار دونما جدوى حتى سمعنا والدي بصوته الجوهري من تحت الملاءة يقول: لا يوجد تيار. وسكت.. كأنه نطق سحرا! كنت أنا قد استيقظت فعلا بما أن نومي خفيف كسحابة صيف؛ أنام على سماع خطوات النمل الخفيفة على الجدار.. أنام على حثيث عقارب الساعة الموجودة بالممر.. أنام على مواء قطط الشارع وبهذا الشكل تجدني أصحو بغتة؛ بلا أدنى عناء؛ ولا أذكر في يوم أن أجهدت أمي نفسها في إيقاظي؛ فقد كنت دائما أستيقظ قبل الجميع.

ولما وجدت أمي نفسها أمام الـ»لا» ماء و الـ»لا» كهرباء لاوعيا استيقظت! وإنه من الصعب على امرأة في الخمسين من عمرها تعاني من اضطرابات نفسية حادة أن تتقبل فكرة أن لا ماء ولا كهرباء ببيتها؛ هي حالة استنفارية قصوى كنا نعرف تأثيراتها

الجانبية القوية على هذا اليوم برمته؛ لذلك وبعد أن عاينت الثلاجة ووجدتها صامتة برغم أنها قد أزالت المأخذ ثم أعادت وضعه دونما جدوى؛ ولأن للثلاجة مكانة عظيمة بقلب أمي؛ فإنني أدركت فداحة الأمر! كنت قد قمت من فراشي وذهبت لأخبرها بكل هدوء وعفوية أن التيار مقطوع فلا يمكنها أن تعاين اشتغالها وعليها أن تصلي الفجر وتطلب من الله ألا يحدث للثلاجة سوء.. ثم رجعت للسرير..

وعلى أي كان علي حينها أن أغلق هاتفي؛ لكنه كان مشحونا على آخره.. تمعنت في شاشته فبدت لي السادسة وست وخمسون دقيقة.. كان يوم أحد؛ اعتقدت إلى حد كبير ألا أحد في هذا الكون سيتصل بي على الساعة التاسعة ولو على سبيل الخطأ.. ولكن حدث ما حدث.. كان من الممكن أنا أيضا أن يخرب محرك الهاتف لو وضعته الليلة موصلا بتيار الكهرباء الذي لا نعرف كم من مرة فصلوه وأعادوا وصله ونحن نيام! قطعا لم نعرف ولكن أمي بحدسها المتشائم دائما تترك شكوكنا محط شكوكها فالآراء المختلفة ببيتنا مجرد خرافة.. كان من الممكن أن أضعه على الصامت على الأغلب لكنني انشغلت بقراءة دفتر قديم لي وجدته بمكتبة أبي؛ وكل هذه الظروف قد قادتني بلا شك إلى أن أكون مطرودة الآن وبشكل رسمي من بيت العمة.

إن البرودة التي انتابتني حينها وأنا أسمع غضب أمي اللامنطقي بسبب فقد مؤقت للماء والكهرباء كانت كفيلة بأن أضيع مرة أخرى في قرار اللاعودة؛ كنت أبصر كبر هذا الحدث بعائلتي؛ سيعلمون بالأمر لا محالة؛ كنت متأكدة بأنه سيحاول إعادة الاتصال بأحدهم ليخبرهم ذلك بنفسه؛ وسيذاع مثل هذا

الخبر بلا عناء داخل العائلة؛ وعلي سيلقى اللوم ولن يلقى على أحد آخر؛ كلهم أتقياء وأنا الوحيدة الغامضة بعينين مسلوبتين بالشاعرية والحنين.. أنا الطفرة المختلفة .. النشاز الرشيق الذي لا ينسجم معهم.

دون قلق؛ ولكن بتشوق لما سيأتي.. كنت أبني فوق الخوف قصور أوهام من الأفراح القادمة؛ جزء من الحرية كامن في هذه النظرة بالذات.. وحري بي دائما أن أقول لجدتي أن الطيور التي تضعين لها الكسكس ثم تأتي جريا خلفك لتلتقطها هي ليست بالطيور الحرة لأنها لو كانت كذلك لما كلفت نفسها عناء مراقبتك كل يوم جمعة لتلتقط حباتك؛ قطعا هي ليست حرة؛ كنت أقول لها أن الطيور الحرة هي التي لربما تأتي لسبب آخر غير أن تلتقط بضع حبات كسكسك البائت! كماذا؟ كانت تتساءل جدتي بجدية كبيرة.. لم أكن أجيب جدتي لأنها عنيدة ولكنها كانت تجيب بالجواب الذي كنت أفضله دائما: إنهم يأتون لزيارتي أيضا.. الطيور أحباب الله.

كانت أفكاري غير منتظمة على الإطلاق؛ أحكمت القبض على ركبتي واعتدلت في الجلوس وجعلت ظهري ممددا خلف الوسادة؛ ثم وضعت رأسي بين ركبتي؛ البرودة هي التي تقتلني في مثل هذه المواقف دائما؛ البرودة والخفق المرعب لقلبي؛ البرودة ليست إحساسا فقط بل إنها قشعريرة وتصل حتى الظهور بفمي؛ فتبدو شفتاي الكبيرتان زرقاوين مثل مدمني السجائر؛ ويبدو كفا يديّ بيضاوين متصلبتين؛ حاولت حينها أن أتمسك بركبتي علني استطعت تسخينهما وفي نفس الوقت كنت أخرج بعضا من الزفير الساخن من الداخل.. عذبني هذا الإحساس؛

مُـتُّ كثـيرا في حيـاتي.. لطالمـا اعتـبرت أن هـذه الـبرودة عبـارة عـن مـوت صغـير.. مـوت لا مـدرك بـه حيـاة ولا أنـت مـدرك بـه موتـا.. بـين بـين؛ هـذه الـروح عصيـة؛ والشـوق لـلآتي مرعـب ورهيـب.. والـبرودة تجمـد الفـرح القـادم بعيـني.. تتجمـد الحيـاة برمتهـا.. ولا يظـل هنـا بالعـين غـير صـور مهـتزة مـن الحنـين.. روائـح الخـوف الـتي يمكـن لأمـي أن تشـتمها بي بسرعـة الفطـرة؛ وإذا كان هـذا الـشيء واردا أعـني أن يشـتم الأهـل خوفنـا المتكـرر فلـم لا يمكنهـم أن يشـتموا بـاقي أحاسيسـنا البالغـة في الأهميـة؟

نهضـت مـن الصالـون بروائحـي المتناقضـة؛ كـبر في رأسي قـرار الهـروب كشـجرة بريـة؛ تمسـكت بوجهـي الشـاحب العـادي؛ ومـررت مـن الممـر نحـو غرفـة المعيشـة ثـم مـن هنـاك إلى غرفـة نـوم والـدي؛ وهـي غرفـة خاصـة بـكل ملابـس العائلـة والمـلاءات والأغـراض المختلفـة.. كل شيء عـدا النـوم؛ كانـت حقيبـتي هـي الأخـيرة موضوعـة عـلى منضـدة مـن خشـب الأرز البـني الثقيـل؛ قلـت في نفـسي أنـا لا أسـتطيع أن أفعـل مثـل هـذا لا أسـتطيع؛ كنـت أجـرب فتـح الحقيبـة وبفعـل ارتجـاف يـدي لـم أسـتطع؛ جربـت أن أفـرك يـديّ جيـدا عـلّ الـبرد الـذي يـسري ببـدني يهـدأ ولكـن بـلا جـدوى؛ «اسـتغلي زمـن الصـلاة؛ أبي بالمسـجد وأمـي بالمرحـاض للوضـوء وجـدتي بالسـطح».. كانـت هـذه الجملـة تـتردد بقـوة داخـل جمجمـتي فتتصاعـد ثـم لا تلبـث تخفـت فتتعـالى إلى مسـامعي مـرة أخـرى «لا تـزوري بيتنـا مجـددا» فتتداخـل الجملتـان للدرجـة الـتي ضربـت فيهـا رأسي بقـوة؛ أحسسـت بالقليـل مـن الـدفء بعدهـا رغـم أنـني أحسسـت بالألـم عـلى خـدي؛ تخليـت أخـيرا عـن فكـرة أخـذ شيء مـن الملابـس فعـلى كل حـال كانـت ملابـسي جلهـا هنـاك؛

رميت بحقيبتي بضع أقراص البانـدول.. معقم اليديـن.. فوطة صغيرة.. علبة منديل ورقية.. دفتر الشيكات.. ورقة طلاق.. ثم جواز السفر؛ كنت لا أزال بخفي البلاستيكي؛ وضعت لفة حزينة فوق رأسي واستدرت لألقي نظرة خاطفة على ممر بيتنا الذي بدا فارغا ولأول مرة من مراقباتهم؛ كان صوت أمي وهي تردد بعض الكلمات رشيقا وهو يستل إلي بسكين صدئ؛ وددت أن أسلم عليهم كما كنت أفعل.. وددتُ ولكن الخيارات لم تكن متاحة.. استدرت قبل أن أفتح الباب بخفة اللصوص المبتدئين حين تضطرهم الحكايات لسرقة قطعة خبز باردة؛ كان المنزل عاديا جدا ولكن حرارة بي تشتد ثم لا تلبث أن تصبح برودة؛ خفق قلبي حتى شهقت شهقة بلا حس.. همست وداعا.. ثم ابتلعت خطاي نحو المجهول الذي أعرفه.

أنا لم أرغب أن أكون حرة بجناح ممزق؛ أنا لم أرغب الرحيل كلص الليالي القارسة؛ أنا لم أشأ الهروب كجبناء الحروب؛ القلب الذي أتعبه خنوعي للحياة توقف عن مجاراتي ولربما غادرتني هناك.. كنتُ أمشي بعينين تغرفان دموعا من نار؛ من زقاق لزقاق أجر رجلين متهالكتين من صباح قاس؛ قست علي العيون والأفكار وضاق السحاب في أفقي.. هذا الشارع لي؛ وهذا القادم لي.. وهذا الحزن الذي ينخر عظامي عظما عظما حتما لي.. أنا الآن لا أملك دائرة واحدة من الحنان؛ لا أملك بقعة طاهرة من حضن رحيم علي.. أصبحت شخصا لا يحمل هويته فتداهمه سيارات للحدود الوهمية التي تجرأت على تجاوزها.. أنا الآن شخص يتيم تماما.. يتيم ووحيد وبارد اليدين بشعر أشعث كثيف يشكل دخانا أو هالة فوق رأسي.. أنا الآن احتمال

ضعيـف عـلى الوجـود ورداء رديء باهـت يمـشي في هـذه المدينـة بخطى ثقيلـة أحسـها أثـرا يغـرس حنقـه في قلـب أمـي وأبي وبـاقي أفراد العائلـة.. أنـا الآن لا أملـك شـيئا بالتحديـد غـير حقيبـتي وهاتفـي المحمـول حيـث أضـع كل خيبـاتي ثـم أفكـر في كيفيـة لتجـاوز هـذه الأنـا المسـتعصية عـلى المـرور.. هـذه الأنـا الـتي تسـتدعي أزمنـة قادمـة وأخـرى مضـت لتكتمـل.

-٢-

وحتى أنه قال لي دونما كلام: سأفتقدك!

لـم تكـن تعلـم أن للفقـد لغتـه الخاصـة بـك.. إيمـاءات تتواصـل بـكل حـروف الأبجديـات الممكنـة؛ وأن دمعـة عصيـة تقـف بناصيـة البؤبـؤ كموجـة وحيـدة هـي كافيـة بـأن تصنـع موقفـا قاهـرا.. كالفقد.

رحلـتْ عنـكَ وسـافرتْ تلـك الـتي رأيتهـا في منامـك مائلـة لأحـلام اليقظـة؛ بينـك وبينهـا سِـنة، وتذكـرة طائـرة طائشـة اشـتريتها بمطـار «شـارل دغـول» في آخـر اللحظـات؛ وكنـت تعلـم أن بلـدان الله واحـدة تحدهـا حواجـز أمنيـة وهميـة وأن السـفر العنيـد بعـد زمـن كان مخصصـا للمـوت هـو سـفرٌ نحـو الحيـاة ونحـو الله.

تقريبًـا تغـيرت عاداتـك.. آراؤك وأحلامـك؛ حـتى ابتسـامتك نحـو السـماء قـد قادهـا التفـاؤل إلى رسـم شـفاه دائمـة عـلى وجهـك النحيـف؛ وحـين رأيـتُ ابتسـامتك قـد قلـتُ بمـا لا يخالـف الحقيقـة أنـك شـاعر حـدّ القصيـدة وأن الشـعراء هـم وحدهـم مـن يجابهـون رحابـة السـماء الفارغـة؛ للشـاعر مـرآة بعينيـه تجرحهمـا العبـارات وتختلـس منـه الاسـتعارات مـا تبقـى لـه مـن عمـر.. للشـاعر جسـد نحيـل طويـل سـامق؛ وصـدر عاشـق للسـيجارة؛ يمـشي بقلـبٍ خجـول ينهكـه الواقـع.

أقابلتَ الله بعد كل محاولاتك لتنجو بعقلك؟ أم خارت قواك!

اسـتفقتَ مـن غرفتـك الفاخـرة؛ أثاثهـا عـصريّ وعمـلي بلمسـة مخمليـة؛ ولكنـك رجـل للفـوضى والشراشـف الملقـاة عـلى الأرض؛

رجـل يـترك مـن ورائـه سروالـه القصـير الصيفـي ملتصقـا بفنـاء البيـت.. تجـر العبـث معـك للبيـت كعشـيقة؛ تتنفـس اللانظـام وتعشـق قلـب أدوات المطبـخ لتخلـف فضـاء مزعجـا يصلـح للمبدعـين أمثالـك.

أنـتَ لا ترسـم ولكنـك تلصـق لوحـات مـن المدرسـة السرياليـة الـتي تحيلـك لأكـثر مـن معـنى؛ تلـك اللوحـات المدعـاة للسـخرية؛ كل ضيوفـك تهكمـوا مـن وراء ظهـرك عـلى ذوقـك في فـن الرسـم لكنهـم بالطبـع يجاملونـك بحرفيـة؛ تبـدو لهـم مثـلا تلـك اللوحـة الـتي ينتصـف فيهـا مكعـب أحمـر داخـل إطـار أصفـر وشرائـط بلهـاء بلـون يشـبه الأزرق أنهـا متاهـة للإنسـان العميـق حـين يغـدره «الآخر الأبلـه» أيضـا؛ فتتمنطـق الحيـاة (الـتي تحيـل إلى الزرقـة) في تجـرد ميتافيزيقـي للحريـة ولتـوق متجـرد مـن المـوت! وهكـذا تصدقهـم وتطلـق ابتسـامة محـيرة شـائكة بـين التصديـق مـن عدمـه؛ ولكنـك في نهايـة المطـاف تصدقهـم لا رغبـة منـك في اكتشـاف سـخريتهم المنطقيـة ولكنـه انسـياب جـريء منـك؛ تأقلـم مـع الجـو العـام للرسـم.. أنـت تضـع إطـار حكايتـك والباقـون رسـومات متكـررة أو لِـنَقُلْ خربشـات عشـوائية وفوضاويـة عـلى إيقـاع وسـائد غرفـة المعيشـة؛ مثلهـم مثـل أكيـاس القمامـة وبقايـا الطعـام الملقـاة بالمنضـدة.. لكنهـم أشـخاص بجانبـك! هـم فئـة ضروريـة للحيـاة المخمليـة الباريسـية؛ رغـم أنـك لا تعـرف الفـرق بـين الصداقـة والزمالـة؛ بـل أنـت لا تعـرف معـنى للعلاقـات الإنسـانية المتعـارف عليهـا؛ أنـت اعتـدت عليهـم ربمـا؛ تعـودت عـلى قسـمات وجههـم بـل إن بهـم مـن رافقـك مـن الصغـر حـتى اليـوم.

الأصدقـاء في باريـس كالروائـح الهجينـة بـين الياسـمين واللاونـد..

ساخنة وإن كانت بالليل؛ سائغة وحلوة تدخل الشوارع الممتلئة بالنساء تلطف الأجواء دون أن تلتصق بالمحلات الكبيرة؛ تخرج من جسد فاتنة كلحظة عابرة غير حقيقية؛ ولكن الروائح تتقطر من سقف العالم؛ من عرق جبين المهاجرين والكادحين ومن جيوب المثقفين؛ قلت لنفسك إن السماء أجمل لوحة سريالية متجددة في هذا العالم؛ حيث يبدو السحاب مجردا من المادة؛ هلاميا منتحلا لوجوه الرضع والقلوب ولرفاق الصبا.. أي مجرد قطع إيقاعية مترابطة ليست لها دلائل بصرية وإن كانت تحمل في أشكالها جوهرا عميقا يرتاح إليها نفسك وتهدأ فيها سريرتك.. السماء أقدم لوحة تجريدية؛ بالنسبة إليك جوهر الأرض؛ هي تعبير موجز عن الحياة بصفائها؛ تتخلص فيها عيناك من آثار الواقع وبشاعته؛ فالأجسام الهلامية النائمة في الزرقة هي السماء؛ هكذا صور الله لنا ما لا يُرى لندرك الحس.

ثم إن السماء هو الفضاء المفتوح على مصراعيه؛ تعتقد أنها روح ما تطل علينا من فوق؛ وقد قلت لي أنها «شخص واضح» تماما كأنت؛ «إنها تتغير بوضوح؛ لقد تعلم منها ستيفان أن يبكي مثل المطر الخفيف وأن يبتسم كالشمس المشرقة ويرحل كما ترحل الرياح بالسحب بعيدا.. ولكن هل يعني أن السماء حين تبكي مطرا أنها حزينة؟ المطر ليس دليلا على الحزن والشمس ليست دليلا على الارتياح.. والرياح ليست قطعيا أن شيئا ما سيذهب دون رجعة.. لذلك فالسماء متوحدة هي كذلك؛ لا تستطيع أن تحدد شعورا معينا انطلاقا من حالة ما؛ حتى في وضوحها ذاك وهذه هي معاناتي.. المعاناة هي أنك تحس ولا تستطيع التعبير بما تحسه كما يحسه البقية؛ لأن الطريقة التي

يعبر بها عما يحسه ستيفان.. لا يفهمها الآخرون..».

السماء لوحة يومية متجددة الأفق؛ ومتعددة الصور؛ ومغايرة لكل ما قد نفهمه نحن عنها؛ إنها بوابة الطمأنينة؛ كنت دائما ما تجلس تحتها هادئا تراقبها من الأسفل تصوب نظرتك نحو الأعلى وتجلس بلا ملل تشاهدها من جميع الجوانب والجهات؛ تحسب عدد السحب التي مرت، وتلك التي كونت رضيعا صغيرا، وتلك السحابة التي تداخلت مع غيمة سوداء لتشكل وجها سخيفا لا تستطيع أن تحدد ما إن كان غاضبا أو فرحا؛ ثم تشاهد سحابة على شكل باخرة، وأخرى على شكل حذاء جندي ضخم القدم؛ وتظل هناك تلحظ الشمس المارة خلسة بين كل سحابة وغيمة؛ فتبدو لك الزرقة بين لونها الغامق الحاد وبين أزرقها الشفاف المائل للبياض الخفيف؛ تمر العصافير الصغيرة كنوتات الموسيقى عابرة من أشجار هنا وهناك؛ فتلحظ ألفة مميزة وروتينية؛ إذ لا جديد على السماء قد يكون سواه خط رفيع من دخان طائرة تمخر عباب السماء! وحتى وحين يتلبد وجهها بالغيم الأسود تجلس جلوس العاشق في انتظار حبيبة؛ ولا يبدو لك منها شيئا خارقا؛ إنه لون كئيب.. ولكنك لا تفرق بين الكآبة والابتهاج ولا يهمك من الأمر سوى أن السماء ليست كما العادة ويحزنك أنها ليست كما العادة حتى أنك قد تبكي استياء على ذلك؛ يهمك أن ترى المنظر نفسه.. العصافير ذاتها.. السحب والغيوم بأحجامها.. الزرقة المتدرجة.. فتغضب غضبا شديدا ثم تذهب مبللا بالمطر الذي وجد نفسه مع شخص لا يتوقعه ولا يحمل في يديه مطرية كما البقية.. لأنك المختلف.

أنت لا ترسم؛ ولكن حياتك شفرات تجريد لمرافئ الدهشة؛

أخذتـك وشوشـات لكنتهـا الاسـبانية لأن تقـول لهـا ذات يـوم: أتتزوجـين سـتيفان؟

لـم يكـن هينـا عليـك أن تفقـد حيـاة العربـدة؛ كانـت قدمـاك المتشـنجتان حـين وضعتهمـا عـلى الأرض في وضعيـة الخضـوع للحـب؛ تـكاد في كل نظـرة إليهـا أن تفقـد لغـة الـزواج؛ بحذائـك الأسـود وياقتـك الكلاسـيكية عـلى الربـوة الهادئـة ؛ كنـت قـد قلـت لنفسـك عندمـا انتهيـت مـن طلبـك لنأخـذ عشـاءنا بالمركـب وعـلى بحـيرة (دو بـوا دو بولـوني) مسـكت يديهـا الناعمتـين طويـلا؛ أكـثر من عشـاق معـارض اللوحـات السـوريالية.. لـم يكـن بسـيطًا أن تلخـص الحـب في عارضـة أزيـاء اسـبانية تـوزع نظرتهـا القاسـية عـلى كاميرات الصحفيـين؛ ولكنهـا كانـت مجـرد عنـوان ضخـم يصلـح «مانشـيت» لجريـدة باريسـية تهتـم بنميمـة المشـاهير؛ كنـت تتنـاول العشـاء غـير مصـدق للورطـة الـتي ورطـت فيهـا نفسـك؛ تنظـر إليهـا بحـذر شـديد يصـادف للأسـف حدسـك البعيـد؛ تُقـدس الأسرة ولكنهـا بعيـدة كل البعـد عـن مسـارك الهجـين بـين الـشرق والغـرب؛ تعيـد النظـر إلى بطنهـا المتكـور خلـف عظامهـا فتقـول لقلبـك أن بعضـا مـن صلبـك منهـا يسـتحيل؛ وأن الفـوضى ببيتـك سـتظل؛ وأن رأسـك اللامفهـوم لا يصلـح كموقـف معـبر عـن الحـب أمـام عارضـة تغـير فسـاتينها كل يـوم.. قلـت لهـا سـنعيش حيـاة سـعيدة وصدقتمـا ذلـك؛ حـتى الرسـام أنفسـهم يوهمـون دواخلهـم بالسـعادة حـين يصبـون الألـوان ذات مـزاج كئيـب.

«مابيـل» هـي فتـاة اقتربـت منـك ذات مسـاء عنـد مطعـم «كريسـتال روم»؛ كانـت برفقـة صديقاتهـا الـتي جـاءت تطلـب منـك أن تلتقـط لهـا صـورة جماعيـة؛ فلـم تجبهـا إن كنـت موافقـا أم لا؛

وظللت هكذا تحلق فيها وقد مرت دقيقة على الأقل لتستوعب الأمر؛ صعب جدا أن تخرج من سكونك لضجيج العالم حولك؛ قلت كيف؟ ثم أعادت السؤال وهي تضحك؛ فقلت لها متأسفا بأنك متوحد وبأنك أحيانا لا تستطيع فهم المطلوب منك خصوصا إن كان بشكل فجائي.

الشوق المحرق؛ العودة إلى الفراغ وإلى بيت يستجم فيه الأرق؛ ترى في «مابيل» تحريفا طبق الأصل لمجرى والدك؛ ها أنت ترى بأم عينيك والدتك الباريسية التي أضاعت لوالدك هويته الجزائرية؛ قد قلت أن اسمك «ستيفان» لربما يشبه «مصطفى» وظللت تردد هذا طوال حياتك ودراستك وظللت تطارد هويتك الماسخة وراء تعتيم مقصود منهما؛ «ستيفان» ليس «مصطفى» وكان بإمكان والديك أن يوفرا عليك عناء هذا المصير المتوجس من الخلط؛ وظللت متجردًا قابلا لأن تأخذك ألوان الحياة الفرنسية؛ بعض من هنا والكثير من هناك.. سمعتَ أن والدك جزائري بالصدفة وهذا يحدث دائمًا بأسرتك؛ لا يناقشون المواضيع العميقة بل تمر مثل رنة رسالة قصيرة؛ لك عالم خاص بك؛ كنت لا تسمع ما يدور عند طاولة العشاء أكثر من صوت حاد حين تلامس ملعقتك الصحن؛ وكنت تركز في ذلك وتبدع في جعلها رنة متتالية منسجمة ودقيقة؛ أن يكون صوت الملعقة نفسه عند الغَرفة الثانية والثالثة لأهم من كل الأحاديث التي تروج بين الآخرين؛ إنهم لا يعرفون أن صوت قهقهة أبيك يسبب لك صداعا وألما فعليا في رأسك؛ غالبا لا يفهمون ما بك حالما يضحك والدك ضحكات قوية ينفعل جسدك لا إراديا ليسقط أرضا على شكل نوبات غضب حادة؛ تصرخ ماسكا رأسك

بيديـن اثنتـين؛ تـصرخ وتـصرخ إلى أن يغمـى عليـك؛ يكبلـك إخوانـك وتحيطـك والدتـك بثـوب رقيـق محاولـة إغـلاق فمـك؛ يكبلونـك حـتى تهـدأ فتنـام؛ لـم يفهمـوا أن هـذه هـي لغـة التواصـل لديـك؛ أنـك تعـبر عـن رفـض جسـدك لسـماع ذاك الصـوت بالضبـط؛ لا تسـتطيع أن تقـول لهـم عـبر الكلمـات والإشـارات أنـك متألـم فعـلا وأنـك لا ترفـض أن يكـون أبـوك سـعيدا، ولكـن مشـكلتك هـي مشـكلة ألـم حقيقـي تشـعر بـه وليسـت لـك القـدرة نهائيـا عـلى التعبـير عنـه سـوى بالانبطـاح أرضـا والـصراخ العظيـم حـتى النـوم.

هنـا بـدأت لغـة الجسـد في العمـل حينمـا كفـت أو عجـزت لغـة الفكـر عـن العمـل؛ فقامـت الأولى مقـام الثانيـة.. لغـة الجسـد الثانيـة تعـني لدينـا نحـن الأسـوياء الإشـارة فالحركـة فالفعـل؛ أمـا لغـة الفكـر فتعـني لنـا أيضـا الكلمـة والفكـرة والصـورة والخيـال؛ هكـذا تـصرف الكلمـات والأفـكار والصـور بنمـط الأفعـال.. فالفعـل أخـذ مـكان الفكـر؛ ولـم تعـد هنـاك مسـافة بـين الفعـل والفكـر؛ وليـس هنـا لهـذا القـول المشـهور «فكـر قبـل أن تتـصرف» مـن معـنى؛ لأن الفعـل حـل محـل الفكـرة.. إذ لـم تعـد الفكـرة موجهـة للفعـل تلجـأ إلى التعنيـف كعمليـة تصريـف للغـة في الفعـل تمامـا كمـا تـصرف عملـة.. بعملـة أخـرى!

لـم تـر الجزائـر وليـس لـك هنـاك أدنى صلـة عائليـة بهـذا البلـد.. ليـس لـك أعمـام ولا عمـات يؤكـدن أو ينفـين هـذا الخـبر فـكأن والـدك كان يخامـره الشـك أن العروبـة قضيـة قديمـة لا تهمـه في شيء؛ «سـتيفان» وبعـد؟ اسـم يـراوغ الأوراق الرسـمية.. كنـت قـد تحدثـت بخصـوص هـذا الأمـر لـ «مابيـل»؛ قلـت بالحـرف الواحـد أن جـذورك جزائريـة لكنـك طـوال خمـس وثلاثـين سـنة لـم تزرهـا

وليس لك أدني فضول للقيام بذلك؛ معلومة قد تمر على «مابيل» بلا اكتراث.. نظرتَ إليها كما تنظر إليها دائما تحاول أن تعرف فيم تفكر.. ولم تقل لها إن زواجكما هو في الشدة والرخاء وفي الصحة والمرض؛ لا لم تقل؛ فضلت أن تغمس أصبعها في الشكولاطة وتلعقها بابتسامة محايدة؛ بيد أن المأساة أنها بالنسبة إليك ليست مجرد حبيبة جميلة بمعايير دقيقة؛ أنت لا تعرف ما الحب! بل إنها رفيقة حاولت تجاوز عقدك النفسية وحاولت جاهدة أن تبلع طبائعك الغريبة.. حتى في طلب الزواج الشاحب والمرتبك؛ حتى في طبق العشاء الذي بدا بلا طعم؛ حتى في صمتها الذي انقطعت فيه أنفاسك.. لكن أن ترفضك السبل احتمالات غير واردة؛ جلست أمامك مقيدة؛ أحسستَها تدرس شخصيتك وتراك زوجًا باردًا مليئا بالحوارات الجانبية؛ تشتم فيك الخوف؛ خوفًا مبررًا بعطش الحب والهوية؛ لهاثك كان يتخفى وراء نظراتك.. تسريحة شعرك العادية جدا.. تفاصيل وجهك المائلة للوردي مطمئنة؛ مرة أخرى.. نافذة المركب مفتوحة والكلام بينكما ظل راكدا منصتا لجزر البحيرة؛ تذكرت سيجارتك أخرجتها وأغلقت على النيكوتين بقفصك الصدري؛ تجاويف الخوف رست حين ناديتها للرقص.. قلت في نفسك إنك لست برسام حين اخترت عارضة أزياء لتحتل منصبا شاغرًا بالبيت؛ ولكنك أمسكت بخصرها جيدا وتحكمت بجسدها داخل نسق شرقي متملك؛ حزنت على أضلعها النحيفة.. جسدان نحيفان عقربا هذه المهزلة الزمنية حيث الوقت يلاحق الوقت وحيث دقة القلب تسابق الأنفاس وحيث الرغبة تقف.. ناولتها قبلة خاطفة ثم أنهيتما العزوبية بكل رقي.. وتزوجتما.

لست بمغنٍ ولا عازف؛ تحكمك النوتة المتكلفة؛ الموسيقى التي تتوغل في النفس وتحكم قبضة القلب؛ المعزوفات على سلم تركيبتك المعقدة.. صاخبة ثم لا تلبث تصبح هادئة ونائمة. هذه الرابطة الحميمة بينك وبين الموسيقى قد تشبه تقاطعك بين بقية الخلق؛ رأيتك بعد عودتك من لقائك بـ «مابيل» قادما من صحراء قاحلة؛ راقبت السيارات الواقفة على غير نظام؛ الريح جافة وباردة؛ المطر قادم مبكرًا والناس حواليك يتحركون باندفاع هادئ.. وأنت مثل نغمة موسيقية شاردة من مقطوعة المطر.. ركضت وسط خوفك السيئ؛ وعلى هذا النحو البائس أيضًا ابتعت علبة سجائر أخرى لزوم التردد؛ لابد لأن تقلم شكوك القادم من شرفتك؛ مابيل ذهبت بسيارتها فرحة؛ ستسهر بعيدا مع جوقة رفاقها احتفاء بالخبر المبهج؛ قلت في نفسك إن الحدث لا يستحق؛ وحذرتها بدبلوماسية ألا تسهر تحت ذريعة الخوف عليها فقط؛ ولكنك الوحيد القادر على تحويل غيرتك القاتلة لخوف عادي؛ وحدك تبلع مابيل بجنونها بلا كأس ماء.. الغيرة؟ لا تعرفها أيضا؛ لربما تشعر بالضيق ولا تعرف لم تشعر بالضيق؛ ولا إراديا تتصرف بحدة تعبيرا عن شيء ما سيحصل في الخفاء أنت على غير علم به؛ تنفعل دون أن يكون للمواقف ما يستدعي ذلك؛ وكلما كنت في حالة انفعالية كان من الصعب جدا تغيير حالة مزاجك؛ وكلما كنت مقطب الجبين ومتصلبا صعُبَ نقلك إلى حالة الفرح والانشراح.

تعرف أنها امرأة جاحدة؛ تقاوم التجاعيد كل صباح بعزم؛ تعرف أنها امرأة للمقتنيات وآخر صيحات الموضا؛ وأن شعرها منهك بالسوشوار وأن لها لكنة غريبة لا تفهمها من حين لآخر

ومـع ذلـك تجـرأت عـلى قصـف كل الفـوارق الشـامخة الـتي تقـف أمامـك؛ طلبتهـا للـزواج هكـذا؛ كمـا يفعـل المبدعـون بحياتهـم العبثيـة؛ يختـارون امـرأة غريبـة ويقامـرون بـكل شيء لتكـون «معـنًى» صريحًـا لوجودهـم حـين ينقـضي العمـر وتجـف القريحـة.. ويذهـب كل شيء.

هـذا السـخاء العاطفـي بالنسـبة إليـك كان سـببا كافيـا لتنهـي حيـاة وحيـدة؛ قلـت لهـا وبعينيـك تلـك النظـرة الشريـدة:

- هل سيأتي وقت تفكرين فيه بالإنجاب؟

- سأفكر بالإنجاب لأحتفظ بك للأبد.

مـددت أصبعـك عـلى عينيهـا كأنـك تمسـح عنهمـا جرحـا حديثـا؛ اشـتمت خوفـك وهـذا أمـر واضـح بالنسـبة لامـرأة مشـحونة بالأضـواء؛ لكنـك تنـسى هـذا؛ وتركـز في وقـع المطـر أسـفل حذائـك؛ تخلـق غرفـة بداخـل عقلـك لتضـع فيهـا كل التفاصيـل المنهكـة للمشـاعر.. كان الـزواج فكـرة ولقـد نفذتهـا؛ وانتهـى الأمـر.

الهـواء البـارد يحمـل إليـك نشـوة توديـع صديقـة قديمـة بحجـم «الوحـدة» لاسـتقبال شيء جديـد؛ جديـد تمامـا.. صعـدت بالسـلم الكهربـائي ونظـرت بعمـق نحـو مرآتـك الصافيـة؛ وجهـك لـم يتخـذ بعـد حسـا؛ لا شـعور بنـدم ولا فرحـة راقصـة مـن عينيـك.. لا حـزن شريـد مـن جبينـك.. لا شيء تقريبـا غـير خـوف لا يعرفـه سـواك أنـت.. خـوف أصـم؛ يعـزف داخـل جوقـة بباحـة صـدرك.. رغـم أنك لا تعـزف ولسـت عالمـا بالموسـيقى؛ اسـتطعت أن تسـمع لكيانـك وأن تبحـث عـن نصفـك الآخـر؛ أي نصـف.. واعتـبرتَ نفسـك «نصفـا» لاعتبـارات عديـدة؛ أهمهـا أنـك طفـل مقهـور عـانى مـن «التوحـد»؛ لـك تاريـخ مـع العزلـة واللانتمـاء؛ وحـدك تعـرف هـذه الأشـياء..

تسهر على جمعية «cœur de sourir» «قلب الابتسامة» وتتبنون هناك جميع الأنشطة المتعلقة بمرضى أطفال التوحد؛ تفهمهم وتفهم معاناتهم.. وحدك؛ متصالح مع أنصاف الأشياء؛ أنت نصف ذكي يقاوم من أجل الكمال.. نصف شقي؛ قاوم نفسه وبرغم علته فكر في مبدأ أسري مع «مابيل»؛ مابيل تبزغ مجددا وتصعد بها السلم الكهربائي مستسلما لهذه الحوارات الداخلية الساخنة.. فتحت الباب وارتميت بداخل السرير الناعم؛ قلت لنفسك من منا لم يؤذه العالم؟ ثم استسلمت للنوم رغما عن الأرق.

الأغاني عادة لا تذهب بك لعرض جزيرة متوسطية؛ الجزر التي تروجها محطات الصرف الصحي كهدية إثر مسابقة غبية لمسلسل مكسيكي؛ بل هي أغانٍ لها القدرة على تحويل مزاجك من رائق إلى حزين؛ أو من مكتئب إلى يائس جدا فلا يدهشني حقا أن أرى وجهك وقد تحول من خائف إلى قاتل.. وأعتقد أن الأغنية التي استمعت إليها لا تفقدك صوابك وحسب؛ بل؛ إنها سمفونية فضة تقمصت فكرة الزواج بـ «مابيلا» وأعادت قلبك حيث الفكرة أولى و»خام»؛ كانت قابلة للتراجع ومع ذلك فلم تأت الأغنيات لإيقاظك.

في الصباح.. كل خوفك؛ كل شكوكك أخذتك؛ كل تفاؤل تقابل به موظفيك؛ كل الشح العاطفي الذي بعينيك اتجاه والديك؛ كل هذا البحث المستميت في تكوين أسرة؛ كل هذا الدافع الشجاع لتكون؛ أشياء تلتقي في الصباح مع تدافع هذه النوتات من البيانو والجاز الرقيق لتقتل جثة الخوف فيك؛ هذا الصباح المستعصي على الهضم مع فنجان قهوتك المحلاة بقطعة

شـكولاطة مـرة؛ تـكاد تُنـسى مرارتهـا لـولا نبـض آلـة الكونترباص الـذي يـزور المقطوعـة -بـين فينـة وأخـرى- خفيفـا قويـا كأنـه للتـو عـاد مـن حـرب.

كنـت قـد اسـتفقتَ في الصبـاح؛ وعندمـا دخلـت سـيارتك كانـت الكـراسي تحـصر ذكريـات المسـاء كلـه في الداخـل.

سُقتَ السيارة؛ وأمسكت بطرف الهاتف لتحدثها:

- صباح الخير.

- صبـاح النـور؛ أنـا سـعيدة.. احتفلـت مـع الأصدقـاء بالأمـس بقـرار زواجنـا.. كانـت أمسـية مـن الأمسـيات المميـزة في حيـاتي.

- جيـد؛ احتفلـت بقـرار زواجـك بغيـاب «سـتيفان» هـذا شيء جيـد «مابيلا».

- ألم تقل لي أنا وأنتِ روح واحدة!

- في جسـدين تفرقهمـا اللغـات والعـادات؛ لكـن روحـك مبهـرة يـا «مابيـلا» مبهـرة فعـلا! أنـت تجعلينـي في حالـة جيـدة وتعرفـين ذلك؛ ولأجـل هـذه الأشـياء الكثـيرة سـتيفان مديـن لـك بقلبـه الصغـير؛ ولـن يسـألك كـم كأس كحـول تناولتـه البارحـة هـي أشـياء لا تخصـه.

- (بصوت متذمر) كالعادة ستيفان !

سـتفرح بوجههـا المكـور الدائـري؛ وبعينيهـا الغائرتين ككهفـين تتوسـطهما حمامـة؛ تلمـسُ الشـفق بخديهـا المتماثلتـين؛ موجـات شـعرها الأشـقر تلـوح لقلبـك؛ الجسـد المصطـف ماسـة ماسـة في نسـق نحيـف مخيـف لا يوحـي بالمـرأة العربيـة الـتي بخاطـرك؛ العربيـة المسـتديرة طويلـة الجسـد والـروح؛ «مابيـلا» الفتـاة الـتي تعطيـك انطباعـا بتوحـد الملامـح الغربيـة؛ مألوفـة وغـير مألوفـة؛

جميلة وباهتة؛ طويلة للحد الذي تتقابل فيه عيناكما ندا لند؛ عيناها الفقيرتان من الحس؛ المستفزتان اللتان لا تهمها أسئلتك المربكة حول الهوية؛ شرطيتا مرور تقتنص خوفك على بعد ميل من الحب.

أنت لا تُمثّل؛ ولا تصلح إلا لمنولوج داخلي رديء.. جلبت معطفك وتصيدتَ هدوء المارة لتفكر في الخطوة القادمة؛ اخترت مقهى من المقاهي؛ لست وفيا بطبعك للأماكن وكأن بقلبك خارطة جديدة تعود إليها كلما زارك بعض من الألم؛ متوحد مع ذاتك منذ الأزل؛ قالت يداك أشياء كثيرة وأنت الفاقد للحدس وللمشاعر الكثيرة؛ الجهد الكبير في التغلب على المرض مع التوحد أنهكك وقضى على مشاعر والديك.. وثروتهم! دروس كثيفة ومعقدة لتستكشف اللغة؛ تعرف معنى أن يركب دماغك جملة تكونُ ذات معنى واضح؛ تفهم معنى أن يكون لك أصدقاء بعدد خوفك ومع ذلك لا يستطيعون دهس هذه الوحدة.. تعرف معنى أن تعتكف على تكديس لعابك في مكان واحد دون أن تمل؛ تعرف هذه الأشياء جيدًا ولم تمثل «التأنق» أو «الحياة الباريسية» فمعارفك يعرفون حربك على المرض؛ يحاولون فهم جملك البسيطة؛ تقول: ستيفان يريدك أن تبقى مدة أطول هذا المساء إن سمحت. ويفهمك «جوريس» لأنه تعود على حديثك عشر سنوات؛ وأنت تقصد بجملتك تلك: ابق معي، صديقي، فأنا بحاجة إليك. ولكنك هكذا؛ توجه مشاعر غريبة ومصوبة بذكاء بلا حس؛ تقول الكلام بناء على رغبة اللحظة ظللت ذلك الطفل بجسد نحيف وبلغة جاهدت لتتواصل مع عالم هربت منه بلا هوادة؛ لقد أبكتك اللغة وعنّفَتك! وكانت أمك

تـراك «عـارا» جلبتـه الجينـات الوراثيـة إليهـا، طفـل لا تتوقـع نوبـات غضبـه؛ ذكي ومثـير غريـب وحـدك تعـرف الغربـة وتعـرف البيـوت الصغـيرة العالقـة بداخـل رأسـك؛ وفي الفصـل الـدراسي الـذي يعـج بأمثالـك؛ وكنـت تعـرف أن عقلـك بـين الصحـة والمـرض؛ إخوتـك المختلفـون أثبتـوا لـك ذلـك مـرارًا.. أحيانـا كانـوا يرونـك مجنونـا أحمـق؛ وأحيانـا يضعونـك في خانـة المضطربـين عقليـا؛ ولكـن أبـاك كان يشـك في السـحر الأسـود أو أن شـيطانا سـيئا يركـب جمجمتـك؛ وأحيانـا كان الطبيـب يحـكي عـن تأخـر عقـلي واضطـراب عـلى مسـتوى التواصـل والنمـو.. وكل هـذا كان يـؤدي إلى «حالـة» مـا؛ مختلفـة وفريـدة لا تشـبهنا بـأي شـكل كان؛ ولا تشـبه «جـاك» أخـاك الأكـبر ولا «مـاري» أختـك الصغـرى ولا تشـبه قهقهـة والـدك ولا عيـني أمـك القاسـية.

ظللـت تراقـب كأس القهـوة؛ سـتيفان اليـوم سـيحاول جلـب بقيـة الأطفـال الذيـن يقبعـون هـم كذلـك بـين الصحـة والمـرض؛ والذيـن لا إمكانيـة لهـم لمواصلـة العـلاج العصـبي ولا قـدرة لأهاليهـم عـلى التأقلـم مـع مـرض عبـثي لطيـف؛ عـلى سـتيفان أن تكـون جمعيتـه بيتًـا لعزلتهـم؛ أن تراقـب أناملهـم الصغيرة وهـي تحاور «الـلاشيء»؛ وهـي تبـني وتبـكي لهـدم مكعباتهـم البلاسـتيكية؛ أن يتحمـل غضبهم ونوبـات الخـوف الـتي تصيبهـم مـن حـين لآخـر؛ عليـه أن يسـاعدهم عـلى تخطـي «التوحـد» وشـقائه النفـسي؛ أخرجـت هاتفـك في الحـال وركبـت رقـم صديـق الطفولـة الـذي يعمـل مديـرًا تنفيذيـا لمصنـع الأجبان:

- صباح الخير.

- صباح النور ستيفان كيف حالك؟ مر عليك وقت يا رجل.

- ستيفان بخير؛ يريد منك جوابا على الايميل الذي أرسله إليك بخصوص جمعية «قلب الابتسامة»؛ نريد دعما لأطفال التوحد كما تعلم.

- جميل؛ ونحن نرحب دائما بمثل هذه المبادرات الخيرية.. سأنتظرك قريبا باجتماع مطول يجمعني بالجمعية.. ما رأيك الخميس مساء؟

- جيد؛ ستيفان يشكرك.. الأطفال لهم قدرة مدهشة على الإقناع تعرف.

مقهقها: أعرف ذلك.. لطالما أقنعتني بأن الشكلاطة مرة كي أتركها لك.

- ستيفان يقدر لك هذا الاعتراف، ثم يبتسم بإيعاز شديد: ستيفان ممتن لسنوات الصداقة بيننا.

أنت لا تطبخُ أيضًا؛ ويصعب عليك دائما التعرف على الزعتر والقزبرة؛ تعرف الطماطم بحجمها الصغير وهذا ليس معيارًا يُقاس علينا نحن بقية هذا البشر الذي يعتبر نفسه «سويا»؛ نحن نعرفها بحمرتها؛ وأنت ترى حجمها وشكلها مغايرًا وحسب.. وبهذا المنطق لا تختلف الطماطم عن التفاح؛ ولا بأس.. تأكل أكلًا غريبًا؛ ولا تمتعض من النكهات القوية أو الحارة؛ وتؤمن بشدة في لا فائدة الوصفات والمقادير ما دام كل الأكل سيختلط في المعدة بشكل متناسق وسليم؛ منطقك متطرف! تضيف العسل إلى طبق العجة بالبيض وتشرب كل هذا بكأس قهوة أو حليب أو شاي؛ وقد لا تأكل مطلقًا وذلك لا يتسبب لك إلا في نحافة زائدة؛ غير أن شعور الجوع مريح قليلا؛ لا تطبخُ إلا قلبك قربانًا لكل هؤلاء الغرباء الذين لم تستطع فهمهم على طول هذه السنوات

الكثيرة؛ الغربة برأسك لم تُخلصك من عذاباتهم؛ «مابيلا» مثلا كائن لطيف يستحق أشياء يمكن لستيفان أن يوفرها بكل فرح؛ وهذا كل شيء.

أما بخصوص كأس القهوة التي بيدك فأنت لا تنظر إليها؛ ولا تحدِّث إلا طيف المطر؛ تطل خارج المقهى وتتملص كعادتك من كآبة الجو؛ لا تساهم إلا في التركيز الشديد على الجمعية؛ حقيقة لم تفكر في قرار زواجك بمابيلا كأنه قرار عارضي مرّ؛ سحابة ولود حطت أمطارها ثم رحلت لأمكنة مقفرة؛ هذا ما حصل لك وأنت تعتصر نفسك لأجل كل طفل حزين لا يعرف عن عالمه إلا القليل.. تريد لهم أشياء كثيرة؛ وهذا كاف لأن يتملكك إحساس السعادة القصوى والتي عشت ترتجيها دائما.. عشت من أجل ذلك وستبقى..

«أنتَ..

أنتَ هو الكتب التي تقرأ؛ الأفلام التي تشاهد؛ الموسيقى التي تسمع؛ الأحلام التي تملك؛ المحاورات التي فيها تنخرط؛ أنت ما تقتنصه من هؤلاء.. أنت هو.. صوت المحيط؛ نفحة الهواء المتجدد؛ النور الأكثر ألقا والركن الأكثر حلكة.

أنتَ تراكم من كل خبرة قد جربتها في حياتك؛ أنت هو كل يوم سعيد؛ وكل يوم رسمه الحزن ليعيدك إليك؛ أنت هو كل يوم منفرد بذاته.

أنت التردد القاتل الذي يعتريك؛ وشعور اللافهم في اللحظات القاسية؛ أنت القوة الحقيقية القادمة من القلب.. لذا؛ فلتغمر ذاتك في بحر من المعرفة والوجود؛ دع الأحلام تتدفق في عروقك.. ودع الألوان تُشعّ في عقلك».

-٣-

«خوتنا يالإسلام.. هزو بنا العلام.. زيدو بنا القدام ويلا خيابت.. دابا تزيان!».

كانت الحاجة الحمداوية تصدح بالتاكسي الذي يقلني من مدينة «تارودانت» إلى «قرية تافينكولت»؛ بصوتها المغربي الأصيل الفار من الحزن القادم إلى الأمل؛ تصدح بكامل هيبتها بهذا «التاكسي» الأخضر؛ إنني لم أعتد في الصباح إلا على فيروز على أبعد تقدير؛ ولكن الحاجة الحمداوية قد تحتاج يقظة الظهر أو العصر.. أو هدوء ليل يحيلك على رقص.. ولكن هذا ما حدث! كنت لا أزال بخفي البلاستيكي وقد أخذ من قدمي موضعه والتصق بالجلد.. حالتي لم تكن بحالة مسافر عادي؛ إطلاقا.. بل إن من بالحافلة ليلا من ظن بأني مجرد متسولة أو إحدى نصابات العصابات بالمحطات الطرقية؛ وقد قال لي أحدهم ما هي قصتك بالضبط! أعني أن حالتي المظهرية لم تكن تبين أني «أستاذة تعليم ثانوي» أدرس مادة «الفلسفة» أو لعلها قد تظهرها! ولكنهم لم يعرفوا البوهيميين والبوهيميات ولم يخالطوا أبدا «فنانا» أو «رساما» ليعرفوا قدر كل هؤلاء من طرقوا أبواب الفضول! قال ما هي قصتك! وكان رفيق ومساعد سائق الحافلة يتساءل بشكل جدي وبلغة بوليسية استنطاقية مباشرة:

مـن أيـن أتيـت بالمـال وأنـت بهـذه الحـال؟ ومـا هـي قصتـك بالضبـط؟

قلت: كيف؟ ليست لي قصة؟

-يعني ماذا ستروين الآن على مسامع ركاب الحافلة؟!

-آه تعني موضوع التسول؟

فضـل ألا يجيـب عـن سـؤالي ولكـني فهمـت أنـه قـد ظـن أني مـن هـؤلاء المتسـولين الجـدد الذيـن يخترعـون لهـم قصـة شـيقة ومحزنة تسـترعي انتبـاه الراكبـين والراكبـات، حيـث ينهضـون مـن مقاعدهـم خـلال فـترة انتظـار اكتمـال نصـاب المسـافرين ومـلء مقاعدهـم الشـاغرة؛ بـرأس متخـاذل وعينـين دامعتـين ويديـن معبرتـين وصـوت رخـو رقيـق يدنـو للنحيـب ينتهـز فرصـة انتظـار الجميـع ويذهـل الـركاب بفصاحـة اللسـان وعمـق غـدر الزمـان وتكالـب الأسر والصحبة والخـلان ثـم فجـأة يقـول بينمـا الـكل يتسـاءل:

«إخـوتي المسـافرين إخـواتي المسـافرات؛ فليصلكـم الله بخير وعلى خـير؛ دقيقـة مـن فضلكـم واسـمعوا قصـتي؛ «خـوتي» المسـافرين؛ جئـت أنـا وأمـي وأختـي مـن سـهول الغـرب وتقطعـت بنـا الحبـال إلا حبـال الله؛ سرقنـا وخـلال السرقـة تعرضـت والـدتي للـضرب بسـكين حـادة وهـي الآن طريحـة الفـراش؛ إخـوتي المسـافرات إخـواني المسـافرين؛ أنـا ابنـة نـاس وعائلـة وأصـل؛ وقبـح الله هـذه المواقـف الـتي تجعلـك بـين نهـار وليـل متسـولا؛ أنـا يـا إخـوتي أسـتنجد بكـم لجمـع تكاليـف السـفر والعـودة لأهـلي بعدمـا أخبرتهـم بمـا حصـل لنـا.. إخـوتي عاونـوني بمـا سـخر لكـم الله مـن مـال؛ عاونـوني يـا إخـوتي ولترافقكـم السـلامة خـلال هـذا السـفر الطويـل».

ثم يسدل الستار!

في كل مرة كنت أركب فيها على متن هذه الحافلات؛ كنت أود أن أصفق على الخيال الخصب الذي يأتون منه بهذه القصص المشوقة والتي _حقيقة رغم حزني العظيم بقلبي _ هي جزء من سخرية الأقدار علينا جميعا.. ورغم أني أعرف مدى يأسي الشديد غير أن عقلي الصغير لا يمنع نفسه من الانتقاد والسخرية؛ لأن السخرية هي دائما الحل الأنسب لمعالجة الأفكار بطريقة مرنة؛ وعلى أيٍّ تبادرت إلى عقلي مجموعة من الأسئلة العظيمة: عائلتك من سهول الغرب وتمتطين معنا حافلة نحو تارودانت؟ وستتركين والدتك طريحة الفراش! قد يكون بعض المنطق مساعدا فنقول بأنها ستستنجد بإحدى العائلات بتارودانت ولكن أو ليست الهواتف النقالة تقرب هذه المسافات وتبعدها أيضا - كما حصل معي -؟ أعني كان بإمكانها أن تطلب مكالمة على الهاتف لتستنجد بأي كان على الكرة الأرضية؟!

لقد ضربت الصبية وترا حساسا؛ «أيها المسافرون طريق السلامة والذي لم ينج من الدنيا لم ينج من عقوباتها!» هكذا أنهت فتاة الحافلة «حملتها التوسلية»، بينما تعاطف الركاب بشكل كبير معها حتى ظننت أننا على متن طائرة «البوينغ ٤٤٠» لا حافلة «بسم الله السلامة» المتهالكة نوعا ما.. وعموما قد جمعت الفتاة مبلغا يسيرا من المال يكفي لعودتها هي ووالدتها وأختها التي اختفت فجأة عن أنظار الأحداث والقصة؛ كمخرجي المسلسلات عندما يودون بحتف بطل بطريقة غامضة وغير منطقية فقط لأنهم اختلفوا على راتبه.

من حيث السفر الطويل؛ فأنا اعتدت الاثنتي عشرة ساعة

عبر هذه الحافلة بالذات.. لا مناص قد كان.. وعموما فأنا لم أكن بحالة جيدة لأستمتع كما عادتي بالسفر.. قديما؛ كان السفر بالنسبة لي آذانا للحياة! وكنت أفرح به كما يفرح الرضيع بمحيا والدته؛ أما الآن فهو مجرد آلة زمنية للعبور من وضع إلى وضع آخر لا يقل عن الأول بسوء ولكنني لم أجرب على الأقل مشاكسة الغرباء ومماز‌حتهم.. لم أجرب الالتصاق بزجاج النوافذ.. لم أعد بأصابعي البيوت ذوات النوافذ المنارة المفتوحة.. كانت كل هذه الأشياء عبارة عن بروتوكول ضروري عند كل سفر.. كنت أضع مشاكلي جانبا وأندمج تباعا مع كل وجه شخص عابر.. أنا أحب العابرين والغرباء؛ وأجد متعة غامرة في التلويح إليهم بيدي.

وقد مر الوقت سريعا حين نمت نوما عميقا؛ وضعت رأسي فوق كتف امرأة مسنة غريبة اشتممت فيها ريح جدتي؛ وهكذا وجدتني أتكئ عليها بتلقائية وبقيت هناك حتى الصباح.. حين هزت السيدة كتفها قليلا ومسحت على وجهي الشاحب فأنا لم أنم كما ينبغي بالأمس ومضيت أجر رجليّ وأخيط دروب مدينة الرباط حتى المساء بلا كلل؛ لذلك لم أتوان على الخضوع للنوم؛ وبشكل عفوي استسلمت للإغفاءة الجيدة؛ وكنت قد نسيت ما حصل لولا ذلك الاستيقاظ بمحطة تارودانت الطرقية؛ وبدت لي الأرضية الإسفلتية مبتلة وعليها برك صغيرة وكأنها أمست على عاصفة ما؛ كان الجو صيفا على مشارف الانتهاء وبهذه الأوقات يصعب أن تحدد مناخا قارا؛ فالصيف وإن بدا صيفا بتارودانت فهو صيف متلبس بشتاء أو صيف محمل بمعطف الرياح الشرقية مهما تمنيت ألا يصير ذلك؛ وكان كل

خـوفي أن أكـون وقـد نسـيت نوافـذ بيـتي مفتوحـة فيصيبهـا مـن مطـر هـذه الأيـام شيء.. خفـت عـلى أريكـتي الزرقـاء.. وعـلى المكتـب الخشـبي الأسـود.. وخفـت أكـثر عـلى زربيـة الصـوف الحقيقيـة والـتي مـا إن يصيبهـا بلـل تآكلـت وأكلتهـا ديدانهـا إلى ألا يبقـى هنـاك غـير الأرض الصلـدة! خفـت عـلى كل ذلـك.. وهكـذا بالرغـم مـن أني كنـت أكابـد الخيبـة كان لزامـا عـلي أن أغـير شريحـة هاتفـي النقـال عـلى وجـه مـن الـضرورة الملحـة؛ وكان عـلي أن أصـبر عـلى سـماع الحاجـة الحمداويـة بالتاكـسي وهـي تقـوم بالبرمجـة العصبيـة لشـحن الهمـم.. وكان سـماع الحاجـة الحمداويـة هكـذا عـلى الريـق شـيئا مسـتبعدا إطلاقـا.. ولكـن سـماعها كان أفضـل مليـون مـرة مـن سـماع زوج عمـتي في ذلـك الصبـاح.. لـم تكـن لي رغبـة في تذكـره أو حـتى محاولـة ذلـك ولكـن لا بـأس؛ إني هنـا الآن بكامـل خـوفي مـع قليـل مـن الـدفء بالأطـراف..

كانـت الحيـاة في ذلـك الصبـاح مختلفـة؛ نظيفـة تمامـا حيـث يبـدو أن الأمطـار ولـو بغطرسـتها وعصبيتهـا بالصيـف قـد تكلفـت وغسـلت غبـار الأشـجار وكنسـت مـن الشـوارع مـا علـق مـن أوراق الحمـلات الانتخابيـة القديمـة المتبقيـة.. يـكاد ريـح الصبـاح يخـرج مـن ديـاره العليـا خجـولا وغارقـا في بهائـه الليـلي؛ كل شيء هنـا عتيـق وأزلي.. النخـلات الشـامخات البـارزات وسـط بـاب «الزرقـان» جـدران السـور العريـق.. وأنـت مـار مـن شـارع «محمـد السـادس» إلى أن تبتلعـك الطريـق الرئيسـية إلى «آيـت اعـزة» ثـم «أولاد ابرحيـل» وصـولا إلى مفـترق الطـرق فنـودع يمينـا «سـد مـولاي عبـدالله وتاليويـن» وتسـتقبل طريـق مراكـش عـبر طريـق «تيزيـن تيشـكا» فتبـدو لـك «تافينكولـت» نقطـة صغـيرة بـين جبـال الأطلـس الكبـير كقطـرة نـدى

تلمع من بعيد.

***

هل كانت هذه حقيقة أم هلوسة مزعجة؟ أنا الآن في بيتي ولا أحد يعرف إلى أين ذهبت ولا كيف قضيت هذه الليلة.. ولكن للأسف قضيتي محسومة فقد لخصوها على الأغلب أني هربت مع أحد «الذكور»! هذه فكرة تعشش في أذهانهم منذ قرون ولقد وجدتني متهمة بهذا الأمر طوال حياتي حتى وإن عشت عمري لصيقة بهم؛ كانوا ليشكوا بالأمر؛ والإشكال أنه أمر عادي قد يحصل لأي أنثى بريئة طرق الحب قلبها؛ من الطبيعي أن تعرفي رجالا في حياتك؛ أن تحدثيهم.. أن تناقشيهم.. أن تدرسي معهم.. أن تخالطيهم في المقاهي والمدارس والعمل.. أن تتعرفي على إنسانيتك من خلالهم؛ أنا إنسان.. إنسان في هيئة أنثى.. إنسان يُحب.. يخطئ ويتألق.. يفشل ويضعف.. ولكنه إنسان.. غير معزول عن هذا الكون الفسيح؛ وأن العلاقة مع رجل لم تكن في يوم قط علاقة غرامية أو جنسية.. هذا ما يدور في عقلي؛ وها أنا ذي أثبت لنظريتهم أنها خاطئة تماما بل أني أنا هنا في بيتي.. وحيدة؛ كما كنت دائما.. ها أنا ذي أهرب مع شكوكهم.. أهرب مع ضغوطاتهم المريعة.. أهرب مع قسوتهم إلى كهف بعيد.

وهذا البيت على مقاسي؛ صغير وبدائي ولكنه ركن حر! تفقدت النوافذ التي بدا لي بعضها مفتوحا؛ كان الشباك الخشبي قد بقي مغلقا ولكنه كان كافيا لدخول قطرات الماء.. ولكن لا بأس قلت لا بأس؛ كان قلبي بدأ في الضغط على هواجسي مرة أخرى.. كبر الخوف؛ وأنا واعية تماما أن هذا الخوف الذي يستبد بي خوف

لا يمكـن السـيطرة عليـه.. نزلـت عـلي فكـرة مـا «أن تمـوت جدتـك حـسرة عليـك»، وبـدأت الفكـرة تتحـول رويـدا رويـدا خلـف عيـني كشريـط سـنيمائي قديـم:

_ أمـي تـصرخ وتنتحـب؛ وجـه أصفـر.. عينـان متسـعتان.. يـدان تصعـدان لفـوق الـرأس ثـم تضربـان بشـدة عـلى الأفخـاذ.

_ أبي جالـس بهـدوء متعـال؛ واضعـا رأسـه بـين كفيـه (كمـا أفعـل أحيانـا)؛ ولكـن يمكنـك رغـم ذلـك تفَقُّـد مـدى عصبيتـه بمـدى اهـتزاز رجليـه.

_ وجـه جـدتي الأزرق الميـت البـارد (مثـل يـدي)؛ وجـه حزيـن؛ يخـبرني أني كنـت سـبب الوفـاة ويحملـني هـذا الثقـل.

_ إخوتي.. بل صوت إخوتي؛ صوت معذّب.

_ الكثـير مـن الجـيران؛ الكثـير مـن الـرؤوس الـتي تقـول لأمـي: البركـة فيـك.. عظـم الله أجركـم.. الكثـير مـن الألسـن تتهامـز: يقـال أن حفيدتهـا هربـت مـع أحـد الرجـال.

أنـا واعيـة بـأن هـذه المخـاوف مجـرد وهـم؛ ولكـن في اللحظـة الـتي تتسـاقط فيهـا الصـور لا يمكنـني بـأي شـكل آخـر تجنبهـا أو إبعادهـا مـن رأسي الحزيـن.. هكـذا؛ لا أختـار المناسـبة ولسـت المسـؤولة عـن إحضارهـا بذلـك التسلسـل المنطقـي؛ سردهـا في رأسي يبـدو كمسلسـل.. كمـا قلـت؛ لقـد رأيـت وجـه جـدتي الأزرق الميـت والبـارد؛ نائمـة عـلى أريكتهـا عـلى يمـين غرفـة الضيـوف حيـث تنـام دائمـا، بينمـا أمـي تـصرخ بصـوت قـوي وتقـول بمـا معنـاه أنهـا ماتـت حـسرة عـلى هـروبي مـن البيـت؛ كنـت أحـس بالذنـب تجاههـم.. ذنـب حقـير لا معـنى لـه؛ ولربمـا هـو ذات الذنـب الـذي

علـق مصـيري سـبعًا وثلاثـين سـنة بجانبهـم.

هـل تـراني أخطـأت حـين لـم أبـق.. حـين لـم أواجـه صـوت أبي الرعديـد؟ هـل تـراني أخطـأت في حـق جـدتي الـتي أعـرف مسـبقا أنهـا سـتلقي اللـوم عـلي! هـل كنـت لأبقـى.. لأسـمع هـذا الموضـوع كل يـوم ثـم ليتـم تحويـلي بشـكل آلي غـبي إلى فتـاة تضـع قطعـة قمـاش عـلى رأسـها دون أن يحـق لهـا وضـع سـؤال واحـد؟ هـل كان رأسي أم رأسـهم؟ شـعري أم شـعرهم؟ شـفاهي أم شـفاههم؟ لقد قلـت ذلـك في رأسي وأنـا متيبسـة وصامتـة عـلى أريكـتي الزرقـاء.. الأثـاث الوحيـد بهـذا البيـت النقـي؛ قلـت كل هـذه الأشـياء بـرأسي ثـم أحسسـت بتعـب؛ كنـت لـم آكل شـيئا تقريبـا منـذ عشـاء يـوم السـبت؛ وحـين جـاء الأحـد باغتتـني المكالمـة الـتي قضـت عـلي؛ والحـق أن أمـي قـد سـخنت بعـض الفطائـر بالزبـدة كانـت بالثلاجـة؛ وكان هنـاك تمـر يابـس وزيتونـات سـود وشـاي سـاخن.. غـير أني بفعـل الـبرودة تتجمـد حنجـرتي ومعـدتي وكل هـذه الأعضـاء الـتي ليـس لهـا ذنـب غـير أنهـا تعيـش داخـل روح هشـة.. تخـاف.

تلـك هـي المسـألة؛ مسـألة خـوف ووقـت؛ لأنـني لا أسـعى إلى امتـلاك هواجـس بـأي شـكل كان؛ ولكـن هـا أنـا ذي محـاصرة -مثـلا- اليـوم بمـوت جـدتي بسـبب هـروبي أو اختفـائي.. مـاذا يفعلـون الآن؟ ومـاذا فعلـوا البارحـة؟ هـل عـلي أن أفتـح الهاتـف لأتأكـد مـن خـبر مـوت الجـدة؟ هـو خـبر زائـف وأعلـم أنـه كذلـك.. مجـرد فكـرة وهميـة ولكـن مـا باليـد حيلـة.. الفكـرة ذاتهـا.. الخفقـان ذاتـه.. الضـوء الأسـود الـذي يخيـم عـلى زاوية نظـري.. فكـرة مـوت الجدة.. وجـوه إخـوتي الكئيبـة وعيونهـم الـتي تلومـني بصمـت.. الحـزن.. أبي يتـبرأ مـني إلى يـوم الديـن.. أمـي تبـكي.. الجـيران يتغامـزون: يُقـال

أنهـا هربـت مـع رجـل صبـاح يـوم الأحـد..

في واقـع الأمـر لا يمكـن لـكل هـذا أن يحـدث؛ إنهـا أكـثر من سـيطرة حقيقيـة للأفـكار عـلي؛ أقـوم بعدهـا لأتقيـأ حـتى وإن لـم يكـن بمعـدتي طعـام.. تمـددت فـوق الأريكـة ورميـت بالهاتـف النقـال بعيـدا؛ وفي أبهى حـالات الوعـي بهـذه «الأزمـة» الـتي تـزوروني بشـكل أسـبوعي أو حـتى يومـي لا أفعـل شـيئا سـوى المقاومـة؛ أتكمـش حـتى يصبـح جسـدي كتلـة واحـدة هلاميـة مـن اللحـم؛ أتكمـش بطريقـة تجعلـني غـير مرئيـة؛ يتكمـش جلـدي ويصبـح شـعري في حالـة تأهـب مثـل القطـط فأتيبـس بعدهـا كشـجرة تـين.. أبقـى كذلـك حـتى تمـر تلـك العواصـف الذهنية.. سـاعة أو سـاعتين أو ربما في نصف سـاعة.. أحبـس الأنفـاس وأعـدّ عـلى أصابعـي الأفـكار وأحـاول ملامسـتها.. ملامسـة وجـه جـدتي الميـت.. ملامسـة عيـون الجـيران.. ملامسـة دمـع إخـوتي.. ملامسـة صـوت أبي.. ملامسـة الصـور الصامتـة الـتي تتقاطـر فتذهـب إلى مـكان مـا بـرأسي.. مـكان هكـذا بعيـد لكنـه بالـرأس يشـبه النفـق قليـلا لكنـه ليـس بنفـق ويشـبه الكهـف ولكنـه ليـس بكهـف؛ وهـو مثـل ثقـب أسـود يتسـع ثـم يضيـق.. يتسـع ثـم يضيـق.. فيضيـق فأخـاف.. يتسـع فأرتـاح قليـلا مـن خفقـان القلـب.. ولقـد جلسـت هكـذا اليـوم؛ في بيـتي.. شـبه حـرة ولكـني جبانـة؛ الحريـة والجـبن! يـا لـه مـن بعـد فلسـفي.. قلـتُ ذلـك لأبعـدني مـن الثقـب الأسـود ولأهتـم بتحليـل أمـر مـا؛ هـذه طريقـتي في إبعـاد الأزمـات الحـادة للخـوف؛ أتعاطـى للأسـئلة الـتي تتوالـد وتتوالـد فيصعـب عـلي بعدهـا الإرسـاء عـلى الجوهـر، ولكنـني عـلى الأقـل أعتمـد عـلى هـذا الـرأس المقلـق والمُفـزع فأندهـش مـن قـدرتي عـلى الجمـع بـين الجنـون والعقلانيـة.

شيء ما معتم طويل كان يتحرك أمامي؛ نهضت من مكاني بفزعي الأزلي ثم ما لبثت أنهال عليه بخفي البلاستيكي الذي وضعته بحنان على جانب المكتب؛ كنت أتأكد أني قد أصبته.. هل كان ذلك صرصارا عاديا؟ أم كان شيئا آخر؟ شيئا آخر كماذا قلتُ! وخيل إلي أنني أمام عقرب سوداء مستعدة تمام الاستعداد لإلقاء سمها علي.. تراجعتْ قليلا وتراجعتُ قليلا؛ ماذا وإن مددت يدي لها لتُنهي مأساتي برفق حقيقي؟ سوف لن أموت. أجبتُ بدقة القناصين.. لن أموت بسهولة؛ لسوف أتقيأ فقط وستسمعني جارتي «مينة» بائعة الخبز بأسفل البناية؛ وسوف يدق ابنها «شمس» على الباب إلى أن يكل ويفتحه بقوة.. وهذا كله سيجر لإنقاذي! الممرضون هنا يعرفونني؛ طبيب المستوصف الذي يأتي ويغيب يعرفني.. سوف يتم إنقاذي بشكل سحري سلس.. إذا علي التخلص من هذا العقرب الآن.

أنا لا يهمني ما سيحصل بعد أن تنزل الجدة من السطح وتخرج أمي من المرحاض للصلاة.. وبعد أن يرجع أبي من المسجد؛ إنهم لم ينتبهوا لغيابي حتى تنادي علي الجدة للغداء.. لقد ألفوا أن يجدوني منزوية بخفاء كعنكبوت في مكان ما.. وحتى وإن كانت الغرف بلا أبواب فأنا صنعت لي حيزا صغيرا غير مرئي؛ وقبل أن أتجرأ على الهروب كنت وقد تركت ملاءتي ممدة تحت وسادة وكانت الوسادة تشبه جسدي النحيل كله؛ وسوف يظنون أني عاودت النوم.. ولكن ماذا لو اتصل عليهم زوج عمتي ليؤكد الخبر؟

ما الذي فكرت في البدء به الآن؟ تغيير جذري؛ أو على وشك التحديد؛ كنس هذا البيت الصغير.. استخراج ملابسي من

الصنـدوق الخشـبي المزركـش والـذي اشـتريته مـن سـوق الخـردة بـدرب «مينـدلاس» بتارودانـت؛ سـأقوم بتنظيـف صحـني الوحيـد وملعقـتي الوحيـدة ومقـلاة وشـوكة وملعقـة.. أدوات المطبـخ المنفـردة والمتفـردة؛ واحـدة واحـدة أسـتمتع بجليهـا السريـع.. لسـوف ألقي اللـوم عـلى السـجاد الأصـلي بشـعيرات جدائـل الماعـز الحقيقيـة الـتي لا تشـوبها شـائبة؛ سـوف أسـقي أصيـصي المتيبـس.. أبعـد أصدقـائي العناكـب مـن كل زاويـة بهـذا البيـت الصغـير: غرفـة النـوم والمطبـخ والحمـام وأنـا طبعـا.. سـأنتزع حقـي في الوجـود حـرة؛ سـأقرأ الشـعر جهـرا.. سـأغني «نجـاة الصغـيرة» جهـرا؛ سـأدعو الله جهـرا وسـوف أقـاوم.

***

تشرين...

بأقـصى درجـات الحـذر خرجـت مـن بيـتي؛ وتعمـدت أن أخفـف من حـدة الصعـود بحـذائي مـن عـلى الـدرج حـتى لا تلتفـت إلي «مينـة»؛ وحـين تسـمعني توقفـني مـن البـاب فـتروج أحاديـث طويلـة غالبـا مـا أكـون في غـنى عنهـا في الصباحـات.. ومـن بـين نسـاء تافينكولـت كلهـا كانـت «مينـة» ذات البـشرة السـوداء والضحكـة البيضـاء والملامـح الأصيلـة ذائعـة الصيـت بخبزهـا اللذيـذ والرخيـص؛ حيـث كانـت تبيـع لنـا الخـبزة الواحـدة بسـتة عـشر ريـالا عكـس أصحـاب الحوانيـت الذيـن يزيـدون ثمانيـة سـنتيمات للخـبزة الواحـدة؛ فـكان الجميـع يتقاطـر عـلى بيـت «مينـة» أمـا أنـا فكانـت خـبزتي مميـزة عـن البقيـة؛ تعجنهـا بالقمـح الصلـب بنخالتـه كامـلا فتضـع لي الخبـيزات صغـيرات كمـا أشـتهي؛ ثـم تغمرهـا بكـرم بنخالـة القمـح حـتى يسـود

ومن ثم تتركه ليخمر بعيدا عن باقي الخبز؛ فتحمره قليلا حتى يتلون باللون الذهبي وتتركه بفوطة خاصة حمراء وتضعه بحرص في غرفة نومها حتى مجيئي؛ وكنت أسألها عن سر هذه الالتفاتة العظيمة من جنابها الكريم فكانت تقول: أنت عزيزة علي. وكنت أغمرها بحضن وأذهب؛ لا تترك لي مجالا لأن أقول كلاما عاديا أو منمقا؛ كانت مينة الأشد حنانا؛ الأكثر عطاء.. الأبهى على الإطلاق.. وكان ابنها شمس لا يترك بيتي؛ فكان يقتسم معي رواية الشهر أو مقال الأسبوع بإحدى الجرائد وكانت أمنيته أن يكتب «إنشاء» جيدا يصفق له جل التلاميذ.. كان حلما غريبا؛ حلم الخطابة والبلاغة! فكنت أعلمه القراءات وتجديدها بين ما هو فلسفي وأدبي ثم تاريخي؛ فكان يرحب دائما بالفكرة ويجلس بجانبي بسحنته الحنطية الجميلة وعينيه المتسعتين لقراءة ما أبعد من الحروف.

ومينة لم تحلم يوما بأن تكون صانعة للخبز بل وماهرة إلى الحد الذي أغلق فيه «السي الصالحي» مخبزته الجديدة؛ قطعا لم تحلم مينة بذلك وبالرغم من أنها أتت من إقليم الحوز إلا أنها سريعا ما تعلمت الأمازيغية وحفظت تشعباتها وأدركت معانيها الخصبة؛ لم تحلم مينة كما جاء على لسانها ذات يوم إلا أن تكون «ربة بيت» بكل ما تحمله الكلمتين من عمق؛ ربته ومالكته غير أنها تكتري الشقة السفلى مثلي من صاحب عمارة سكير؛ يشرب «الما حيا» (ماء الحياة) ليلا ويأتي ليعربد صباحا باكرا بالحي المجاور على زوجته.. مينة السيدة الفارعة الطول ذات الجسم المكتمل والانحناءات الناضجة.. شمرت عن ساعدها ذات قدر حين جاءها خبر حادث زوجها «ابراهيم»

بدراجته النارية بين طريق «تافينكولت» و«أولاد برحيل»، ولم يكن وحده فقد كان مصطحبا عشيقته أيضا والتي كادت أن تموت لولا تدخل سكان الدواوير هناك؛ ومنذ ذلك الوقت و«ابراهيم» الإسكافي برجل مائلة للعرج؛ وقد سامحته مينة على فعلته.. كل النساء هنا تسامح أزواجها على فعل الخيانة؛ وإنه أمر يتعدى البطولة لما هو أبعد من ذلك؛ الفحولة هنا مقياس ذو شأن ومينة وإن اشتكت من طيش زوجها أبيض السحنة فإنها تصدق في اللاوعي أساطير الرجال الخفية؛ لقد حلف بأغلظ إيمانه أنه لن يكررها؛ وهي بنفسها حكت لي: «لم يظهر عليه قط أثر الخيانة؛ لقد ظل مستقيما إلا في أحايين كان يتلصص فيها باستحياء على بنات الحي؛ وكنت لا أقول شيئا على مثل هذه التصرفات فهي مشروعة وكما يُقال «الشوف لا يبرد الجوف» أن تنظر لأجساد النساء لا يشفي غليل الرجال؛ ومما أعجبني في إبراهيم أنه لا يفوت صلاة فجر؛ وهو شخص يحب النظافة ويحب أكلي كثيرا.. والله يهديه؛ الهداية من الله وحده.. في ذلك اليوم حضر الشيطان بينه وبين تلك المرأة وقد حلف لي بعد الحادثة أنه لن يعيد الكرة إطلاقا.. ماذا أفعل له؟ على النساء أن يصبرن إن أردن حماية عشهن من الخراب.. ها هو الآن شبه معاق بتلك الرجل العرجاء! لا يستطيع الآن أن يمشي بها كما من ذي قبل؛ وقد قال لي إن الدواء الذي يشربه لعلاج العوج من قدمه يسبب له نوما شديدا فيتأخر في الاستيقاظ؛ وذات يوم اقترح علي بعدما كانت العائلة كلها تستدعيني لخبز خبز الأعراس بأن أقوم بصنع الخبز لحسابي الشخصي وقد قال لي أني عالة عليه وأن رجال اليوم يحبون المرأة المعاونة؛ غير ذلك

أصبح لا يسدد فواتير الكهرباء والماء والكراء؛ قال أنه لا يجني من إصلاح أحذية هذا القوم درهما واحدا.. ومنذ أن أتى صاحب العمارة يقسم بأغلظ إيمانه أنه سيطردنا شر طرد لم يعجبني المنظر أبدا؛ أحسست أن كرامة شمس وشروق في الأرض؛ في الفجر قام هو ليصلي صلاته وقمت أنا للمطبخ؛ كان بحوزتي عشر كيلوات من القمح الطري كانت هبة من خالي في الحوز؛ وكان لي سميد صلب أصفر؛ ونصف علبة من الخميرة وماء الصنبور.. قلتُ فلأتوكل على الله؛ سخنت الماء وغسلت أحواضا كبيرة تكفي للعجن ثم انهلت على الدقيق أدعكه فيلتصق بين فراغات كفي فأخاف من ألا أدرك عجنه؛ فأعاود سكب القليل من الماء الساخن بيدي وأحسن بكفي إدخال الهواء بداخل العجين فأحدث فراغا كبيرا ثم أعاود جمع العجين حتى أسمع فرقعة جيدة؛ تلك الفرقعات التي ندركها بالعجن هو العجن الجيد للخبز؛ أي نعم هكذا تعلمت على الجدة وبهذا الشكل استمررت.. في الأول صنعت مئة كويرة صغيرة؛ فرشت لها ملاءة نظيفة وبضع فوط نظيفة أيضا؛ استعنت بكل شيء لدي في البيت؛ وضعت تحتها القليل من السميد الأصفر وغطيتها بالسميد أيضا كي لا تلتصق بالفوط؛ كل هذا وابراهيم في المسجد؟ (تساءلتُ أنا).. نعم؛ كان يضيف بعض الركعات لحمد الله؛ وحين رجعت كانت أولى خيوط الشمس.. أقول ذلك لأني أتذكر أني أطفأت نور الغرف كي أعتمد فقط على نور الصباح؛ فأنا اقتصادية أحسب كل شيء (تضحك حتى تلمع أسنانها) يكون بعدها قد خمر الخبز بفعل تلك التدفئة بالملاءات؛ وهكذا أشعلُ فرني الصغير والذي لا يتسع إلا لعشر خبيزات صغيرات؛ أطرحها فوقه فأشعل

نـار موقـد الأسـفل؛ وحـين تنضـج خبـيزاتي مـن الأسـفل أقـوم بإنزالهـا حـتى تتحمـر مـن فـوق؛ أقلـب الخبـيزات برفـق مـن جميـع الاتجاهـات.. وحـين يحمـر اللـون وتنضـج الرائحـة أضعـه في قفـة كبـيرة مـن الـدوم؛ وضعـت العشريـن خـبزة وتأبطتهـا حيـث حانـوت «عبدالمالـك» وكانـت السـاعة حينهـا السـابعة والربـع بالتمـام؛ قلـت أتشـتري مـني خبـيزاتي بسـتة عـشر ريـالا فقـط وأضفـت إنهـا سـاخنة وخـبز الـدار؛ قـال «عبدالمالـك» بسـم الله ولـم يردهـا في وجهـي أبـدا.. ثـم هـو مـن تكلـف بتوزيـع الثمانـين الباقيـة عـلى أصحابـه من الحوانيـت وصاحـب المقهـى الوحيـد بالسـوق؛ وربحـت مبلغـا مـن المـال اشـتريت بـه دقيقـا صلبـا وسـميدا وعلبـة خميـرة وعلبتـين مـن الملـح؛ وتطـورت الحكايـة إلى أن أصبحـت العائـلات يشـترين مـني بالإضافـة إلى الثلاثمئـة خـبزة الآن؛ كمـا تعرفـين أخـبز بالليـل وبالنهـار ولذلـك هاتفـت أخـتي «لطيفـة» مـن الديـار والحمـد لله أنهـا هنـا لمسـاعدتي».

***

-كيف خطر على بالك يا مينة أن تسمي ابنك شمس؟

-لا لم أكن أنا، بل سماه إبراهيم.

-وماذا تعني الشمس يا مينة؟

-الشـمس؟ (قالـت بعينـين لامعتـين ضاحكتـين وباسـتغراب أجابـت) الشـمس؟! الشـمس هـي السـيدة الـتي تزورنـا بالنهـار وتختفـي بالليـل؛ تعطينـا الحـرارة والضـوء.. الشـمس شيء جيـد.

-الشمس ليست بشيء يا مينة!

-إنها مخلوق مثلنا مثلها!

-برافو! أنت فيلسوفة يا مينة!

-ماذا تعني «فلسفوفة»؟

- (أضحك) «فيلسوفة» يا مينة؛ فيلسوفة يا مينة تعني أنك امرأة تقول أشياء في غاية الروعة.

-وأنت كذلك فلسفوفة.

-نعم نحن فلسفوفتان يا مينة.

ولكني لا أتفادى مينة بهذه السهولة في الصباح بعد مغادرتي البيت؛ يحدث أن تسألني عن مسائي وعما إذا اتصل بي أهلي.. كنت أتجنب سماع هذا الحديث.. لا لم يتصلوا يا مينة؛ هم يعرفون وهي تعرف أنهم يعرفون عنوان البيت وعنوان الثانوية التي أشتغل بها؛ ولكنهم وجدوا أخيرا طريقا ليقتطعوا ورقتي من «كناش الحالة المدنية»؛ مر شهر؟ لا أريد أن أتذكر حتى؛ على أي فقد غيرتُ رقم هاتفي؛ من جهتي فإني كذلك زدت في احتمالات القطيعة؛ وإني لم أكن هكذا يوما؛ لم أشأ كون هكذا؛ لم أرد بأي شكل كان؛ في كل يوم بهذه الطريق الطويلة الضيقة ذات الهضبتين؛ مرتفع فمنحدر فالثانوية التي أدرس فيها منذ عشر سنوات؛ كنت أخطو خطواتي بجانب الطلاب فكنت أراقب ضحكاتهم المجنونة وانطلاقهم الحي للحياة؛ في قرارة نفسي كما يقال فإني كنت أغبطهم على هذه الروح الخفيفة التي لم يثقلها عبء مجتمعي بعد؛ أسبقهم بجدية الأساتذة المواظبين؛ محلقة حتى وصولي للربوة في المرتفع، وهناك ألتقي الماعز المتسلق

كمصابيح شجر أعياد الميلاد بشجيرات أركان الخالدة؛ في جمال خلاق متناه في التناغم؛ يأكلن العشيبات الصغيرة ويتركن ثمره حتى نضوجه؛ ألقي على الراعي «ابا امبارك» التحية وعلى معزه وعلى وريقات أركان وشوكاته الرقيقة؛ يجيبني صرير ريح خفيف غربي آت من طريق تزينتاست؛ «الثانوية» ملقاة على هامش هذه القرية؛ منفتحة على الطبيعة.. أرمق حارس المؤسسة ويرمقني بابتسامة خفية؛ فهو مثلي لا يحب أن يتحدث في الصباح كثيرا.. أخترق جمهور التلاميذ وأصعد في السلم نحو الطابق الثاني؛ الفصل الرابع على اليمين؛ أبتسم في وجه الطاولات الفارغة أو المليئة بالمخلوقات الميتافيزيقية؛ وبين الفكرتين أسرح دائما: هل ثمة كائن هلامي يمكنه أن يسبب قسوة عظيمة في وجه ابنه؟ ماذا لو كان لي ابن أو ابنة هل كنت لأسلبها الحق في السؤال والاختلاف؟

أضع هذين التأملين في قلبي؛ وأشرع مباشرة لاستقبال الطلاب.. تكون «وداد» الأولى والمتحمسة دائما في الفصل فتتبعها «حنين» و«منى» و«عبدالله» ثم «المهدي» ف«وصال».. فيتقاطر الآخرون تباعا؛ وكل هذا وأنا بوجه شاحب متحمس! فيحدث معي دائما أن أحمل معي مشاكلي فأصوغها في هيئة سؤال فلسفي؛ تعجبني أفكارهم المندفعة الجريئة.. قوتهم في تخليد المعنى لدي!

قلتُ صباح الخير؛ فحياني الجميع.. كنتُ أحب التحية الجماعية التي تصعد من حناجرهم بخشوع رهيب؛ استجمعت حماسي منهم وقلتُ بصوت مرتفع يميل للحدة:

«يقول AUGUSTE COMTE وهو الفيلسوف المؤسس للفلسفة الوضعية {تكون الحرية الحقيقية ملازمة أينما وجدت وتابعة

للوجـود الإنسـاني والخارجـي عـلى حـد سـواء. تتحقـق الحريـة المثـلى حالمـا يتـمر؛ بقـدر الإمـكان؛ تغليـب النـوازع الخـيرة عـلى النـوازع الشريـرة} مـن هـذا المنطلـق أود أولا معرفـة تمثلاتنـا حـول كلمـة «حريـة» وهـو مصطلـح شـائك وذو إشـكالية، خصوصـا وأنـه مرتبـط بحقـول معرفيـة متعـددة؛ ولكـن كمـا تعودنـا في الـدرس السـابق لا يمكننـا دراسـة وفهـم مصطلـح فلسـفي إلا قبـل اسـتجماع آرائنـا أو بالأحـرى تمثلاتنـا حـول هـذا المصطلـح الزاخـر؛ السـهل الممتنـع كمـا نقـول؛ فـإذًا مـاذا تعـني لكـم كلمـة «حريـة»؟».

قالت «وداد» مستعجلة في الجواب: الحرية هي غياب القيد.

قـال «المهـدي»: الحريـة هـي قدرتنـا عـلى فعـل مـا لا ينبغـي فعلـه!

قالـت «وصـال»: الحريـة هـي حـدود لا تـرى بالعـين المجـردة؛ تنتهـي عنـد بدايـة حريـة الآخريـن!

قـال «عزيـز» وهـو تلميـذ مشـاغب جـدا وكنـت أعـرف أن الموضوع سـيحرك الجميـع: الحريـة أسـتاذة هـي أن نفعـل مـا نريـد بالطريقـة الـتي نريـد ودون أن يتدخـل أحـد.

هنـا بالضبـط تدخـل «المهـدي» مجـددا: لا يمكننـا فعـل مـا نريـد بالطريقـة الـتي نريـد سـنكون بعدهـا مجـرد حيوانـات! عـلى الإنسـان أن يضبـط حريتـه.

فتدخـل سريعـا «يوسـف»: الحريـة هـي أن ندخـن! فانخـرط الجميـع في ضحـك هسـتيري حـتى أوقفنـا تدخل»منى» قائلـة: الحرية أسـتاذة قـد تبـدو فضفاضـة هـي بذاتهـا؛ ولكنهـا حريـة مضبوطـة ولهـا قواعـد معينـة؛ مثـلا هنـاك قانـون وهنـاك واجـب؛ فـلا يمكننـا

مثلا قطع أشجار بحرية وإلا هددنا البيئة والكون بخراب بيئي! ثم يا يوسف التدخين مضر بالصحة!

فقالت «سهام» وهي صاحبة اسم متفرد وحزين: الحرية هي ما يبحث عنه الإنسان ويظل يبحث عنها الإنسان.

ختمت «حنين» وهي غالبا ما تتخذ وقتها الكافي للاستيعاب فتكون دائما آخر من يُدلي بدلوه: الحرية أستاذتي الكريمة وكما جاء على لسانك في المقدمة استنادا على مقولة الفيلسوف «اوغيست كونت» أن الحرية المثلى أو المثالية هي تغليب الجزء الخير فينا على النوازع الشريرة من النفس؛ فلعل الحرية قيد خفي بيد النفس البشرية!

قلت في نفسي مختتمة كل ما قيل: الحرية هي ذلك الهروب المتأخر.. غير المخطط له من بيتنا على سن السابع والثلاثين!

دائما ما أستمتع أي استمتاع بالدروس التي أقدمها؛ بل إني أجدني في كل مرة أخرج بتعريف جديد مختلف وخارق للعادة يأتيني كل سنة من أحد الطلاب الذين يستهويهم مثلي الغوص بعيدا من مناهل السؤال؛ كنت أعرف أن الكلمات تستفزهم فيخرجون الكامن في لاوعيهم؛ هنا أنساني؛ أتحول إلى بحيرة ماء عذبة.. كل الكلمات التي تلقى تحدث انفراجا في النفس وإشعارا عظيما بالحياة والوجود الرحب.. هنا لا أفكر إلا في عمق الكلام؛ في فرحة الكلمات بين سياقات مختلفة؛ هنا تصبح الفكرة بنت الفلاسفة العظام؛ فيحييها كانط ويحسن من سلوكها واطن وتدللها الفسلفة القديمة؛ هنا الكلمة تصبح وجودا طبيعيا وميتافيزيقا وسلوكا تجريبيا علميا؛ الكلمات عند الفلسفة المرتع الخصب لإعادة تدوير الحقيقة والخروج بروح مطاطة شفافة

تقبـل النقـد والاختـلاف لأنهـا روح البحـث عـن الحقيقـة لذاتهـا.. كنـا نسـجل كل التعريفـات عـلى السـبورة؛ نضعهـا في إطـار المعـنى المتـداول ثـم بعدهـا نناقـش الفكـرة؛ تعريفـا بتعريـف؛ نـشرح كلامـه وسـياقه مـن الناحيـة اللغويـة ثـم نعطـي لـه إسـقاطات عـلى الواقـع بأمثلـة قـد تعـزز المصطلـح الفلسـفي في ذهـن الطالـب.. فأخـذت الكلمـة بعدهـا قائلـة:

«يرتبـط مفهـوم الحريـة بالتخلـص مـن مختلـف الإكراهـات، سـواء كانـت مـن طبيعـة بيولوجيـة أو نفسـية أو اجتماعيـة.. ونظـرا لهـذه الجوانـب المتباينـة الـتي يحيـل عليهـا مفهـوم الحريـة، فـإن تحديـده يطـرح الكثـير مـن الصعوبـات، فـإذا كانـت الحريـة خصمـا عنيـدا للحتميـة، فـإن ذلـك سـيلقي بهـا في أحضـان العفويـة والصدفـة. أمـا إذا كانـت خاضعـة لقانـون مـا، فهـذا سـيطرح مسـألة الإرادة موضـع تسـاؤل. فـالإرادة تسـتدعي الحديـث عـن المسـؤولية، إذ بـدون مسـؤولية لا يمكـن التحكـم في حريـة الإرادة.. غـير أننـا سـنحاول فيمـا سـيأتي مـن محـاور تقديـم مواقـف وإجابـات البعـض منهـا عـن الأسـئلة التاليـة والـتي تـم ذكرهـا خـلال أجوبتكـم عـن مصطلـح «الحريـة»:

-أن نكـون أحـرارا هـل معنـاه أن نفعـل مـا يحلـو لنـا؟ أم أن نتحـرر مـن التبعيـة لقوانـين الطبيعـة؟ أم أن نتـصرف وفقـا للعقـل أو ضـده؟ هـل معنـاه التحـرر مـن قوانـين الدولـة أم الخضـوع لهـا؟

- هـل للحريـة علاقـة بالأخـلاق أم أنهـا مسـتقلة عنهـا معارضـة لهـا؟ ثـم كيـف تسـمح القيـم الأخلاقيـة بتحـرر الإنسـان وهـي في ذاتهـا تقنـين لتصرفاتـه؟

- ما علاقة الحرية بالإرادة؟

وهـذا مـا يمكـن أن نعـبر عنـه مـن خـلال الإشـكالات الفلسـفية التالية: الحريـة والحتميـة؛ الحريـة والإرادة.. ثـم الحريـة والقانـون».

وخـلال كل هـذا كان الطـلاب في اندهـاش وتفكـير؛ واسـتطاع الدرس أن يمـس جوانـب تعنيهـم في صميـم انشـغالاتهم اليوميـة؛ تعجبـني هـذه الإشـكاليات الـتي تنكـب عـلى كل مـا هـو إنسـاني محـض؛ هـو إنتـاج لجيـل يؤمـن بالأسـئلة؛ وليـس مـن مهامـه الوصـول إلى إجابـات بقـدر مـا يسـاعد في تحليلهـا وفهمهـا؛ كنـتُ أعـرف أن حصـص الفلسـفة هـي حصـص مقيتـة للأغلبيـة السـاحقة؛ ولكـن لـم أكـن أعـرف سر هـذا التفـوق مـع طـلابي بالتحديـد وعـلى إصرارهـم أخـذ هـذه المـادة مـني؛ فلـم أكـن أكـثر زمـلائي كفـاءة ولـم أقـل عنهـم ولكـن ربمـا لأني أحبهـم فعـلا؛ هـو الحـب يفعـل المعجـزات! حـتى أكـثر الطـلاب فشـلا كانـوا يدركـون مـادتي ويحسـنون صنعـا في الامتحانـات الجهويـة والوطنيـة؛ كان هـذا الـشيء مدعـاة فخـر دائـم لي.

وهكـذا فجـأة وكمـا عـادتي في الـدروس عصفـت بأذهانهـم بسـؤال؛ قلـتُ بعيـدا عـن الحقـول الفلسـفية؛ مـا هـو رأيكـم في مـدى الحريـة الـتي يجـب أن يعطيهـا الآبـاء لأبنائهـم؟

صمـت الجميـع.. يـا إلهـي قلـت في نفـسي لـم أكـن الوحيـدة رغـم فـارق السـنين بـين جيـلي وجيلهـم! فاسـتطردت قائلـة: معقـول؟ لا جـواب؟ أو فلنقـل أن الصمـت جـواب عظيـم مفتـوح عـلى كل التأويـلات؟ ثـم ابتسـمت.. فابتسـموا معـي.

قـال يوسـف المتزعـم الـسري للشـغب: والـديّ مثـلا يـا أسـتاذتي أُميّـان؛ ولكنهمـا يعطيانـني حريـة كبـيرة لدرجـة أني مدلـل العائلـة

وخصوصا لأني رجل البيت وسط ست بنات.

ساءلته حنين: ولكن هل هذه حرية جيدة؟

أجاب: لا طبعا؛ ولكنها جيدة بالنسبة لي!

ضحك الجميع؛ فقلت بصوت متذبذب يميل للاضطراب: ما رأيكم مثلا في والدين يمنعان عن ابنتهما الغناء في فناء الدار؟ أكثر ما كان يقلق في سؤال كهذا هو شعوري بالأسى؛ الاشتياق لجدتي ولابتسامة أمي وللحتمية نقيض هذه الحرية غير الكاملة.

وبالضبط بسبب اعتقادي أنني كنت بحاجة لسماع صوت محايد لا يعرف بالقصة بأكملها؛ سألت ذاك السؤال بخجل غير مبرر.. كان مجرد سؤال وهنا كان يحق لنا جميعا أن نتساءل! حق ملك للجميع أكفله للطلاب دونما استثناء.. ثم سمعنا صوت الحارس العام الذي لا يحب أن يتكلم في الصباحات والذي أنقذنا جميعا من دهشة سؤال عويص؛ دق الباب بدقات بوليسية؛ تسمر الجميع حين مد وجهه الحليق.. قمنا لتحيته ثم عاود الطلاب الجلوس على طاولاتهم؛ بالعادة لا يأتي الحارس العام إلا لشيء مستعجل.. ولأن نوبات الخوف على أهبة استعدادها.. ارتعدت فرائصي مجددا؛ وانهالت علي كل الاحتمالات الواردة والتي يمكنها أن تأتيني على شكل ظرف حتى تصلني للثانوية التي أشتغل بها.. ازرقت يدي.. وقلت بتلعثم شديد: عساه خيرا سيد مراد؟

لم يجبني طبعا؛ قال تفضلي لمكتب السيد المدير هناك رسالة مستعجلة وإخبار في انتظارك.

-٤-

مرت سنتان؛ «مابيلا» تجلس أمامك بكنزة شتوية رمادية تاركة لكتفها العارية مجالا لاستنشاق بعض من الهواء البارد.. يمر العام ويمر عام آخر وتعود اللحظات دائما إلى الجو القارس اللذيذ؛ كأن الأجواء الساخنة والدافئة في فرنسا لا تمكث طويلا عكس مهاجريها السريين؛ تتمنى وهي تأخذ «يانيس» بين ذراعيها أن تفهمها؛ لازالت «مابيلا» تتسول منك مشاعر حقيقية؛ لغة ذكورية متصنعة للأحاسيس التي تعيش من أجلها النساء جميعًا. لكنك لا تفعل؛ تراقبها باختصار ثم تدون جدول أعمالك على دفترك اليومي؛ تحصي ثروتك مثلما تحصي خيباتك بين حين وآخر؛ المنزل لا يزال كما هو.. يعكس رغبتك الدائمة في اللامكان؛ هكذا؛ تخطط من بين تلك المشاريع المنجزة مع «جوريس» في صفقة بيع وشراء مصنعه؛ «جوريس» اختار بيعه والمضي بعيدا نحو الترحال واستكشاف العالم بدراجة هوائية.. بدت لك الفكرة على طبيعتها قاسية وأنانية جدا؛ نعم؛ سيبيع كل شيء من أجل أن يتعرف على العالم من حوله؛ وأنت لا تستطيع بعد أن تزور مع زوجتك إسبانيا أو على أقل تقدير بيت أجدادك بالسكيكدة.

لا يهمك السفر وترتعد من فرائصك رغم عشقك الشديد للظفر بنفسك مع الخلوة؛ وأما السفر نحو الذات فأنت تعبر ذلك الجسر يوميا بلا ملل منك إليك مخلفا لهاثا حول

الحقائـق الخفيـة؛ وتجـد مـا يفعلـه جوريـس انتحـارا لا مدروسـا نحـو عوالـم مجهولـة؛ قـد يحالفـه حـظ وقـد يباغتـه شر قـادم وقـد يمـوت عطشـا تحـت رحمـة قطـاع الطـرق العـرب.. كنـت عنصريـا جـدا؛ فرحـا بهـذه العنصريـة الـتي تـرضي موروثـك القديـم في ملـف العائلـة وتاريـخ أبيـك الجزائـري المتناقـض؛ أنـت لا تعـترف بهويتـك العربيـة؛ ولا تنشـغل بذلـك منـذ زمـن طويـل؛ غـير أن لـك حساسـية لا مـبررة تجـاه العـرب وصداقتـك معهـم تتسـم بالهـدوء؛ تشـفق عليهـم بهـذه العبـارة الجارحـة: سـتيفان يشـفق عـلى المهاجريـن النائمـين في شـوارع باريـس؛ وربمـا أنـت لا تعـرف معـنى الشـفقة كمـا نفهمهـا نحـن؛ ولا تولـد لديـك الا إحساسـا بـضرورة مسـاعدتهم؛ وقـد قدمـت لهـم جمعيتـك الطعـام والملابـس ولكنهـا لـم تفكـر في يـوم أن تصنـع منهـم قضيـة كالـتي صنعتهـا مـن التوحـد.. لا لـم تفعـل ذلـك؛ كنـت تعـترف بغبائهـم نحـو تـرك بلدانهـم والمجـيء عنـوة إلى فرنسـا مـن أجـل الأحـلام.. الأحـلام ذاتهـا الـتي لـم يحققهـا الفرنـسي؛ أنـت الجزائـري الـذي طمـس هويتـه ونسـج لـه اسـما هجينـا ولغـة متوحـدة عبثيـة لتحـكي عنـه بالطريقـة الـتي يريدهـا؛ أنـت الجزائـري الـذي اسـتهوته حكايـة الأصـل وفضـل الانغمـاس حـد الانمسـاخ. انتحلـت قبعـة أنـك قـد شـفيت مـن جـذورك وتوحـدك وقطعـا لـم تخـف هـذا الشـتات بـين تاريخـك وبـين حـاضرك؛ ولكنك مؤمـن أيضـا بـألا يـد لـك في كل مـا حصـل لـك؛ هـل أنـت مـن طالبت والـدك بتغيـير ديانتـه مثـلا؟ ولكنـك صدقـت مـا جـاء بـه والـدك مثـل إخوتـك؛ لـم تبذلـوا مجهـودا في البحـث؛ قـال أن جـل عائلتـه توفـوا.. عماتـك جداتـك أبنـاء الأعمـام.. صغـارا ورجـالا؛ والـدك آخـر العنقـود وتنتهـي الحكايـة عـلى هـذا الأمـر.

ولعلك تشاهد مابيلا أيضا متنكرة لاسبانيتها؛ تأكل «الباسطا» ولا تُقحم «يانيس» لهوية أخرى غير تلك الفرنسية المتبلة بنكهة الشونزاليزي.. الأمر بسيط جدا؛ تنظر إلى «يانيس» طفلا عاندتَ من أجل ألا يأتي لهذه الحياة البائسة؛ أملت طول حياتك ألا تنجب وألا تتكاثر بهذا الشكل؛ تعتقد أن الطفولة هي أمر لا يحتمل الهزل؛ العالم ليس بخير؛ وأنت تسعى لأن يكون بخير قليلا على الأقل بالنسبة للمصابين بالتوحد؛ العلاجات باهظة الثمن ومكلفة؛ والجمعيات من هذا النوع قليلة؛ وكنت تخاف كثيرًا أن يأتي طفل آخر متكرر منك يحمل ذات التشوه الصبغي في جيناتك؛ وشعور الأبوة غريزي إلا أنك تتأقلم معه وتسائله وتحاوره لتتمكن من المضي في هذه الحياة بخسائر حسية.. أقل. لم تستطع إيقاف مابيلا عن الإنجاب قطعًا لم تتمكن؛ وباستطاعتك الآن -وأنت تنظر إليه- أن توقف كونا بأكمله.. من أجله هو.

الأوروبيون أمثال جوريس يصلون إلى قناعة معينة في الحياة يتوقفون عندها؛ قد يرون في أنفسهم تكرارا عقيما لا يقدم لهم بدائل حقيقية لمعرفة الله والحب؛ هذه القيم العميقة التي تنصهر بحكم الماديات لا تبدو واضحة تجعل من العيش ضيقا على الرغم من رحابة الأفق. «جوريس» تعب من اللهاث خلف الثراء؛ وأنت لم تتعب؛ لذلك قرر في هذا العمر الفتي أن يظفر بعقله وأن يفر حيث اللابرمجة واللاتخطيط؛ لقد أخبرك أن الدراجة الهوائية قد تكون قضية

يستشعر بها الإنسان حواسه وإنسانيته؛ وقد يظهر جليا أن التناقض هنا بالضبط تناقض في محله؛ لأن الأوروبي يعرف

الأخلاقيات ويعيش فيها بل ويعتبر نفسه صانعها الأول ولكنه يُقزّم الإنسان مقابل الرأسمالية المتوحشة؛ كم من موظف عربي أهانه جوريس لأجل الإهانة فقط؟ وهل كانت مقابلات العمل تعتمد طرقا منصفة؟ كيف كانت معاملته مع العمال الذين يقفون بالساعات لغسل وتصفيف الفطر الأسود؟ «جوريس» يعرف الجواب كما يعرفه الفرنسيون تحديدا، ومع ذلك استيقظ من سبات الغفلة متعمدا؛ يعرف الإنسانية ولكنه يكبح هذا الأمر بداخله فيصل لسن معينة يوقظها خلسة لأجل مآرب أخرى!

سيحمل معه «جوريس» دراجة هوائية بينما سترافقه صديقته اليابانية «آكيمي» هذه الجولة على الكرة الأرضية؛ ولا يعرفان من أين يبتدئان لذلك اقتنيا حقيبتين لوضعهما على الظهر بها القليل من الملابس؛ قوت يوم أو يومين من الفواكه الجافة والشكولا وأقنان الماء؛ ولحاف يوجد بأحد جيوب الحقيبة وآخر يستخرج من الأسفل ليصنع خيمة صغيرة تفي لغرض النوم... هذا كل ما في الأمر. وآكيمي تعودت بفضل الأجواء اليابانية من معرفة الطبيعة وهي من حفزت جوريس على اتخاذ مثل هذه الخطوة الشجاعة.. سيعرفان أهل البدو والغجر؛ سيصقلان مهارتهما في تذوق كل ما هو جديد.. عكسك تماما؛ سيتعبان؟ تقول في رأسك أنهما سيملان وسيمرضان؛ الروتين يجلب الأمان والثقة ويطعم الداخل بالاستقرار ولكن التغيير الجذري مثير يجلب التوتر والانتظار فتكثر معه الاحتمالات من موت وشيك: المغامرة حياة.. والحياة مغامرة؛ لكنك لا تعترف بمثل هذه الأشياء إطلاقًا؛ قد همك من الأمر كله مصنعه المغري وثمنه

الرخيـص؛ فرصـة أعطـاك إياهـا صديقـك عـلى طبـق مـن ذهـب.. أمـا «آكيمـي» فترفـض مثلـك الانضمـام لصفـوف الخانعـات باسـم الأمومـة والرضاعـة؛ تتذكـر حديثهـا ذات مسـاء في عشـاء معـك:

– آكيمـي تعـني باليابانيـة شروق الشـمس وغروبهـا؛ الشـمس يـا سـتيفان تلـد النـور ولكـن لا أحـد ينتبـه لذلـك.. حـين يحـل المسـاء كل النـاس تقـول شـعرًا في هـذا القمـر البـارد!

إنهـا جملـة بحـد ذاتهـا ذات دلالات موغلـة في العمـق؛ الشـمس تلد ولكـن لا أحـد ينتبـه لذلـك.. إنهـا لا تريـد أطفالا نسـخا منهـا من أجل البشريـة؛ البشريـة ذاتهـا الـتي نُفـني أنفسـنا مـن أجـل بقائهـا بالعمـل والكـد وإضفـاء خصوصيـة وبصمـة لهـا؛ لا أحـد ينتبـه لعطاءاتنـا.. هـذا المجـيء والإيـاب.. وهـذه الحدائـق الـتي نحافـظ عليهـا.. وهذه الأضـواء الشـفافة الـتي تـبرق في الشـوارع.. حـتى الأزقـة النقيـة هـي اجتهـاد منـا عـلى الحضـارة.. جـزء بربـري فينـا نكبحـه ولكـن لا ننتبـه لمثـل هـذه الأشـياء إنهـا أمـور غـير لافتـة للنظـر.. اللافـت حقـا هـم أطفالنـا؛ أطفـال نلدهـم في عالـم حقـير متطاحـن بالحـروب:

- لسـوف نجـوب هـذا العالـم بدراجـة هوائيـة؛ ولسـوف نجـازف لأن الحيـاة الـتي لا تملأهـا العبثيـة هـي مـوت.. وأنـا وجوريـس لا نريـد أن نمـوت.

عـلى كل حـال لـن تموتـا -قلـتَ ذلـك في رأسـك- وأنـت تراقـب مابيلا مداعبـة طفلكمـا الـذي يشـبهك؛ تبادلتمـا ابتسـامة ثـم قالت:

- مـبروك صفقـة المصنـع للفطـر الأسـود؛ الآن أصبحـت رجـلا للأعمـال. نهضـت مـن مكانهـا وقفـزت نحـوك وأخـذت ترسـم عـلى الهـواء كأنهـا تكتـب لافتـة: «مصنـع «سـتيفان لايـكي» للفطـر الأسـود!».

- ستيفان لا يحب هذا؛ ولكن الاسم جميل.. بدل «Legulice».. ربما أسميه

«Entreprise LAIKI du shompignos noir».. مقاولة بدل مصنع.

- حسنا يجب أن تأخذ علبة دوائك ثم عليك أن تنام ستيفان. ثم تنهض لتنفذ العمليات المطلوبة منك بتهذيب شديد.. التفكير الطويل يُحدث لديك تشنجات في عضلاتك ليست بالمؤلمة أنت لا تعرف ماهية الألم مثلنا أو ماهية المغص هذه أشياء تكتسبها ثم لا تلبث تنساها؛ أنت تحس بشيء ما ليس على ما يرام ثم أحيانا تصرخ أو تتحدث بصوت عالٍ:

- لا يمكن هذه أشياء غير ممكنة.

التوحد هو طريقة مختلفة للوجود؛ كيان متفرد وقائم بذاته في ما يخص الشعور والمشاعر.. الحركات وآليات التفكير.. في الفعل وردات الفعل.. في الأنا والآخر. هو ازدحام مليء بالوحدة وهي وحدة منساقة بالضجيج.. أما نحن أو «مابيلا» فلسنا سوى آدميين نتطابق في أشياء عديدة.. نبكي بالدمع وحين نود التعبير عن الفرح نبتسم ولنا تقنية للتظاهر بعكس الحزن وعكس الفرح! لكنك على الأقل لا تبالي؛ تفكر بصوتك العالي الشفاف للدرجة التي يختلط عليك فيها الحب والقرار والحزن! لكنك على استعداد دائم لتكون أنت.. مرآة نقية تعكس الخبث فينا.

***

كيف أحببت «مابيل» يا ستيفان؟ كيف اكتشفت لغة «الحب»؟ كيف جئت بـ«يانيس» لهذه الحياة؟

مررت بمرحلة عجيبة؛ لم تدرك فيها شيئا بفعل صعوبة علاقتك بوالدتك؛ بالعادة الأمهات يلعبن دورا جبارا في تكوين أولادهم وبناتهم وحين يكون الابن مصابا بمتلازمة الأيسبرجر فالمهمة تزداد صعوبة؛ لكن والدتك قاسية وظلت قاسية؛ وتجاهلتك كثيرا؛ لم تعلمك تغيرات الجسم حين البلوغ؛ وعند سن الرابعة عشر أحسست بأحاسيس جديدة كليا؛ رغبات تدعو لاكتشاف الجسد من جديد؛ كنت لا تفهم قواعد الحياء التي تصاحب مثل هذه التعابير ولم تكن تتحكم حتى في العواطف التي يمكن أن تحس بها.. كان يجب أن تفهم والدتك أن الطفل التوحدي يرى جسده كسجنه، والكثير من ردات فعل هذا الجسد تتم بطريقة عشوائية وغير مفهومة؛ والغريزة تبقى مسألة التعبير عنها من قبيل الممنوع من هؤلاء المراهقين فيما كان ينبغي أن تعتبر من قبيل علامات الشفاء!

وهكذا.. تتذكر جيدا أحاسيس الرغبة القادمة من أسفل بطنك؛ رغبة الجسد الطبيعية في اللقاء والالتقاء والتواصل؛ كنت تقضي ساعات بحمام البيت متفقدا أجزاءه الشرهة للحميمية؛ تمرر يدك على كل شبر فيه؛ تتطلع إليه في المرآة فيبدو لك مليا أنك قد تغيرت؛ لم تعد صغيرا.. لم تعد أطرافك كما هي؛ زادت حجما وغرابة؛ فلم يكن ينتبه لهذه المتغيرات أحد سواه الطبيب المعالج والذي قال لك ذات زيارة:

- ستيفان أعرف أن ببالك أسئلة عديدة؛ جسدك يتغير أليس كذلك؟ (جاوبت بإيماءة بسيطة برأسك) ثم استرسل: ما يحدث

لـك شيء عـادي وطبيعـي؛ لقـد انتقـل سـتيفان الآن مـن طفـل صغـير (واضعـا يديـه اليمـنى فـوق اليـسرى موضحـا الفـرق الصغـير) إلى طفـل بالـغ (محدثـا فـرق طـول كبـير بـين يديـه لـكي تتمكـن مـن اسـتخلاص الفكـرة)؛ كل النـاس؛ أعـني أنـا وأنـت والآخريـن نكـبر بفعـل السـنوات وبداخـل كل منـا هرمونـات وتفاعـلات تجعـل أعضاءنـا تكـبر.. مـا الـذي تغـير في جسـد «سـتيفان»؟

- أعتقد الكثير من الشعر هنا وهنا.

- نعـم يـا سـتيفان جيـد؛ ولكـن لا يجـب علينـا أن نقـوم بهـذه الحـركات إلا مـع الطبيـب أو مـع والدتـك فقـط؛ عندمـا نكـبر نغـير طريقـة تعاملنـا مـع الجسـد.. فهمـت سـتيفان؟

أومأت برأسك.

- الآن صـار واجبـا عـلى سـتيفان أن ينظـف جسـده ويعتـني بالمناطـق الحساسـة؛ ويغسـل وجهـه بالمـاء والصابـون كي لا تتراكـم الدهـون عـلى الجبهـة.

أومأت برأسك ثم ابتسمت

- هل علينا أن نتعرى في الشارع متى أحسسنا برغبة ما؟

- ستيفان لا يعرف.

- عـلى سـتيفان أن يعـرف أنـه لا يجـب أن يقـوم بمثـل هـذا السـلوك؛ وعليـك ألا تـترك شـخصا آخـر يلمـس أعضـاءك التناسـلية لأنـه سـلوك غـير مقبـول.. متفـق معـي؟

- نعم؛ ستيفان لن يفعل مثل ذلك السلوك.

- جيـد جـدا؛ حسـنا الآن سـأعطيك علبـة شـكولاطة لأنك اسـتوعبت الـدرس جيـدا وكنـت متجاوبـا ومتعاونـا معـي.. شـكرا لك سـتيفان.

- ستيفان يشكرك أيضا.

كان صعبا أن تحس ولا تدرك ماهية المشاعر؛ صعبا ألا تدرك؛ ألا تستوعب؛ فالمراهقة مرحلة قاسية علينا نحن «الطبيعيين» فكيف زادتك غربة على غربة؟ وكيف طوعت نفسك المغتربة في الاغتراب أكثر؟ وكيف تستوعب أنك بشري خرج من جلدة الطفولة ليدخل في شرنقة الكبر؛ والبين بين هو هذه المراهقة العصيبة؛ هو أنك بشري صغير عار؛ تبحث لك بين شرانق الشخصيات ما يليق وما لا يليق؛ سريع التأثر.. سريع الانفعال.. سريع التحسس.. وكثير الانعزال! فكيف كنت تدير كل هذه التقلبات الجبارة يا ستيفان؟ كيف؟ كيف عشت هذا الألم الوحيد؟

كنتَ لا تجد إلا المرافقة التي عينتها لك وزارة التربية بدعم مادي من أهلك؛ لوسيندا ذات الشعر الذهبي والسحنة البيضاء والنمش الكثير أسفل العينين حتى الأنف؛ تجلس بجوارك في الفصل وفي الساحة تراقبك وتساعدك؛ كنت تحس برغبة دائما في احتضانها ولا تعرف لم؛ وكنت تحتضنها ولربما كانت طريقة لتقول بها أشياء أنت تجهلها؛ حتى مرافقتك «لوسيندا» تفاجأت من طريقتك للتعبير ومن تطورها؛ قلت لها:

- لوسيندا أريد أن يكون لستيفان أصدقاء؛ يلعبون معي ويذهبون معي إلى الحديقة وينظرون معي إلى السماء الصافية.

- لديك «جوريس» و«شارل» ولديك «جان كلود»؛ هم أصدقاء يحبونك.

- نعم؛ ولكن ستيفان يريد صديقة مثلك «لوسيندا».

- لماذا؟ قالت لوسيندا بذهول.

- لأن ستيفان يريد صديقة يحكي لها أسراره؛ إنه شيء جيد أن تسمع لك «بنت»؛ أعتقد سيكون ستيفان سعيدا!

- صحيح ستيفان؛ شيء جميل أن نتواصل مع الآخرين ونلعب معهم ونكون معهم صداقات.

- لوسيندا؛ ما هو الحب؟

بذهول أكبر هذه المرة: هممممم، الحب هو إحساس جميل نحس به في القلب؛ نشعر معه بالسعادة؛ فأيما شخص يحسسنا بالسعادة بتواجده فنحن نحبه حبا صافيا وجميلا.

- مفهوم؛ ستيفان يشكرك لوسيندا.

ظلت فكرة الحب مرتبطة بالسعادة؛ وظل مخيالك ينسج الحكايات؛ ورغم أنهم لم يتمكنوا من تصديق إلى أي حد في تلك المرحلة ازدادت لديك الرغبة في تواصل حقيقي وصادق مع «الآخرين»؛ أردت استكشاف العالم الآخر؛ الجنس الآخر؛ ولكن بحذر شديد؛ غير أن لوسيندا قد مهدت لك طريقا أقل درامية وأكثر تهذيبا؛ وزرعت بطريقك ورودا جميلة أكثر من التي بمخيالك؛ لأنك لا تستوعب الأسوأ ولا تترقبه؛ وتذهب كالقطار في سكة لا تزاح.. على غير ما نتوقع؛ كنت تنتظر هذا الحب الذي حدثتك عنه لوسيندا؛ وكنت لا تشعر بالسعادة مع إخوتك؛ ولا تستلطف أباك ذا القهقهة المزعجة ولا والدتك صاحبة النظرة العنيفة والقبلة الباردة؛ «لوسيندا» الأقرب؛ قلت لم لا تكون لوسيندا صديقتي؟ لوسيندا جميلة؛ شعرها يعجبك وكثيرا من الأحايين وضعت يديك تتلمسه؛ وتجد بحضنها عالما مطمئنا وهادئا؛ تساعدك وتفهمك وتضع مشاعرك دائما في حالة فهم مع جوريس الشقي وجون كلود الحساس؛ لم لا تكون لوسيندا

صديقـتي؟

- لوسيندا؛ ستيفان يحبك ويريدك أن تكوني صديقته!

- أووه، أنا صديقتك ومرافقتك ستيفان؛ وأنا كذلك أحبك.

هـل كنـت تقصـد الحـب الـذي نحبـه نحـن؟ أم أن حبـك كان بريئـا وناعمـا؟ أرجـح أنـك أحببتهـا حبـا ناعمـا وبريئـا كحـب حقيقـي.. كأول حب .

أمـا مابيـل فامـرأة جيـدة لتلـك المرحلـة أيضـا؛ هـل كان حبـا؟ أم أن قبلتهـا تعيـد إليـك الحنـين إلى مشـاعر لـم تعـاش؟ كيـف تنـام بجوارهـا؟ كيـف تنظـر إليهـا؟ هـل تحتضنهـا كمـا يفعـل الأزواج؟ هـل تهمـس في أذنيهـا كلام الحـب والغـزل؟

كنـت تمـارس حياتـك الطبيعيـة؛ بـلا أدنى شـك؛ بطريقـة طبيعيـة فطريـة عاديـة؛ ولكـن بتوابـل أخـرى.. مـذاق آخـر أن تشـعر ولا تتمكـن مـن تبليـغ ذلـك؛ فنحـن النسـاء ننبهـر بسـحر «الكلمـات» وبالكلمـات نتنفـس ونعيـش؛ وللكلمـات قـدرة عـلى تغيـير الأمكنـة وتلطيـف الأجـواء.. وللكلمـات قـدرة أعظـم مـن أن تُصـدّق.. لأننـا نُصـدِّق!

لا تطـرح أنـت هـذه الأسـئلة بهـذا العمـر بالتحديـد؛ لقـد تزوجـت وكان قـرارا ونفذتـه وانتهـى الأمـر؛ والحيـاة لـن تقـف في كل مـرة عـلى أسـئلة «دونمـا معـنى» لأنـك منشـغل بأشـياء أهـم؛ وعـلى أي؛ ومهمـا كنـت محاطـا بزوجتـك وابنـك وأصدقائـك فأنـت لا تسـتغني عـن فقاعتـك وعالمـك.. يومـان هنـا.. وأيـام هنـاك.

عليـك أن تلعـب الرياضـة! تقـول «مابيـلا» في ذلـك الصبـاح بصيغتهـا الآمـرة الناهيـة؛ هـي الـتي تكمـل معـك مسـيرة العلاجـات

الخاصة وتضع لك قرصي النوبات قبل النوم وهي التي تدلك.. عصاك وأنت المبصر؛ ذاكرتك وأنت الحاذق.. تنزل صباحا لتركض وأحيانا أخرى لتمشي.. الرياضة في قاموسك أجندة يومية للهروب؛ لأجل ذلك لا توافق رأي جوريس في تسمية «القنص» و«الصيد» بالرياضة! فأنت تعتبر الرياضة فنا من فنون الحياة وأما القتل فقتل.. ولا سبيل لنفي ذلك.

وها أنت تركض؛ كل قفزة على طول الشارع الخلفي لشقتك بمثابة سنة مرت؛ تنفث من رئتيك سموم باريس وهواءها المحموم باللهجات والجنسيات؛ تركت «يانيس» طفلك الآن وقد أكمل سنواته الأربع؛ يحاول أن يفهمك وتفهمه؛ وأنك الآن تعدو عدوا لا يختلف عن سابقه إلا بالقليل من التعب.. لقد كبرت؛ ثلاث سنوات إضافية تفعل فيها نفس الأشياء تقريبًا؛ تدخل شرنقة عالمك الداخلي المجهز بتأملاتك حول السماء والعالم ثم لا تلبث أن تستفيق من سباتك؛ ها أنت تعدو الآن بنفس الوتيرة المتأنية الحذرة؛ مشيحا بالنظر عن الأشياء من حولك وداخل تفكيرك حيز معقول من الأحلام والأمنيات؛ تعدو وتحس بوخز عميق جهة الصدر؛ لم يكن ذلك ناقوسًا لتتوقف؛ لم يكن يعنيك ذلك البتة؛ أكملت العدو بإرهاق مضطرب؛ وواصلت الجري بعينين حمراوين؛ تدفق دمع غزير دافئ حتى كاد أن يوقظك لكنك لم تستسلم؛ شعرت بكل هذا الحس البشري: الألم؛ الدهشة؛ خدر يسري بشق رأسك اليسار.. ولم تتوقف؛ أكملت العدو فتقلصت شفتاك وزرقتا؛ عاودت التنفس بشكل لائق؛ لم تستطع؛ قلت لنفسك أن الشجرة التي لطالما توقفت بجانبها هي أمامك ببضع مترات؛ جاهدت في الإقناع والاقتناع..

هـل حانـت نوبـة صرع؟ لا لـم يحـدث لـك مثـل ذلـك قبـل؛ تشـوش منطقـك وبـدا الارتبـاك مسـيطرا؛ ضاعـت يـدك اليمـنى في البحـث عـن إمسـاك خـصرك؛ بـدت خطواتـك بـلا ظـل شـاحبة؛ هـل هـذا الصخـب قـادم مـن قلبـك؟ أنـت لا تـدري الآن شـيئا؛ تبحـث عـن موضـع الألـم مواصـلا الجـري؛ والشـجرة عـلى بعـد المترين الـتي منيّـت بهـا نفسـك لدقيقـة لـم تصلهـا بعـد وعـلى الأرجـح أنـك تخليـت عـن الزمـن منـذ أن توليـت قيـادة الشركـة؛ لسـت تعـرف لـم فكـرت في الأمـر هـل لأن لحظـة الألـم القـارس توقـظ حـواس التيـه؟ هـل ذكاؤك الخـارق في تحمـل مسـؤولية مصنـع كبـير رغـم «توحـدك» يتهـرب منـك الآن؟ تضاءلـت قدرتـك عـلى الخـروج والدخـول مـن عالمـك؛ تلاشـت الصـور أمامـك كأن طفـلا غبيـا كسرها بحجـر طائـش؛ تشـنجت عضـلات وجهـك وأعطتنـا انطباعـا بالفـزع؛ بـدا جسـمك متعرقـا أكـثر مـن الـلازم؛ وتدفقـت حـرارة سرت عـلى مفاصلـك؛ اسـتدرت مطيعـا لجسـد منهـك؛ حركـة القلـب اسـترخت قليـلا قبـل أن تعـاود القفـز؛ بـدت هـذه اللحظـة مفارقـة اسـتثنائية لـك سـتيفان؛ ولأجلـك انتحبـت السـماء فجـأة وأطلقـت رعـدا عميقـا كأنهـا تولـت عنـك عنـاء الـصراخ وتكبـدت مكانـك إعـلان بدايـة شيء مـا؛ أمطـرت السـماء وانسـكبت فوقـك تعانـق كل شـبر فيـك؛ تخالطـت حبـات دمعـك الصامـت وامـتزج العـرق والمـاء؛ وتبللـت غـير أنـك في تلـك اللحظـة سـقطت كمـا تسـقط أوراق التـين الصلبـة في منعرجـات «السـكيكدة» بالجزائـر؛ وانسـكبت انسـكابا خاضعـا لنـداء السـماء؛ لـم تحـرك سـاكنا؛ لـم تنتحـب؛ لـم يصـدر منـك صـوت المـوت؛ اعتـبرت الأمـر انقضـاء حـال لحـال.. أو عبـورا سلسـا حيـث تلـك العوالـم الجميلـة بداخلـك؛ هـا جسـدك الطافـح عـلى

الإسفلت الغارق في مياه شهر فبراير؛ مستكين لقلب مهزوم؛ جسدك الذي لطالما دب بالحركة.. لسبب ما؛ توقف.

***

في مستشفى «سانت لويس» بباريس؛ أشجار الكستناء والزيزفون تغطي شارع «كلود_فيليفوكس»؛ شجرتان معمرتان لا تعرفان الاستسلام؛ الساق الكبيرة والجذور الراكزة فالأوراق الكثيفة المنتظمة على طول الأغصان؛ لا يمكنك أن ترى أوراق الزيزفون إلا واتخذت شكل قلوب خضراء حوافها مسننة بنهاية حادة كالرمح؛ تتدلى من وسطها عناقيد نورية ذات رائحة طيبة؛ أما الكستناء فهي بيت السناجب والبندق اللذيذ؛ شجرتان عظيمتان تحرسان المارة؛ فتظللهما وتمنحهما ارتباطا وطيدا من وإلى الحياة.

أرق مستشفيات باريس وأقدمها عراقة؛ أسسه الملك هنري الرابع في السابع عشر من مايو ١٦٠٧ لتخفيف الضغط عن مستشفى «فندق ديو اوف باريس» عندما انتشر وباء الطاعون وضرب أرجاء فرنسا سنتي ١٦٠٥/١٦٠٦؛ وسمي بمستشفى «سانت_لويس» ذكرى لوفاة أكثر الملوك شعبية في فرنسا: الملك «لويس التاسع» الذي توفي بالطاعون كذلك بتونس عام ١٢٧٠؛ ولكن ما الذي قادك إلى هنا؟ أنت لا تعرف أنك بداخل متحف كبير للجماجم المقولبة؛ من باب أرستقراطي كبير المدخل؛ مثل قصر شُيّدت جنباته بقرميد آجوري اللون؛ نافذتان على اليمين ونافذتان على اليسار بستائر بيضاء وشبابيك؛ وعلى جنباته أيضا بابان متوسطا الحجم باللون الأخضر القاتم؛ البناية/القصر بسقف يحمها من تكدس الثلوج؛ وبلونها الرمادي الأصيل تقف

رصينة متحدية الزمان والتاريخ؛ ولهذا القصر سور كبير يحيط ببنايات مجاورة لتخصصي مرضى الجلد والسرطان والحالات المستعصية.. ولم تكن تعرف عنه شيئا؛ وهذا شيء بديهي بالنسبة لك؛ فأنت تعرف المستشفيات بألوان العذاب ولطالما ارتبط ذهنك فيه بالتخلي؛ كانت تتركك العائلة بالساعات هنا؟ لتتعلم قواعد السلوك الصحيح؟ كانت المستشفيات طريقا آخر ليسموك معتوها ومجنونا نفسيا؟ هذه هي المستشفيات في حياتك.. لم تكن سوى بنايات لتقويم سلوكك «المختلف»؛ ولأننا نرفض كل شاذ فنحن نعتقد أن ما ابتكرناه كسلوك لهو عين الحضارة! لهو النموذج وعلى غيرنا أن يتبعوا نفس طرق التعبير ليتمكنوا فقط من العيش بيننا؛ أننا الأغلبية التي تمتلك الحقيقة وأنت وغيرك من القلة مجرد نشاز بيولوجي جاء بفعل الخطأ الجيني وعليك وعلى غيرك أن تشبهوننا؛ بطريقة ما؛ بجميع الوسائل وشتى الطرق المعرفية والنفسية ومدارس وبيداغوجيات ومناهج؛ عليكم أن تتبعوا قوة الخضوع إلى أنظمتنا؛ كيف تأكلون وتشربون وكيف ترتقون إلى اتيكيت المعاملة وعليك أن تعرف إن كنا حزانى أو فرحين وحتى وإن تملقنا عليك أن تكون حذرا وساحرا مثلنا لتكتشف خبث ما وراء الضحكة البسيطة؛ عليك أن تلتزم بما تتمرد أنت عليه؛ ولأجل ذلك أنت هنا.. بالضبط.. يا لسذاجتك!

ولكن هنا بسان لويس لا تعديل سلوك مجددا! أنت هنا لا تعرف علام أتيت ولا كيف أتيت ولا كم من المدة التي قضيت وقد مضى أربعة أيام حتى سمعت رجلين؛ لا بل كانا صوت رجلين وصوت امرأة:

- كنا نسمع دقات القلب؛ تنفسه كان عند ٤٨؛ جرح غائر على مستوى الرأس؛ كسر مغلق؛ نزيف داخلي حاد بعدها حقناه بجرعات من الأدرنالين.

- هذا ما أقرؤه الآن بملفه الطبي؛ الضربة كانت قوية على رأسه والآلة حادة!

- على العموم العملية مرت بسلام؛ على الأقل لم نفقده.

- حتى وإن لم يستفق بعد؟

- حتى وإن لم يستفق دك. «فارس»؛ النزيف الداخلي للمصاب بقي مدة أطول ولم ينتبه المارة له إلا بعد خمسة وأربعين دقيقة تقريبا؛ بعدها انتظروا سيارة الإسعاف وما إلى ذلك.. ذلك الوقت كله سيضعنا تحت الضغط.

- لقد وجدنا دكتور أيضا آثارا للصدأ على عظمة الرأس؛ العصا الحديدية لم تكن سليمة ولقد حقناه بحقنة ضد الكزاز تحسبا لأي تسمم عصبي.

- حسنا؛ حالته مستقرة قليلا بعد العملية؛ ودقات قلبه ضعيفة لكنها غير مطمئنة البتة.

- يعاني أيضا من التوحد -قالت المرأة- وجسده لم يستجب للصفعات الكهربائية ولا يستجيب لأي ردة فعل؛ حتى عيناه لم ترمشا بعد العملية إطلاقا ولكنه يتنفس! هذا الأمر محير.. نحن لسنا أمام حالة «الغيبوبة الخضرية الدائمة».

- لا قطعا؛ قال صوتهم الأكبر سنا: أنا أعتقد أنه علينا التريث ومراقبة المسح الدماغي لمدى استجابة المريض للمؤثرات بجانبه.. ولا ننسى بأنه متوحد وبأن المركز العاطفي لديه

معطـل؛ اسـتجاباته لـردات الفعـل مختلفـة.

- يعـني أننـا أمـام الحـالات المسـتعصية؛ عقـل واع داخـل جسـد ميـت إكلينيكيـا؛ ليـس هنـاك مـن حـل إلا الانتظـار في أن يعـود؛ مـر بهـذا المستشـفى حـالات لـم تتمكـن مـن الخـروج مـن الغيبوبـة بسـلام.

عاد صوت المرأة مجددا: نحن بانتظار المعجزة إذا.

كيـف كان وقـع الصدمـة عليـك حينهـا؟ أنـت الآن محـاصر مـن جميـع الجهـات؛ تقوقعـت أكـثر ممـا كنـت تحـب وأكـثر ممـا كنـت عليـه؛ لا غـير سـواك؛ أنـت الآن غـير قـادر عـلى أن تعـرف لـم ليـس باسـتطاعتك أن تـصرخ؛ ليـس باسـتطاعتك أن تفتـح عينيـك؛ ليـس باسـتطاعتك أن تنظـر للسـماء الصافيـة؛ أن تسـمع أصواتـا تقـول كلامـا؛ وللتـو سـمعت؛ مـن كانـوا؟ لسـت تـدري.. عـلام تحدثـوا؟ بالتأكيـد كانـت الكلمـات مشوشـة بالنسـبة إليـك لكنـك سـمعت وأدركـت أنـك تسـتوعب قليـلا: أنـت مقيـد؛ لا تسـتطيع الحـراك؛ يـداك ميتتـان.. لا تحـس برجليـك.. ولا بقدميـك.. ولا تـرى شـيئا لكـن يبـدو نـور مـا هنـا؛ بلـون أقـرب للأحمـر؛ أحمـر قريـب للبرتقـالي ويتـدرج قليـلا إلى السـواد؛ ثمـة أنابيـب صغـيرة بأنفـك؛ هـواء بـارد يزعجـك؛ ثمـة أصـوات لآلات؛ لهـا وتـيرة متتاليـة؛ متواصلـة؛ وتـأتي عـلى نحـو معـين؛ شيء مـا يشـبه النبضـات؛ مثلمـا كانـت تعجبـك هوايـة النظـر إلى السـاعات بالمـنزل؛ وحسـاب الدقـات المتكـررة؛ وبشـكل قهـري؛ قلـت لنفسـك: أريـد أن أصرخ.. أريـد أن أصرخ..

لاا

هـل صرخـت؟ هـل كان صراخـا؟ لا لـم يسـمعك أحـد يـا سـتيفان؛ لا أحـد سـيتمكن مـن سـماع صوتـك المعـذب؛ لا أحـد هنـا.. حـين

يئسـت؛ نزلـت دمعـة صغـيرة عـلى خـدك الأيمـن؛ دمعـة كنـدى الـورود الذابلـة؛ ويـا للأسـف أن أحـدا لـم يتمكـن مـن رؤيتـك تحـاول تبريـر أنـك هنـا كمـا لـم تفعـل يومـا.. في حياتـك.

-٥-

هـذا الخـوف قديـم وأزلي فيّ؛ صعـب ونرجـسي؛ يتألـق بـكل أسـف في الأوقـات الأكـثر رغبـة في الظهـور قويـة للآخريـن؛ وإني لأبـدو للجميـع قويـة إلا لنفـسي؛ أعرفـني جيـدا وأعـرف الميكانيزمـات الـتي يشـتغل بهـا هـذا العقـل وسـط هـذه الجمجمـة الصغـيرة بشـعرها الأشـعث؛ وأكـره الاستسـلام للـذة الجسـد باسـتجابته الفوريـة لنوبـات الهلـع اللامـبررة؛ ولكنـه الحـدس! الحـدس القـذر الـذي يفـرض نفسـه بداخـل هـذا القلـب وهـو ذاتـه الـذي يتحـول مـن خيـط فكـرة وهميـة إلى واقـع! مجـرد تحصيـل حاصـل! مـا أنـا فاعلتـه مدركتـه؛ في الشـهرين الماضيـين كنـت حريصـة عـلى تجريـب كل جديـد! جبانـة ولكـني شـجاعة! وأنـا بعـد قليـل -قلـتُ لنفـسي وأنـا أسـتجمع قـواي- سـأحصد مـا زرعتـه؛ ولقـد زرعـت بـذور الحريـة في أرض صلـدة وعـلي الآن أن أجـني ثمارهـا.

أطـول الطـرق وأخطرهـا توريطـا هـي الطريـق إلى سـماع خـبر مـا؛ تعصـف بـك كل الاحتمـالات فتلقـي بـك وحيـدا في مهـب التجربـة الجديـدة؛ ولقـد سـبق أن جربـتُ هـذه الطـرق الطويلـة الـتي لا تنتهـي عنـد أعتـاب المحاكـم وفي الطريـق إلى المختـبرات الطبيـة.. نفـس الخطـوات المهترئـة.. نفـس الأنفـاس المتقطعـة.. نفـس الرهبـة؛ وأنـت تمـشي وحيـدا لتـدرك «الأخبـار الحاسـمة».. يـا لهاتـين

الرجلين النحيفتين المرتعدتين.. يا لهذا القلب المضطرب.. يا لعقلي المفزوع؛ حين أمشي هكذا إلى قدر مثلما مشيت يوم السابع وعشرين من شهر تموز منذ ست سنوات مضت إلى مختبر التحاليل الطبية؛ كنت قد عانيت من تعفن مهبلي جعل طبيبي خائفا من احتمال تعرضي لداء فقدان المناعة المكتسبة؛ ومرة أخرى.. لم أكن أنا.. لم أفعل شيئا.. كنت أصون طليقي في السر والعلن؛ من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل.. لا صديقات لا زملاء لا حديث مع الجيران وليست لي علاقة بالعالم؛ كنت هادئة بما يكفي لأتعلم كما بقية النساء حياكة صدرية من الصوف السميك؛ أجلب الكرة الواحدة لتتسرب الأيام تباعا؛ وعندما تنتهي كبة الصوف أعلم أن الأسبوع قد مضى؛ وعندما تنتهي الصدرية أعلم بأن الشهر القادم حلّ.. ولكن طليقي كان نذلا عظيما، وأنا لم أكن أعرف وقتها ما تعنيه كلمة «الخيانة».. كانت لغة ركيكة أسمعها كالبقية على شاشات التلفزيون دون أن أشك في يوم في كونها لغة مموهة بين شريكين اثنين؛ يجمعهما رصيد بنكي واحد.. هم واحد.. واهتمامات متباينة في الاختلاف! وقد مشيت إلى المختبر وأنا لا أعرف كيف ستغير تلك اللغة الحقيرة كل حياتي؛ وكنت أصعد الدرج وأنا أعد على أصابع رجلي أرقام الصبر؛ نظرت إلى «نوارة» الممرضة وكنت ألهث حين طالبتها بنتيجة التحاليل؛ وكانت دمعاتي على مدمع العين متأهبة وساخنة؛ ولم يكن يصيبني حينها البرود أو كنت شابة دافئة بما يكفي لأتجرع هذه الأشياء الجديدة أو منذ عرفت ذلك الرجل وأنا أنتظر المصائب؛ استخرجت الورقة وقالت قبل أن تخرجها: لن يكون هنا إلا الخير؛ كنت أتوجس توترها هي أيضا،

فاستطردت قبل الفتح النهائي: أنت امرأة طيبة ولن يحدث لك سوى الخير، ثم قالت بسرعة الرصاص الغادر «النتيجة سلبية ألف مبروك»؛ لم أفرح حينها ولم أحزن؛ كان لا مذاق أو وقتا محايدا مستقطعا من اللذة وجميع الحواس؛ لما كان علي حينها أن يبدو على وجهي شيء من المشاعر؟ بل إن الزمن ينقسم هنا لزمنين اثنين؛ زمن ما قبل أن تعرف وزمن ما بعد أن تعرف وما بينهما لحظة حقيقة متوقفة؛ وفي كلا الزمنين شعوران غريبان اثنان؛ شعور الصدمة والمرارة يتلوه الزمن الميت المتقطع بلحظة لاشعور وزمن أخير فيه استيعاب وتصديق وقليل من الفرح؛ ولكني مُتُّ هنا أيضا موتة صغيرة؛ وسأذهب الآن إلى مكتب المدير متوقعة الأسوأ دائما لأنه يحصل بشكل أو بآخر؛ ولكني قلت لنفسي أن الكثير من الأسوأ في حياتي مرّ.. مرّ بشكل بطيء ثقيل كيوم خريفي؛ وليله أطول من هذا الممر الموصل إلى السيد رفيق.. كأني مازلت هناك؛ كالمختبر الطبي تبدو البناية الخاصة بالإدارة؛ كانت راية البلاد ساطعة في الأفق وبدا لي أن الأشجار على غير عادتها لم تلقي السلام علي؛ ماذا تتنبئين لي يا زهرة الأركانة الصغيرة؟ هل سأعود إليهم مطأطأة القلب أم يا تراها قراراتي العبثية تحققت؟ على أعتاب هذا السؤال وقفت؛ كان باب الإدارة مواربا بالفعل؛ لم أطرق الباب بل داهمته مثل عساكر المقاومة؛ وقفتُ وكان جسدي هناك؛ قلتُ خيرا؟ وصمتُّ.

لم يسلم علي المدير؛ كانت ملامحه غاطسة في ورقة أمامه؛ واقفا بسرواله الأسود وقميصه الأبيض المائل إلى صفار؛ بسمنته التي تمثلت في كرش امرأة حامل في شهرها الخامس بالضبط؛ حبستُ أنفاسي وأنا خائفة من أن يسلم علي بيديه التي لا أعرف

أيـن كانتـا هـذا الصبـاح وهـل غسـلهما أو كمـا عادتـه في الفطـور الجماعـي حـين يـراني متوتـرة ومسـتعجلة عـلى غسـل يـدي يقـول لي بمـرح مقيـت: يـا أسـتاذة لا داعـي للفـزع؛ كلنـا غسـلنا أيدينـا البارحـة في البركـة المجـاورة!! فيطلـق ضحكتـه الجوهريـة الـتي تُضحـك الجميـع.. عـداي! أتقـزز أكـثر وأسـتخرج بعدهـا معقـم اليديـن وأفـرك أصابعـي بـه جيـدا كي تمـوت كل الجراثيـم الـتي سـولت لهـا نفسـها العيـش في كفـي.. ولـم يسـلم عـلي؛ أي أنـه لـم يلـق التحيـة وكانـت كفـاه مفتوحتـين متمسـكتين بمنضـدة المكتـب؛ ولـم ينظـر إلي؛ كانـت عينـاه مصوبتـين عـلى ورقـة وزاريـة اسـتطعت بـلا أدنى عناء قراءتهـا وظـرف متوسـط الحجـم موضـوع بعنايـة تحتهـا مبـاشرة؛ ولـم يتململ ذلـك الرجـل؛ وسـكن جسـده الضخـم وبلـغ توتـري أشـده.. بلعـتُ بعضـا مـن الريـق وقلـت: خـير سـيد رفيـق؟

لـم يجبـني.. وظـل مركـزا فعـلا في القـراءة.. متمعنـا في فحـوى الورقـة.. ثـم صمتنـا لبرهـة مـن الزمـن؛ كأنـه يخلـد ذكـرى مـا؛ يمـط بشـفتيه حـتى يخـرج زفـيرا فيتصبـب الرجـل عرقـا؛ أمـا أنـا فتخلصـت حينهـا مـن أدبيـات الحـوار؛ تجـرأ صـوتي عـلى تغيـير نبرتـه مـن هـادئ خائـف إلى خائـف متوتـر: أنـا أريـد أن أعـرف مـا يوجـد بتلـك الورقـة؟

رد حينهـا وكان مسـتفزا: لقـد انتقلـت بعمليـة التبـادل الآلي إلى مدينة الشـاون مـع أسـتاذة تُدعـى حنـان المصباحـي وعليـك الالتحـاق بعـد أسـبوع بمقـر عملـك الجديد.

قلـت «بلاشـعور» كبـير: وافقـوا عـلى طلـب التبـادل الـذي قدمتـه بشـهر ٩؟ كنـت أظـن أنهـا رسـالة مـن عائلـتي.. ثـم واصلـتُ بحرقـة طفيفـة: لـم يصلكـم شيء مـن عائلـتي؟

كان سـؤالا غبيـا؛ فضـل السـيد رفيـق ألا يجيـب وكان محبطـا قليـلا؛

ثـم نظـر إلي: لمـاذا فعلـتِ ذلـك؟

-أنـا لـم أفعـل شـيئا؛ أنـا مضطـرة لتغيـير الأجـواء هـذا كل مـا في الأمـر.

-أهناك شيء لا أعرفه بخصوص عائلتك؟

- وهل عليك أن تعرف شيئا بخصوص هذا الموضوع؟

-لا؛ ولكـني رئيسـك في العمـل ومؤخـرا لاحظـت أنـك منعزلـة كثـيرا عـن زملائـك و...

قاطعتـه: ليـس في ذلـك مـن سـوء سـيد رفيـق؛ أنـا منعزلـة منـذ الأزل! انظـر للأمـر بأنـه فعـل خـير عـلى عكـس مـا تظنـون.. سـأغرب وجهـي عـن الجميـع.. عـن الجميـع؛ أنتـم لا تعتبرونـني زميلـة لكـم وأنـا أعتبركـم بـلا اسـتثناء غربـاء!

-أنـا أعـرف هـذا وأقـدر صراحتـك الشـديدة؛ غـير أن هـذه الطبـاع ستشـكل لديـك مشـاكل في المسـتقبل القريـب.. أنـتِ كفـؤة ومواظبـة وأسـتاذة نعـتز بعملهـا الرصـين في المؤسسـة.. آسـفني جـدا أنـك سـترحلين عنـا نحـن أيضـا بهـذه الطريقـة.

- ماذا تقصد بـ «عنا نحن أيضا»؟

-أقصـد مـا تعرفينـه وتخبئينـه عـن الجميـع؛ وجهـك الشـاحب مكشـوف؛ كـوني أكيـدة مـن أنـك ذات مكانـة كبـيرة بهـذه المؤسسـة.. اعـتنِ بنفسـك حـتى الأسـبوع القـادم.

كان عـلي أن أذهـب بعدهـا بخطـى دافئـة؛ لقـد حصلـت وبـلا عنـاء متوقـع عـلى انتقـالي مـن هـذه البلـدة الصغـيرة؛ سـأرحل عـن المـاضي.. قلـتُ في نفـسي وأخـيرا سـأتلاشى أو أتبـدد كأنـني لـم أكـن يومـا! كنـت أتمـشى كعاشـقة يلـف الحـظ خصرهـا الوحيـد؛ مـررت

مـن السـاحة غـير آبهـة بالريـح الـذي يرقـص أسـفل قدمـي؛ غـير آبهـة بالـبرودة البئيسـة المختبئـة بـين كتفـي؛ اخـترت أطـول الممـرات وصـولا لفصـلي؛ لا كلمـات تـتردد بذهـني غـير كلمـة «انتقلـتِ»! ياللانتشـاء العظيـم! وددت لـو اعتنقـتُ هـذا الفـرح الصغـير في زجاجـة؛ وددتُ لـو توقفـتُ هنـاك بتلـك اللحظـة بالضبط لأستنشـقها كلهـا دفعـة واحـدة؛ أن أشـعر بالامتـلاء في قلـبي الحزيـن؛ تمنيـتُ لـو أن خلـدتُ هـذه اللقطـة بالـذات؛ لـو قلصـت المسـافة بيـني وبـين المـاضي؛ أو سرعـت الفكـرة بيـني وبـين المسـتقبل؛ أو ألا أفكـر بـشيء غـير أني في صفحـة البدايـة الجديـدة؛ الصفحـة الأولى مـن كتـاب فلسـفي شـخصي للغايـة.. مدهـش للغايـة! وعـلى الأقـل قلـتُ لنفـسي مـرة أخـرى قبـل أن أفتـح بـاب الفصـل مـن جديـد لإكمـال درس الحريـة: الآتي لـن يكـون أسـوأ عـلى أي حـال ممـا مـضى! ثـم دخلـت للفصـل بجلـد جديـد.

***

كان عـلي أن أبيـع أغـراضي الشـخصية فـي المـزاد العلني؛ مـا عداها الكتـب النـادرة وغـير النـادرة؛ المهمـة وغـير المهمـة؛ الأكـثر مبيعـا إلى الكتـب المهمشـة بكتابهـا الفقـراء؛ كنـتُ أسـتخرج الكتـب مـن الرفـوف وأضعهـا مثلما يضـع الطبيـب الرضيـع بعـد عمليـة مخـاض عسـيرة؛ أضـع الكتـب سـمينة الحجـم ثـم مـا ألبـث أوقفهـا عموديـة كقصيـدة؛ وبعـد أن أتأكـد أنهـا بحالـة جيـدة حينهـا فقـط أضيـف الكتـب الخفيفـة؛ أوزع الدواويـن عـلى العلـب فأصنـع منهـا سـياجا صغـيرا تطـوق كتـب الفلسـفة؛ أمـا الروايـات فبشـكل عـام أتركهـا

بفوضويتها الجميلة؛ هي كما هي عليه؛ لها شخصيات أؤمن أنها تخرج من السرد تباعا لتلقي نظرة على الكتب المجاورة.

أما عن السرير البارد والملعقة الواحدة والكأس الوحيدة والمكتب والصحن الفارغ والديكورات المجسمة في تحف فنية صغيرة ليست أبدا ذات أهمية للآخرين سواي.. أحس بأنها أشياء ثمينة وغالية بل إنها تكاد أن تكون نفيسة؛ وأنا أريد أن أهبها لشخص ما؛ وكنت لم أفكر في الأمر بعد أو لم أحسم فيه؛ بين بيعها في بلدة لا تفهم إلا في «خبز» مينة الساخن أو «الصالحي» البارد أو إهدائها لشخصية مميزة.. وهنا طرحت فكرة من هي «الشخصية المميزة»؟ أو بالأحرى ما هي الصفات والضوابط والشروط التي وجب أن تتوفر عليها هذه «الشخصية» ليبدو عليها «التميز»؛ و«التميز» في ماذا وكيف؟! وهل لي علاقة به؟ أعني أيكفي أن أحبه لأهديه هذه الأغراض القيمة؟ الحب ليس شرطا قلتُ في نفسي.. ليس شرطا إطلاقا لكن أيضا لا معنى لأن تهدي أشياءك الخاصة جدا لشخص تكرهه! قطعا؛ مفروغ منه.. شخصية ذات عمق أو له ارتباط بالذكريات مثلي؛ ولكن ها أنا ذي سأتخلص منها! وبالمناسبة فقد اتفقت مع نفسي أن نقوم بالفعل ونفكر فيه لاحقا؛ نعم فذلك أفضل.. ولكن رغم هذا الجدال الطفيف كنتُ قد عزمت جمع ذكرياتي الحميمة في كراتين هي أيضا في انتظار وريث شرعي.. هي أشياء بسيطة كنت قد اشتريتها بحب واهتمام أو أنها ذات تاريخ أو ذات معنى عميق -على الأقل- بالنسبة لي؛ وكل التفاصيل الدقيقة عليها إلا وتزيدها عندي مكانة؛ فعلى الصحن مثلا وردتان اثنتان على شكل توليب باللون الأحمر القاني؛ يلفها خيط ذهبي خالص على

حاشيته؛ أنيق وأرستقراطي ولك أن ترى بقيته المسطحة قليلا ببياض شديد حتى تبدو الزهرتان نابعتين من كومة ثلج؛ أما كأسي فهي بصدر متسع يضيق نحو الأسفل؛ من زجاج قديم وكنتُ قد اشتريتها من مدينة مكناس بأحد أسواقها العتيقة؛ الكأس الواحدة هذا بيع لي بثلاثين درهما؛ وبالعادة اشتريته اعتقادا مني أنه كأس شرب فيها «شاعر» ما؛ من زقاق صغير بالمدينة اسمه زنقة «الكاتب».

أما الملعقة والشوكة والسكين؛ فهي هدايا: الملعقة هدية من طفل صغير التقيته ذات يوم بالقطار؛ وعلى الملعقة قد نقشت جملة مدهشة «كُلْ بحُبّ» كان يبكي ويبكي ففتحت حقيبتي وأزلت من حاملة المفاتيح دبدوبا صغيرا بالأبيض والأسود أهديته إليه فصمت وابتسم بدمعتين كانتا قد سقطتا على وجنته الحمراء.. دون تردد أهداني هو «ملعقته».. وأما الشوكة فكانت آخر شوكة ببيت جدتي؛ ولأنها لا تستعمل الشوكات في أكل أي من الأكلات وليس لها استعمال بشكل مطلق في بيتها فقد نلت شرف الاحتفاظ بآخر ما تبقى.. منذ ثلاثين سنة والشوكات تنقرض ببيت الجدة بمناسبة أو بغيرها حتى تبقت لي هذه الواحدة؛ كانت سترمى في النفايات لولا تدخلي السريع:

-ولم هذه الشوكة الوحيدة؟ اشتري «دزينة» بها ست شوكات احتياط.

-ولم ست شوكات وأنا وحيدة بالبيت؟!

-تحسبا للزوار.

- لا يزورني أحد.. قلت بابتسامة عريضة على وجهي.

- ليس جيدا أن تبقى المطلقة مع أوان قليلة في البيت.. أنت تجرين إليك النحس قالت بحزم.. ثم أردفت: وستظلين وحيدة.

آه يا جدتي.. لو ترين الآن أني سأصبح بلا أوانٍ! هكذا مرة واحدة! وكما تقولين اللهم العمش بدل العمى؛ على الأقل حينها كنت أملك أواني تصلح لإعداد الطعام أما وبعد أن أهب هذه الممتلكات القيمة فإني سأصبح مع النحس بذاته وصفاته!

أما السكين فيعود لطليقي؛ سكين شبه عادي يملك قبضة من بلاستيك بالأسود؛ وكنت سأُقتَل به لولا أني أفلتت من يديه بالمعجزة؛ كانت تلك هي المرة الأولى التي أواجه فيها العنف كشعب أعزل أمام دبابة؛ ما الذي ارتكبته كي يفكر بقتلي؟ لا شيء سوى أني قررت في ذلك الصباح طي ملابسه بالطابق الأخير من رف الخزانة التي نبهني مئات المرات بعدم الاقتراب منها؛ ولكن ليس الفضول هو ما دفعني إلى المس بذاك الرف بل لأن الصيف كان على وشك القدوم وكان من اللطيف أن أبدل رف الملابس الشتوية بالأعلى وأستخرج من هناك ملابس الحر؛ ونسيت قرار المنع أو احتفظت به برأسي على سبيل التهديد الفارغ ليس إلا! أنا لم أفعل شيئا سيئا! مرة ثالثة! جلبت كرسيا صغيرا يكفي ليرفع قامتي للأعلى؛ واستخرجت كومة الملابس المبعثرة فوق وإذا بطرد أصفر متوسط الحجم؛ بلا عنوان مرسل.. يقع على رأسي مباشرة فيفتح الطرد في رحلة النزول لتسقط على الأرض صور كثيرة؛ كنت لا أزال حينها فوق الكرسي؛ أنزلت عيني فقط للأسفل وتدلّى شعري اللولبي محدثا غرة سميكة على جبيني من الجهة اليمنى؛ أزلت بعضا منه لأتمكن من استيعاب الأمر أو لألاحظ وأصف الصور من فوق؛ كان ذلك زوجي.. أعني طليقي..

كان عاريا.. لا بل كان شبه عار.. لا أستطيع التذكر الآن أو الجزم لكنه كان بين هذين الوضعيتين وبالصورتين الأماميتين بنفس الغرفة قد ظهر جليا أن ثمة امرأة شقراء.. كنتُ لا أزال فوق الكرسي؛ وكنت قد بدأت أحس بفشل في ركبتي؛ فكرت في النزول ثم تذكرت خرقي لقرار الاقتراب من الرف العلوي للخزانة؛ وأحسست بوخز عميق في القلب؛ مسحت عن عينيّ دهشة ثم نزلت من الكرسي؛ كان بإسفلت الأرض قرابة الاثنتي عشرة صورة بدا فيها زوجي أعني طليقي شبه عار أو عار مع امرأة شقراء.. كبيرة في السن.. ملامحها مألوفة لدي.. في غرفة فندق أبيض جميل وساحر يطل على بحر؛ قلبت بين يدي الصور ولم أسمع باب البيت الذي فُتح بل لم أستيقظ من دهشتي إلا بصفعة حادة على وجهي.. لم أصرخ إطلاقا؛ ربما توقعت الصفعة أكثر من أي شيء آخر؛ كان يصرخ وأنا شبه جامدة أو جامدة؛ وكنت كمن يتذكر شيئا دقيقا ثم سريعا قلتُ: هذه دومينيك! إنها دومينيك التي بالصورة!

كان يصرخ ويتوعد ولم يجب على يقيني؛ كان في تلك اللحظات يمزق كل الصور؛ يجمعها ويتوعدني بالقتل.. ثم لم تكن المرة الأولى التي يتوعدني فيها بالقتل بل سبق أن فعلها لأنني تجرأت واشتريت هاتفا دون إذنه؛ ثم سبق أن فعلها حين اشتريت بعضا من الملابس ولكن هذه المرة حمل هذا السكين ذا القبضة السوداء؛ كنت أستعمله فقط عند تقشير البطاطس لأنه لم يكن حادا.. ولهذا السبب اختاره؛ كان ذكيا جدا فيما يخص طرق التعذيب؛ ذكيا ومبدعا أيضا! مسك شعري من غرته التي ظلت بيمين الجبين ثم لوى ذراعه السميك على عنقي ليجعل

السكين ذا القبضة البلاستيكية مرئيا لدي؛ تبولت من الفزع وكانت تلك المرة الأولى التي أحسست فيها بالبرودة الخالصة التي لا تشوبها شائبة تلك البرودة التي تحولت الآن لعادة يومية مألوفة؛ صرت حينها قطعة ثلج كبيرة تذوب من الأسفل؛ وكان السكين ذو القبضة السوداء يمشي مهددا عنقي الطويل ويصعد حتى فمي المكتنز ثم لا يلبث يعود مهددا ذبحا غير يسير..

احتفظت بهذا السكين لأنه كان سببا في اتخاذ قرار ضخم اسمه: الطلاق.

كان ضوء الشمس الساطع يدخل من النافذة ذات الشبابيك البنية؛ يكاد يبلغ البيت كله. كان زجاجها مغلقا ومع ذلك كانت رائحة خبز مينة تملأ الأجواء والتي لم تكن أكثر من رائحة الرحيل؛ الكراتين في كل ركن بالبيت الصغير؛ قررتُ أني لن أحمل معي إلى الشاون شيئا؛ سأذهب مثلما هربت من بيتنا؛ حقيبة صغيرة بها معقم اليدين؛ فوطة جواز السفر وورقة طلاقي.. الباقي مجرد جرح مفتوح على الزمن لا جدوى من حمله والترحال به؛ علي تكوين ذكرى جديدة ونظيفة تماما كما لو عقّمت دماغي من هلاوس الماضي السحيق؛ سأشتري هناك كل شيء؛ سأغير من لباسي ومن عادات أكلي ونومي.. وسأظل هكذا.. عصية الفهم؛ خائفة ولكن شجاعة.. باردة ولكن بقلب متقد؛ شاحبة بعينين صافيتين.. يتيمة ولكن لي عائلة.

ومرق في ذهني كل الذين سيتوجب علي السلام عليهم قبيل الذهاب؛ كان لم يتبق إلا أربعة أيام.. نظرت بالشفقة حيال تلك الكراتين اليانعة مثل أكواخ في صحراء قاحلة؛ لبستُ قميصا رياضيا وسروال جينز وعزمت المرور على «سعيدة» و«دامية»

الممرضتين بالمستوصف الصغير بهذه القرية الصغيرة؛ تلك الأسامي التي لنا نصيب منها فتجد أن «سعيدة» حقا لها شيء من «السعادة» إنها دائما ما تصف سلوكها الحضاري في اتباع الموضا مصدر «سعادة»، وأن العمل بهذه البلدة التي لا تعرف «الموضا» والحفاظ على الأناقة برغم هذه الظروف المحبطة «سعادة» في حد ذاتها؛ وكانت غالبا ما تحدث الرجال على الهاتف بلكنة فرنسية قريبة من النخب التي تعيش بالرباط والنواحي ثم لا تخبرهم إطلاقا بـ»تافينكولت» إنها تدعي دائما أنها تعمل بـ»أغادير» وكانت تقول أن هذا ليس كذبا لأن نطق اسم هذه البلدة يسبب «روماتيزما في عضلة اللسان» ثم تضحك.. أما «دامية» فاضطررت إلى السؤال عن معنى اسمها الغريب؛ قالت لي وهي تحقن في إبرة «مضادة للألم»:

- ازدنتُ وسببتُ لأمي نزيفا حادّا أودى بحياتها.. ثم ابتسمتْ إلي بعدما أخرجت الإبرة من العضل.

سألت بوخز تام سرى في بدني: أتعنين أن أمك ماتت؟!عفوا فأنا أحيانا لا أستوعب الأمور بشكل جيد! ثم واصلتُ إقفال البنطلون.

-أريدك أن تكوني صبورة فيما يخص ألم المفاصل؛ علينا التريث قبل أن يصف الطبيب لك المزيد من «الكورتيكويد»؛ ما رأيك في أن نخرج يوم كل أحد للمشي؛ سنحاول إقناع سعيدة بعدم جدوى البحث عن رجل يوم الأحد! ثم ضحكت فعلا.

-يحق لك أن تكوني دامية؛ لا موتا ولكن حياة فبالدم يمكنك أيضا أن تحيي.. ثم عانقتها ولا أدري إن كانت قد بكت على كتفي أو أحسنت ابتلاعها كما عودتنا دائما؛ ولكن كنتُ أحاول

في كل مـرة ألتقيهـا فيهـا أن أفهـم منطـق هـذه الحيـاة العظيمـة.. وكيـف وجدتـني اليـوم غـير قـادرة عـلى تصديـق أن آخريـن قـد وجـدوا الـدفء حيـث وجـدتُ أنـا الصقيـع.

ولعلـني لـم أر البنـات منـذ حللـت أواخـر الصيـف بالقريـة؛ ورغـم أن البيـوت هنـا متراصـة ومعروفـة ومعـدود سـكانها عـلى رؤوس الأصابـع إلا أنـني كنـت أتجنـب اللقـاء بـأي مـن المعـارف؛ إذ إن المشـهد كان غريبـا بـكل المقاييـس؛ أن تـترك المـدن الكبـيرة بـكل رفاهيتهـا وجماليتهـا بالنسـبة للقـروي وتـأتي هرولـة لتافنكولـت صيفـا يتطلـب تحليـلا ومناقشـة؛ لكأنـك مطالـب بالدخـول هنـا وقـت العمـل وعليـك العـودة في العطـل مـن حيـث أنـت.. فأنـت عـربي وهـم أمازيـغ وكنـت أشرح لطـلابي أني لا أعـرف إن كنـت أنـا أيضـا أمازيغيـة! أنـا لـم أحلـل دمـي وليـس لي مقيـاس نقـي للسـلالات الـتي لا تشـوبها شـائبة ولكـن دمـي حـر يغـلي للحريـة والإنسـان ويؤلمـه أن تبعدنـا اللغـات واللهجـات والأحـكام القاتلـة.. ولذلـك تعلمـت الأمازيغيـة حبـا لا طمعـا في كسـب تعاطـف أو ألفـة؛ «نـكي تسـنت إيميـك تشـلحيت» «أنـا أفهـم القليـل مـن الأمازيغيـة»، ولكـن في الحقيقـة كنـت أفهـم كل مـا يقـال؛ وأضـع الجماعـة في محـل راحـة ليتحدثـوا بـكل أريحيـة عمـا يجـول بخاطرهـم مـني كزميلـة؛ وكنـت أضحـك في نفـسي لأني كنـت أفهـم كل مـا يقـال؛ آه لـو كانـوا يملكـون القليـل مـن الجـرأة فقـط ليوجهـوا ملاحظتهـم هكـذا وجهـا لوجـه.. دون التـواري وراء مشـجب اللهجـة الـتي لا تسـتوجب إلى الحـب لتفهـم.

كان عـلي أن أخـبر «سـعيدة» و«داميـة» أني راحلـة عـن القريـة بعـد عـشر سـنوات مـن العمـل الـدؤوب هنـا؛ لـم نكـن صديقـات ولا

رفيقات ولكن كنت إسفنجة عملاقة تمتص حكاياتهم عن الطبيب الذي يأتي وقتما يشاء ويتركهما أمام الحالات المستعصية وقتما يشاء؛ عن عمليات الإجهاض التي كانت تقام في الخفاء؛ عن التذمر اليومي لقلة المعدات الطبية والأدوية وأحيانا ندرتها وصولا عند حكايات «سعيدة» الشهرية عن «العزوبة الإجبارية» كما كانت تردد.. أما «دامية» فلم نكن نعرف عنها الكثير؛ مثلي تماما.. لا تعرف عني البنات شيئا؛ و«مينة» أيضا لا تعرف عن طلاقي شيئا؛ حالتي الاجتماعية خط أحمر؛ لست حمقاء لأكوّن الصورة النمطية السهلة عن المطلقة.. «الفريسة السهلة» «الباب المفتوح» «الفرصة» «الدجاجة بكمونها».. وليس للجرأة دخل في الأمر؛ علينا أن نختار العقليات لنكشف عن ماضينا؛ ثم هو ماضينا نحن؟ ولم علينا إخبار الجميع؟ لو علموا أني مطلقة لما سكنت عند عمارة هذا العربيد ولما مرت هذه السنون بسلام.. ولكن علي أن أخبر «سعيدة» و«دامية» بأن الاسفنجة -كما تلقبانني- راحلة؛ وأن الإسفنج عملة نادرة، خصوصا إن كان يظل في امتصاصه باردا إلى أن يجف بصمته مع الزمن.

وكما كان معتادا وجدتُ البنات بردهة صغيرة وراء المستوصف؛ كانت «سعيدة» لاتزال بوزرتها البيضاء بوجهها الأبيض السمين والخدود الوردية؛ أما «دامية» فكأنها فتاة مسنة؛ بتجاعيد لا تليق بسن الثلاثين؛ سروال ضيق أسود وجوارب سميكة من الصوف ونظارتين طبيتين على وجهها النحيف؛ سعيدة تختار دائما الأصفر ويليق بها الوردي أكثر؛ كنت أنصحها رغم ضلوعها في عالم الموضا.. ليس كل ما هو دارج جميل! من المحتمل أن تستخف بي وأنا التي لا تضبط أسلوبا معينا في اللباس والعيش..

سلكت ممرا صغيرا إليهما ثم صاحت بوجهي «سعيدة»:

-يا هلا يا هلا بالاسفنجة الراحلة! ونحن آخر من يعلم آه؟

باندهاش شديد: يبدو أنك مجبر هنا على فعل الحماقة الجيدة! يالسرعة الانتشار!

-أنت بتافنكولت عزيزتي.. أجابت دامية؛ هكذا! ترحلين مرة واحدة؟! قلبك قاس يا فتاة.

كنت قد جلست بالكرسي الشاغر دون أن نسلم على بعضنا البعض ثم أردفت قائلة: أنا نفسي لم أستوعب الأمر! عندما ملأت استمارة المشاركة بالحركة الانتقالية للأساتذة بالتبادل الآلي لم يخطر لي ببال أن طلبي سيلاقي صدى! خصوصا وأن ثمة خصاصا في أساتذة الفلسفة!

-وإلى أين العزم يا ولية الحظ والأمر؟

-لم يخبرك أصحاب الحسنات ببقية الاشاعة الصحيحة؟ أم أنهم هنا ضلوا السبيل؟ ثم أفلتت ضحكة قوية تبعني فيها البنات دون تردد.

-هيا قالت سعيدة؛ مسلسلك المكسيكي هذا ركيك.. هات الحلقة الأخيرة!

-إلى مدينة شفشاون يا بنات.. ثم تسمر على وجهي الرضى.

-أسمع بها، قالت دامية.

-أهي في شمال المغرب؟سألت سعيدة بسرور غبي.

-أي نعم.

-إذن ثمة رجال وسيمون هناك.. آآه يا اسفنجة يا محظوظة!

هنـاك سـتتزوجين لا محالـة بهـذا الشـعر اللولـبي والسـحنة الحنطيـة الذهبيـة وبهـذا الوجـه الطفـولي الناعـم!

-أنـت الوحيـدة الـتي تثبـت لي مقولـة أن ثمـة في الاسـفنج مـن وجـه ناعم!

ضحكـت البنـات وضحكـت أنـا أيضـا؛ وكنـا هكـذا لا نعاتـب بعضنـا البعـض؛ ولا نحـاول بـأي شـكل أو بآخـر أن نصـل إلى شيء مـا.. أو ثمـة هـدف مـا وراء هـذه الروابـط الـتي لا يصلـح لهـا اسـم أو مسـمى؛ كأننـا هنـا نحـاول تضميـد الظـروف بمراهـم محبـة إنسـانية خالصـة؛ شربـت معهمـا الشـاي وأكلنـا كيـك «داميـة» المحـروق؛ ضحكنـا عـلى أسـتاذ مـادة اللغة الفرنسـية الـذي لقبنـاه بـ «la pluit» «المطـر» الـذي تعـب مـن البحـث وراء رقـم هاتفـي دون جـدوى.. ضحكنـا كثـيرا ووعدنـا أنفسـنا ألا نسـلم عـلى بعضنـا البعـض وسـأرحل كالمـوت الرحيـم مـن حياتهمـا كمـا لـو أنـني لـم أكـن.. ووعدتـاني بأنهمـا سـتحزنان وسـتزورانني ذات يـوم بالشـاون.

***

كانـت نظـرة شـمس إلي عنيفـة؛ خارقـة وخطـيرة؛ وجهـه المكـدر وعصبيتـه في جمـع علـب الأثـاث كانـت كافيـة لتريـني فداحـة الأمـر بالنسـبة إليـه؛ كان يضـع الكراتـين فنسـمع بعدهـا صـوت الصحـن مـع الـكأس حـادا؛ كان موقفـا رهيبـا يضـاف إلى سلسـلة مـن المواقـف الـتي وضعـت فيهـا نفـسي ووضعـت فيهـا الآخريـن أيضـا؛ فكنـت أجـرح أحاسـيس مـن أحبهـم جرحـا غامضـا وخفيفـا خفـة الوعـود الكاذبـة؛ فتحـس كلمـا مـر اسـمي مـن ذاكرتهـم كمـن يمـرر عـلى الجـراح ملحـا؛ خجلـت مـن شـمس لأنـه كان ابنـا.. كان أنـا في حيـاة

أخـرى.. كان أبـا كبـيرا بعينـين متسـعتين بمـا يكفـي ليسـمع؛ ليكـون هنـا دائمـا رهـن الإشـارة.. وهـو هنـا دائمـا ليقـرأ معـي؛ وكان هنـا دائمـا ليؤكـد أن لوجـودي سـببا مـا.. وأنـني لـم أكـن مجنونـة ولا معتوهـة كمـا يظـن البعـض؛ كانـوا جميعهـم المجانـين، وأنا وشـمس العاقـلان اللـذان يملـكان أحلامـا مضحكـة.. بسـيطة.. ولكننـا نعيـش عـلى الأقـل.. مـن أجلهـا.

مـن سـيذهب معـي إلى السـوق يـا شـمس! مـن الآن وصاعـدا سـأخرج للسـوق وحيـدة يتربـص بي الذكـور الأغبيـاء ليحتكوا بجسـدي النحيـف عـلى سـبيل الصدفـة والازدحام؛ كنـت تمشي معـي أو أمامي فاسـحا لي ممـرا آمنـا وفارغـا مـن هـؤلاء الأغبيـاء؛ كنـت تعلمـني مهـارة اختيـار البطاطـس الطازجـة مـن البطاطـس المـرة الـتي لـن تصلـح إلا لإنباتهـا في أصيـص.. تصنـع لي «لوايـة» خـضراء يانعـة تُحجـب عـني نـور شـمس النهـار؛ أمـا شمسـك يـا شـمس فإنهـا لا تغيـب؛ وكنـت تحـدث الباعـة بـدلا عـني وتعـرف أن لسـاني ثقيـل وركيـك بخصـوص الحديـث الشـفهي مـع الرجـال؛ تنـوب عـني في مجادلـة الباعـة بالثمـن الجيـد؛ وتذكـرني بخـضر المواسـم اليانعـة؛ وفوائـد الفواكـه الـتي لا أحـب.. يـا شـمس؛ حدثـني عـن هـدوء العالـم في عينيـك الذهبيتـين؛ عـن امتنانـك ورجولتـك الصغـيرة المليئـة بالكبريـاء والعـز؛ حدثـني عـن طفولـتي الـتي تختـبئ في ابتسـامة تـبزغ مـن صفـاء خلقـك؛ حدثـني عـن أمومـة مخبـأة في أضلعـي.. ولـو تمنيـت أن أصـيرا أمـا لتمنيـت أن كنـت طفـلي العزيـز.. ولعلـك طفـلي العزيـز يـا شـمس.. لعلـك أنـت.

كنـتُ أزداد حـسرة في المسـاءات الـتي تقـترب مـن الرحيـل؛ وكنـت قـد اتصلـت بالحافلـة وحجـزت تذكـرتي مسـاء يـوم السـبت مـن

مدينة أغادير ليأخذني حيث مدينة لم أزرها من قبل؛ وقد قال لي السيد على الهاتف أني سأصل بحدود الساعة الواحدة والنصف زوالا من يوم الأحد.. كان المساء يطول ويتمدد ليصنع من وقته حيطانا للمبكى والأسى؛ شيء من الكآبة الجامحة ينسدل؛ لا يسمع بعدها صوت عدا نقيق الضفادع القادم من البرك المجاورة؛ حتى مينة وأولادها ينامون باكرا استعدادا لعجن الخبز فجرا؛ أظل وحيدة أقلم أظافر المخاوف تباعا؛ وأجتر حديث العجائز من خرافات عن «شفشاون»؛ ثم ما يلبث مسائي ينتهي بالشوق لأمي.. وجدتي أيضا؛ أمي وجدتي بالرغم من كل شيء؛ حبل سري ينبت بالمساءات الكئيبة؛ تفكر رغما عنك في الحسرة التي هما عليها الآن دون معرفة أخباري.. دون أن أعرف ما الذي حل بهما؛ ولكنهما الآن قد كرهتاني لا محالة.. لقد سببت لأمي الآن جفافا بعينيها الباكيتين علي مساء نهار؛ كيف يحق لي الحديث عن الأمومة! سيعاقبني الله على كل هذه الآلام التي ارتكبتها في حق هؤلاء؛ وإني موقنة بأني لا أستحق أن أعرف الناس أو أن أختلط بهم بأي مسمى كان؛ أمثالي يستحقون العزلة الحقيقية؛ ثم أعدهم جهرا: أهلي؛ تلامذتي؛ شمس؛ مينة؛ السيد رفيق بيديه العفنتين؛ سعاد ودامية؛ السيد «مطر»! كم هؤلاء؟ واحد.. اثنان.. ثلاثة.. خمسة.. سبعة! يا إلهي.. كل ما يصدر مني من أفكار وأعمال ونوايا فهو مردود إلي! سوف ينتقم الله لكل هؤلاء؛ ورغم أني لم أفعل شيئا سيئا؛ لكن هكذا.. هنا أقف وأنهض لأتقيأ كعك «دامية» المحروق من جديد.

كان نومي عجيبا وخفيفا؛ بل في أوقات كثيرة لم يكن نوما فعلا؛ كان مجرد إغفاءات واعية؛ أو بعضه كان رؤى عجيبة كرؤية الباخرة

في الحلم وقديس يهديني «الإنجيل» لأقول له هذا كلام الله ثم أنصرف لأعود للبحث عن غرفة أنام فيها داخل الباخرة؛ يجدني رجل وسيم ويقول لي بالأخير: هذه غرفتك.. هي صغيرة ولكنها على مقاسك. ثم أستيقظ محلقة في السقف.. أو أحيانا أتحدث مطولا مع جدتي التي تطعم عصافيرها بالكسكس البائت؛ وفي أحايين أخرى كنت أراني صغيرة جدا أمام أجساد ضخمة؛ ثم دائما ما أصرخ ليلا.. لي نوم يعذبني؛ أنهض بعدها في الأغلب لأقرأ بعضا من الآيات ثم كتابا فلسفيا أضعه بالأغلب فوق رأسي.

هناك قناعة أن الليل يجلب البؤس؛ لا يمكنك أبدا أن تراني باسمة بعد مغرب الشمس؛ ولو على قبيل الصدفة؛ ولو قرأت نكتة ساخرة.. كان شيئا غريبا مستحيلا علي؛ ولكن هذه الليلة لن تنتهي على ما يبدو.. وبينما أنا في غرابتي المعهودة أسمع اصطفاف الأرجل بباب البيت؛ دقت يد واحدة الباب.. في الحقيقة كان من الصعب أن أصدق أن أحدا ما قد جاء إلي؛ إنها التاسعة مساء والليل في أشد حلكته؛ والقرية غارقة في سباتها المبكر؛ اعتقدت أن ثمة من خطأ في الموضوع؛ وأجلت الجواب بصوتي وقول «من» حتى المرة الثانية؛ وبالفعل كان هناك من مرة ثانية؛ ودقت اليد الباب هذه المرة بشيء من الإصرار والمثابرة وهنا توجب علي أن أتساءل: من بالباب؟ قلت بذعر مخفي بسؤال.

قالت: نحن.

بدا لي الصوت مألوفا: ثم كررت من نحن؟

-أستاذة نحن تلامذتك!

لم تكن هذه أمي! قلت في نفسي بعد زفرة متقطعة: تلامذتي؟

دنـوت مـن البـاب محاولـة التأكـد مـن الأصـوات الرقيقـة؛ ثـم أخـيرا عزمـت فتـح البـاب؛ كان هنـاك «وداد» «حنـين» و»عبـدالله» فـ «وصـال» فـ «المهـدي» حـتى «عزيـز» المشـاغب جـدا كان هنـا أمـام البـاب.

-ما الذي جاء بكم؟ قلت.

-سنشـتاقك يـا أسـتاذة.. ثـم حضنـني الجميـع.. الجميـع بـلا اسـتثناء.. ثـم مـن الـضروري أن تكـون هنـاك مـرة أولى للأشـياء المختلفـة بحيـاتي؛ في ذلـك الوقـت بالضبـط.. في ذلـك المسـاء؛ كانـت المـرة الأولى الـتي سأبتسـم فيهـا ليـلا وأبـكي في ذات الآن.

***

الجمعة ما قبل السبت..

تقابلـت مـع زمـلائي في مكتـب الإدارة وجـرى الحديـث مجـرى عاديـا؛ كانـت تلـك المـرة الوحيـدة الـتي سـمعت فيهـا المديـر يثـني عـلى مثابـرتي في العمـل؛ وقـد كان بعـض الزمـلاء لا يسـتمعون إلى خطبـة السـيد رفيـق الحنونـة؛ أغلبهـم كان يطـل عـلى صحـن الحلوى الضخـم الـذي وضـع بأناقـة على منضـدة المكتـب الأرزيـة؛ بعضهم الآخـر كان غارقـا في حلمـه اللذيـذ؛ والسـيدات الآنسـات يوشوشـن بصـوت هامـس وقـد يكـون حديثهـن غالبـا عـن الأولاد الذيـن مرضـوا بالـزكام وعـن وصفـة «كيـك الخمـس دقائـق» الـذي لـم ينضـج بتاتـا وكان سـبب خصـام شـنيع بينهـا وبـين زوجهـا المعلـم «سي احمـد»

بمدرسة «ابن زيدون».. كان مديري شبه شاحب ويتعرق مستجيبا لانفعالات حقيقية مع رحيلي؛ وقد كان يعد في خلقي الحميد ويصف نبل تدخلاتي في مناهضة العنف بالمؤسسات التعليمية؛ وعن حملات التوعية التي كنت أقوم بها في صفوف الطلبة فيما يخص التربية الجنسية وما طالني منها من سوء فهم! وأنا عن نفسي كنت أستمع إليه كأني أكتشفني لأول مرة! لقد نسيت بشكل قطعي هذه الإنجازات التي لا أحسبها قط إلا في نطاق «الواجب المهني»؛ وربما لم أعتد في حياتي معنى للامتنان والشكر وكنت أظن أني سبب للمصائب فقط.. فيما البقية كانوا ينتظرون الكلمة الختامية ليوزع بعدها «أبو احمد» علينا كؤوس الشاي المعد خصيصا لهذه المناسبة الأليمة بالزعفران الحر القادم من «تاليوين» وكعك اشتروه من سوق يوم الاثنين الفارط! نفسه ذاك الكعك الذي يبتسم لك من داخل كيس بلاستيكي أزرق؛ يسلم عليه الناموس والذباب والغبار وعرق الباعة المتجولين.. بالإضافة إلى أنه دون تاريخ انتهاء الصلاحية أو لربما تنتهي صلاحيته بمجرد مضغه وبلعه؛ وهو كعك خطير وغير مكلف؛ يعجن بالزيت والسكر والماء ويضعه الحلواني المجهول على شكل دوائر غريبة المعنى.. فقط؛ نحصل على كعك بسيط بدل كعك الخمس دقائق الذي لم ينضج للأستاذة لطيفة أستاذة الاجتماعيات والتاريخ والتربية على المواطنة!

«وسنفقد مؤطرة وأستاذة مبدعة وإنسانة في كل شيء؛ وأتمنى لها حظا وفيرا في ثانوية «السيدة الحرة» بمدينة «شفشاون». وهنا صفق الجميع بلا استثناء متوجهين سربا سربا حيث كعك سوق «الاثنين»؛ وفرقت كؤوس الشاي بالزعفران الحر الأصيل؛ وقبل

أن يرحل الجميع ونعود إلى أقسامنا؛ أمسك «المطر» الكلمة من مدير المؤسسة وهنا بالضبط حملقت فيه جيدا محذرة إياه بإيماءة بسيطة من قول حماقة ما.. وضعت يدي على قلبي تحسبا لسماع ما لم أسمعه منذ عشر سنوات بلا انقطاع؛ سكت الجميع بالرغم من انهماكهم في مضغ الكعك:

-سيدتي الجميلة؛ الفيلسوفة المشاكسة؛ الهاربة من عالم عطارد والقمر؛ زميلتي التي لا تحدثنا كثيرا ولا تسلم علينا بيديها خوفا من الجراثيم والبكتيريا؛ نحن نقدر العشر سنوات التي مرت بسرعة الضوء؛ برغم حديثك المقتضب معنا؛ وانعزالك التام عنا؛ احترمناك دائما وقدرنا ذلك وكنا في أحايين نسخر من طباعك غير المألوفة؛ ولكنك دائما ما أبنتِ عن صفاء القلب؛ مثل شجرة أركان التي تحبينها وتفضلين دائما الجلوس تحتها في أوقات فراغك؛ أحببنا أن نقدم لك تذكارا بسيطا لا يليق بك؛ ولكنها هدية بسيطة عربون حب وود دائم منا نحن العاملين بالمؤسسة من حارس ومدير وحارس عام ومكلف بالمكتبة وأساتذة كل من منبره يتمنى لك التوفيق الكامل بالمؤسسة الجديدة».

ثم قدم لي «أبو أحمد» بالنيابة عن الأساتذة تذكارا جميلا من فضة على شكل شجرة «أركان».. وكانت التفاتة عظيمة حقا؛ تساقطت حينها دمعة صادقة للعرفان والامتنان العميق رغم الاختلافات المتباينة؛ حتى أنت أيها «المطر» لم تشأ إلا أن تضع فداحة رفضي لك بطيبة ونبل حقيقيين! أين أختفي من هذه المعضلات التي أورط فيها نفسي؟

في المساء فتحت حقيبتي الصغيرة التي سأصطحب معي؛

أضفت إلى ورقة طلاقي والمعقم والفوطة شجرة الأركان الصغيرة؛ كنت أشم فيها عطر «المطر» بعدما فقد كل آماله في ربط ولو خيط صغير من الصداقة؛ كان أقوى مني بمليون مرة؛ متسامحا وشهما وهو يتلو علي تلك الكلمات المفعمة بالنبل؛ لا أجد وصفا آخر غير أنه كان شهما بما يكفي ليقف ويعترف اعترافا لطيفا؛ أنا على يقين بأن الفكرة فكرته؛ وأنه صب على التذكار قارورة عطره كلها كآخر ورقة يناصيب يلعبها فقير الموظفين الحالم؛ لعل قلبي يرق فيعطي فرصة واحدة وأخيرة؛ أي فرصة هذه قد نغتنمها قبل الرحيل الوشيك؟ القضية أكبر من أن تكون «مطرا» يبلل الأرض اليابسة لتتفجر خضرة؛ القضية واقع أكثر من حلم؛ فأنت لا تعرفني! لا تعرف أحزاني الخالدة؛ لا تعرف جبني ولا خوفي الأزلي؛ لا تعرف أني امرأة لا تنام؛ تحبني هكذا بلا ضمانات! بلا أن تعرف أني «دجاجة بكمونها»! أي حماقة هذه أيها «المطر»، أو أن «جون جاك روسو» وأشعار «بول ايلويار» وتاريخ عصر الأنوار الفرنسي قد أكلا رأسك.. أنا آسفة؛ قلتها لك مرارا بعينيّ.. بحمرة وجنتي حين تتبعني سيرا مساء؛ قلتها حين أشيح بوجهي عنك في اجتماعات المؤسسة؛ قلتها في غير ذي مناسبة وبأشكال متعددة؛ ولكني لست مستعدة لهذا الحب الكبير منك.. عشر سنوات وأنت تستحملني بلا كلل ولا ملل؛ وتستمد قوتك من أكبر جبانة على سطح هذا الكوكب الضيق بي؛ عشر سنوات وأنت مصر وأنت تعلمني كل يوم قيمة أن نعيش على هوى من نحب.

حملتُ الكراتين في مساء حزين أخير؛ لم تنم مينة؛ ولا زوجها إبراهيم ولا شروق ولا شمس؛ ولا حتى أختها لطيفة التي قدمت

مـن إقليـم الحـوز لتشـكل الفريـق المتجانـس لعجـن الخبـيزات السـاخنات؛ كانـت العائلـة جالسـة في أسى بـاد عـلى الوجـوه دخلـت البـاب وقلـت:

-حـتى مسـاؤكم حزيـن؟ كنـت أظنـني أني الوحيـدة الـتي تحـس ببشـاعة الليـل.

جاوبني إبراهيم: نحن حزانى على رحيلك.

-ولكـن لـم نتفـق هكـذا! منـذ أسـبوع كامـل ونحـن نتحـدث بخصـوص هـذا الموضـوع وبـأن الرحيـل شيء عـادي في الحيـاة ولـو أني لـم أفضـل هـذه المـرة الهـروب كمـا فعلـت ببيـتِ...

هنـا قاطعتـني مينـة بصرخـة: لا؛ نحـن لسـنا أهلـك ولكننـا لـم نحرمـك مـن الحـب والاهتمـام؛ منـذ عـشر سـنوات وأنـت ابنـة لي؛ كـم مـرة عاونتنـا في سـداد فواتـير المـاء والكهربـاء؟ وكـم مـرة...

-لا يـا مينـة عـار عليـك أن تقـولي هـذا الـكلام؛ أنـت أمـي وأخـت عزيـزة ولا يجـدر بـك قـول مـا تقولينـه الآن ثـم مـا دخـل الحـب بالحـزن.. هـا أخبريـني مـا دخـل هـذا بـذاك؟ لـم تخلطـين الأمـور يـا مينـة ويـا ابراهيـم تحـدث مـع زوجتـك أنـت سـيد العاقلـين! ثـم أنـا هنـا مـن أجـل شـمس.. أنـا أعـين شمسـا وريـثي الشرعـي ووصيـا عـن كل الممتلـكات النفيسـة الـتي أملـك.

هنـا ضحكـت مينـة ولطيفـة وتخيـل ابراهيـم أني سـأهبه مـال قـارون؛ خصوصـا وأن الإشـاعات عـن الأسـاتذة في مجـال الادخـار والبخـل أزليـة وعتيـدة قالـت مينـة: أي ممتلـكات يـا حمقـاء؟

-كرتـون الكتـب.. المكتـب والكـرسي والزربيـة الصغـيرة ضعيهـم في غرفـة شـمس؛ وكرتـون للتحـف الصغـيرة النـادرة لـه أيضـا؛ أمـا شروق

فيحـق لهـا كرتـون الدباديـب الملونـة.

صاحـت شروق «هيييييـه».. ثـم شـمس لـم ينبـس ببنـت شـفة؛ كنـا جميعـا ننتظـر ردة فعلـه.. سـلمت عـلى الجميـع بحضـن عميـق وحـق؛ سرت بمفاصـلي حـرارة هادئـة ويقـين بـأن الغـد آت لأنـه أجمـل؛ تلـت عـلي مينـة الوصايـا العـشر للحـرص والسـلامة مـن أولاد الحـرام أينمـا كانـوا؛ وكان شـمس متأكـدا مـن موقفـه؛ رافضـا للسـلام أو للتحيـة أو لأن يقـول شـيئا.. احترمـت هـذا الولـد الفريـد وقلـتُ لـه أنـك مهمـا فعلـت سـتظل وريثـا يسـتحق تلـك التحـف البسـيطة وأني عـلى يقـين بأنهـا بـين أيـاد أمينـة.

أقفلـتُ البـاب بحـزن أفظـع ممـا تركتـه فـوق بشـقتي؛ كـم كان شـمس قاسـيا.. إنهـا حارقـة عندمـا نقـترب.. إنهـا بـاردة.. حـين نبتعـد.

***

لـم أنـم.. كان أكيـدا؛ تداخلـت الحكايـات.. صـورة المطـر الأخـيرة؛ أبـا امبـارك الراعـي الصباحـي بمعيزاتـه الصغـيرة الـتي تشـذب الأركانة الصامـدة؛ شـمس الـذي لـم يلتفـت إلي؛ حملـتُ هـذه اللوحـات معـي.. السـاعة السادسـة صباحـا نحـو مدينـة أغاديـر بالتاكـسي؛ بعدهـا سـأجد الحافلـة بانتظـاري نحـو شفشـاون.

وداعـا يـا عـشر سـنوات؛ عمـرا هنـا بـين جبـال تاجكالـت الأبيـة؛ وداعـا أيتهـا القريـة الصغـيرة؛ وداعـا يـا شـجيرات أركان العظيمـة؛ وداعـا أيهـا البـرد القـر والصيـف الحـر؛ وداعـا للملـل الفظيـع؛ وداعـا أيهـا الفـراغ القاتـل؛ للقمـر الحزيـن الـذي يطـل مـن نافـذتي؛ وداعـا

شـقتي الصغـيرة؛ سـلاما لصاحبـك العربيـد.. سـلاما لروحـك أيتهـا القبائـل الأمازيغيـة العزيـزة؛ أيهـا الفريـدون الطيبـون الكرمـاء.. وداعـا أيهـا الجنـوب الرحـب ذو القلـب العسـلي.

-٦-

أمر محزن ألا نتمكن من التفاعل بين البشر؛ وخصوصا هؤلاء الذين لم نرغب يوما في سماعهم أو إعطائهم فرصة لذلك؛ والذنب ليس ذنبك ستيفان.. حتى وأنك حاولت كثيرا وجاهدت ضدا في الطبيعة واعتبرت نفسك مريضا في طريقه للعلاج لتصح؛ لكن ليس بمقدورك تحريك أصبع؛ أو فعل تأشيرة صغيرة كدليل على أنك هنا حي ويقظ؛ أنت تكاد لا تشعر بك؛ شعور محزن وبائس ألا تشعر بجسدك؛ أن يتخلى عنك جسدك؛ أفزعتك الفكرة؛ ولكن لمن ستقول ذلك؟ أي لغة هذه التي ستستطيع أن توصل بها للعالم المحيط بك أنك هنا؟ ألم تكن هناك وتواريت عنهم؟ أم أن الأمر قد اختلف الآن؟ أنت مرعوب.. أعرف أنك قد خفت كثيرا؛ لم يظل سواك بين وبين؛ بلا وساطة جسد؛ أنت تحبك وتغلق عليك نفسك؛ فلم خفت؟ خفت من أن تواجه وتسمع دون أن تلتهي بفكرة أخرى؛ أو خفت أن تسمع للآخر؛ للغرباء الذين لم تكن تستلطفهم؛ خفت من سماع أصواتهم؛ أصواتهم تجلب المشاعر وأنت لا تستطيع أن تعبر الآن ولو بصرخة؛ لا تستطيع أن تعبر ولو بقبلة؛ لا تستطيع أن تريهم أنك هنا في ركن مرعب ومظلم؛ وأنك لا تخاف من الجلوس وحدك بقدر ما أن فكرة الخضوع كانت لديك شبه مستحيلة.

الآن مجبر أنت أن تسمع وتنصت وتصغي لكل شيء.. لأدنى

صـوت صغـير قـادم مـن الردهـة القريبـة مـن بـاب الإنعـاش؛ لأنامـل الممرضـة الـتي تحقنـك كل سـاعة بمصـل غـذائي؛ لصـوت مـرور المصـل الغـذائي مـن الأنبـوب المتـدلي أعـلى السريـر؛ لصـوت صريـر أرجـل الأسرة المتحركـة للمـرضى؛ أصـوات الآلات المخيفـة بوتيرتهـا الثابتـة؛ بعـد مـرور أسـبوع صرت قـادرا عـلى التميـيز بـين أصـوات الممرضـين؛ دك. جـاك ذي الصـوت الرخيـم؛ ينطـق حـرف «غ» بغرغـرة ماتعـة في الحنجـرة؛ مثـل «إديـت بيـاف» وكأغنيتهـا الـتي تحـب: «la foule» «الزحـام»

Je revois la ville en fête et en délire
Suffoquant sous le soleil et sous la joie
Et j'entends dans la musique les cris, les rires
Qui éclatent et rebondissent autour de moi
Et perdue parmi ces gens qui me bousculent
Étourdie, désemparée, je reste là
Quand soudain, je me retourne, il se recule
Et la foule vient me jeter entre ses bras

أرى المدينة مجددا في احتفال وهذيان
تختنق بحرارة الشمس وبالبهجة..
وأسمع داخل الموسيقى صرخات وضحكات
تنفجر وتتواثب من حولي..
وأضيع مع هؤلاء الذين يدفعونني بقوة
مندهشة.. منذهلة؛ أظل هنا..

ثم فجأة أستدير؛ فيتراجع

حيث الزحام يرمني بين يديه

وتبتسم في أعماقك حين تتذكر أنك كنت ترقص على نغماتها مثل متصوف؛ تترنح وتترنح مائلا مع الموسيقى؛ مثل معانيها تدخل في حلقة مع النغم غير آبه بالكلمات ولا بالمعاني؛ شيء واحد يتكرر في مسامعك كلمة «الزحام» كأنك المزدحم بك.. الضاج بعوالمك وبأحاديثك الخاصة.

هو أسبوع فقط؛ جعلك تقارع أصوات الجميع؛ وتلعب بها مثل أراجوزي متمكن؛ تستمتع بمخارج الحروف القادمة؛ بحركة اللسان وبالجمل المنطوقة؛ صرت تركز -غير مخير هذه المرة- على السماع؛ مجبور على تخيل الصوت مع قسمات الوجه؛ تخمن ما إذا كانت الممرضة «كاترين» فعلا ضخمة؛ إنها تصدر صوت تنفس مرعب؛ صوت ناعورة صدئة وقديمة؛ تقول كاترين دائما عندما تفتح غرفتك: «يا إلهي خلصنا من الشرور.. آمين»؛ يدها دافئة دائما ورخوة كحلواء المارشميلو الرطبة؛ تحقنك وترقب دقات نبضك وحركاتك تقول كاترين يائسة في كل يوم: «ستيفان هل تسمعني؟ هل أنت حقا حي؟ أثبت ذلك وكن قويا!» ولكنك تسمعها بلا أدنى قدرة على إظهار ذلك؛ إنك كـ «ميت» لولا دقات القلب؛ تود لو تحرك شيئا منك؛ أصبعا صغيرا مثلا؛ أن تصدر صوتا عميقا من الألم والحزن بك؛ ولكن لا شيء.. تود أن تخبرها أنك خائف ومرعوب وبألا تذهب.. ولكن لا شيء من هذا يحصل لك.. فتسدل «كاترين» ستائر الغرفة الرمادية؛ وسرعان ما تختفي أشعة النور من عينيك؛ تعلق ورقة طبية على إطار السرير الحديدي؛ تعيد وضع الغطاء الذي لم

يتحرك إلى أي اتجاه؛ ثم تلقي عليك التحية وتقول من جديد «يا إلهي خلصنا من الشرور.. آمين» فتذهب.

هكذا تعرف الأيام؛ بمرور كاترين من غرفتك تعرف أن يوما جديدا ما قد حل؛ ثم يأتي الطبيب «فارس» بلكنته المشرقية؛ تتخيله طويلا وأسمر بعينين حادتين وشعر أبيض غزير؛ برجل عرجاء؛ بصوت قدمه الواحدة التي تنخفض ثم تعلو عند الارتفاع؛ يفتح الباب بعزم؛ ثم يتقدم دائما نحو عينيك؛ يفتحهما فتكاد تراه قليلا؛ أسمر بشعر كثيف يملأه الشيب؛ لكن عينيك لا تدلان على معالم وعي؛ يمرر أصابعه التي تلتقطها في هنيهة وحيدة يتيمة؛ ليظل نظرك في مكانه؛ لا ينظر بل ينتحب بلا دموع..

يمسك بيديك؛ يحاول أن يجد فيك شيئا من معالم اليقظة؛ يمرر يده على عضلات بطنك؛ يائسا يبحث عن جديد حل بك؛ لكنك جامد متصلب كمقصلة؛ يحدث الدكتور فارس همهمات غير مفهومة؛ ولكن لحنها غير فاقد للأمل؛ يقترب منك ويقول لك: «أنا على يقين تام بأنك تسمعني؛ ولعل يوما ما ستتمكن من إثبات ذلك للجميع».

تود معانقته؛ لو أنك غير منشغل بذاتك؛ لو كان بإمكانك الآن ذلك لما ترددت فعلا في عناقه؛ لأنه الوحيد الذي يأتي إليك بيقين حقيقي؛ يقين وهم عميق داخلي؛ لا يحتاج لأدلة بل يحتاج إلى إيمان.

فتأتي «إيميلي» كل ساعة؛ تعرفها بصوت العلكة وبحركيتها الزائدة والمتحمسة؛ تفتح الغرفة بهدوء كأنها هنا لتختبئ؛ ثم غالبا ما تتحدث في الهاتف النقال بصوت هامس؛ ثم هذه المرة

لـم يكـن عتابهـا عتابـا عاديـا بـل كان صوتهـا يرجـف وبـدا كأنهـا عـلى وشـك الاسـتعداد لبـكاء:

_ آلـو؛ لمـاذا لا تجيـب عـلى رسـائلي؟ أنـت لا تهتـم بـكل مـا يحصـل لي أنـا لسـت بخـير إطلاقـا.. تصمـت قليـلا ثـم تسـتطرد: لا أنـت لا تكـثرت إلي وهـذه العلاقـة توتـرني جـدا أنـا لا أسـتطيع التركـيز في عمـلي «جوناتـان».. ثـم تبـكي: لا أرجـوك لا تقـل أنـك تفعـل أكـثر ممـا يجـب أن يُفعـل؛ آلـو لمـاذا لا تـرد؟ حقـا ليـس لديـك مـن جـواب أعـرف ذلـك أعـرف؛ أنـت تتلاعـب بمشـاعري وأنـا لا أسـتطيع الوثـوق بـك مجـددا؛ سـأنهي العلاقـة جوناتـان؛ اكتفيـت منـك. ثـم تغلـق الخـط؛ وتلحـظ أنهـا قـد جلسـت أسـفل عـلى الأرض؛ بكـت كثـيرا؛ ثـم مسـحت دموعهـا وغـادرت الغرفـة.

يحـدث كثـيرا أن تـأتي إيميـلي إليـك دون أن تفعل شـيئا واضحا؛ إنها غرفـة تشـبه المخـادع السريـة الـتي لا يزورهـا أحـد بالعـادة؛ غرفتـك المكتـوب عليهـا «ممنـوع الزيـارة» إلا في أوقـات معينـة ومحـددة؛ لذلـك هـي غـرف آمنـة مـن تلصـص الـزوار والممرضـين؛ فالأسـوياء أقصـد نحـن نخـاف مواجهـة النـاس؛ أن نقـول لهـم بصـوت عـار ومكشـوف أننـا لا نريـد التحـدث معهـم أو ربـط مشـاعر معهـم؛ يتخلـف الرجـال عـن مواعيـد فقـط لـكي يتهربـوا مـن قـول «أنـا آسـف لا أسـتطيع!»، بينمـا ترتـدي النسـاء أقنعـة ملونـة تسـتعطف بهـا بـؤس الأقـدار.. إننـا نبتلـع أنفسـنا كشـجر يابـس؛ نملـك أضخـم معاجـم اللغـات؛ نحفـظ الـكلام عـن ظهـر قلـب؛ نعـرف أسـاليب الاسـتخدام والتحايـل؛ ومـع ذلـك أتعـرف؟ نحـن نفضـل قـول كل ذلـك في الظـلام الدامـس!

لا توجـد ولا كلمـة واحـدة؛ ولا أي كلمـة ولا حـتى أكثرهـا شـفافية

يمكـن أن نـبرر بهـا «قـول الحقيقـة في غيـاب المعنيـين بالأمـر». حـتى عنـد المـوت فـإن مـن المفـروض أن نكـون قـد اسـتطعنا ولـو لمـرة واحـدة الاكتفـاء بلحظـة حقيقـة صادقـة؛ نحـن نسـتحق كبـشر لحظـات الحقيقـة ولـو فضـة؛ إنهـا تحمـل الكثـير مـن السـمو والتسـامي؛ وجـوه النـاس لحظـات صراحـة هـي الأجمـل عـلى الإطـلاق.

***

إن الصراحـة الحيـة وليسـت المغيبـة؛ كمـا تعلـم؛ تسـتوطن الـروح؛ تـأتي مـرات في الحيـاة وأحيانـا لا تـأتي؛ وحـين تتقابـل الوجـوه الحزينـة عينـا لعـين؛ تقـف الكلمـات عنـد بـاب القلـب؛ وحـين تقـال كمـا هـي؛ دون تجميـل أو محاولـة تنميـق فإنهـا تمـشي بـرأس مرفـوع للقلـب؛ لذلـك فأغلبنـا ودون افصـاح نحـب الصراحـة؛ نحـب الـكلام الخـام العـادل؛ الـذي لا يحتمـل التآويـل ولا الأقاويـل؛ نقيـا صافيـا ولـو بفظاظتـه ولـو بثقلـه المحـزن نحبـه؛ ونحـن كذلـك نتـوق أن نـرى بعضـا مـن العدالـة في مـرائي البـشر..

أظنـك بعـد ليلتـك الأولى بالمشـفى؛ بسريـرك المرتبـط بعشريـن آلـة أو أكـثر؛ قـد كنـت تسـمع كل شيء؛ حـتى جَلَبَـة الآلات الـتي تبقيـك هنـا؛ تسـمع ألمـك القـادم مـن رأسـك المهشـم؛ وتسـمع تأوهاتـك؛ أوجاعـك ملـك لـك؛ بـكاؤك ملـك لـك؛ شـقاؤك أخـرس؛ دمعـك موجـود غـير أنـه يتدفـق كالحـرارة؛ يـسري كالسـم؛ بـركان عميـق يتصاعـد مـن عالمـك الآخـر؛ أنـت لسـت معنـا أعلـم ذلـك؛ لسـت مـع أحـد؛ لسـت معـك؛ أنـت هنـا بشـكل مـا تسـمع وتـدرك تمـام الإدراك أن لا أحـد يعـرف ذلـك عـدا بعـض الدكاتـرة الذيـن

يؤمنـون بالغيبوبـة الواعيـة؛ وينتظـرون منـك أمـلا صغـيرا يعلقـون عليـه تفـوق الطـب عـلى المعجـزة.

وتسربـت الأيـام تباعـا تحمـل إليـك في كل مـرة موعـدا مـع مـن عشـت معهـم؛ موعـدا لسـماع الجهـة المقابلـة حـتى وإن لـم يكـن لديـك رغبـة بهـذه الحيـاة لأن تسـمع إليهـم؛ أن تسـمع إلى شـكواهم وحواراتهـم؛ اعترافاتهـم أوتطلعاتهـم؛ دون أن تديـر رأسـك بـلا اكـتراث لمـا يحملونـه إليـك مـن كلمـات؛ مـن عتـاب أو سـخرية؛ مـن حـب أو كـره؛ كان لزامـا عليـك أن تصغـي دون حـق في الـرد.

والدتك:

(بصـوت عصـبي مائـل للحـزن) يالـك مـن طفـل عنيـد؛ ولـد عنيـد؛ رجـل عنيـد؛ عذبتـني كثـيرا؛ كأنـك كنـت جـزاء لي عـن ذنـب اقترفتـه؛ إنهـا جينـات أبيـك؛ هـذا مـا جنيتـه مـن أصلـك العـربي؛ أتظـن أني عشـت سـعيدة؟ هـل حملـي بـك كان فرحـا؟ كان كل شيء سريعـا؛ كل الجـيران قـد حذرونـني مـن الـزواج بالجنـود القادمـين مـن بـلاد المغـرب؛ كلهـم بـلا اسـتثناء؛ ليسـوا «كلاس» وليسـوا ذوي قيمـة إطلاقـا؛ أنـا مـن أعطـاه قيمـة الحداثـة بـدل حيـاة البـدو الـتي أتى بها؛ كان الـزواج بـه غلطـة فظيعـة ولكنـني تجـاوزت الأمـر الآن؛ صحيـح أنـا غـير راضيـة تمـام الـرضى عمـا كنـت أن أكـون عليـه؛ عـلى الأقـل لـن يكـون لي طفـل معـاق كأنـت؛ لقـد عذبتـني يـا سـتيفان؛ عذبتـني بـكل أشـكال العـذاب الممكنـة؛ لقـد كنـت تـصرخ طـوال الوقـت؛ وظللـت طفـلا صعـب الفهـم؛ هـل تسـتطيع أن تفهـم كيـف لأم ألا تنـام وألا تـأكل وأن تسـتقبل صراخـك المزعـج طـوال الوقـت؟ لقـد حرمـت مـن عمـلي بسـببك؛ أهملـت أحلامـي ونفسـي بسـببك أنـت؛ والمؤلـم حقـا أن بقـائي بالجـبر معـك لـم يـأت بنتيجـة..

(صـوت أقـرب للبـكاء) أنـت تكرهـني؛ وأنـت جعلتـني إنسـانة غـير صالحـة لتكـون أمـا؛ أنـا أحيانـا كنـت أكرهـك؛ أكـره تمـردك وحركيتـك الزائـدة؛ كرهتـك حـين جعلتـني فـردا غـير اجتماعـي يشـبهك؛ شـخصا يخـاف ألسـن وأعـين الجـيران والعائلـة.. في كل مناسـبة؛ أتلقـى همـس المدعويـن وانتقاداتهـم عـلى همجيتـك ومرضـك الـذي لـم أفهمـه؛ أنـت متوحـد ومـا ذنبنـا نحـن يـا سـتيفان؟ مـا ذنـب إخوتـك حـين كنـت تحقـد عليهـم؛ تحرمهـم مـن ألعابـك ومـن اهتمامـك ومنـك؟ (ترجـع لهدوئهـا الأول؛ تأخـذ نفسـا عميقـا) أنـا أعـرف أنـك مقبـل عـلى المـوت؛ وأنـا بكيـت -كمـا العـادة أن تبـكي الأمهـات عـلى مـوت أولادهـا- لكـني هنـا اليـوم قـررت أن أقـول لـك كل هـذا؛ والمفـروض أنـك لا تسـمعني؛ ولـن تسـمعني؛ أنـت ميـت في نظـري.. هـذا نـوع مـن الحـب؛ نعـم هـذا نـوع مـن الحـب؛ حـب عقـلاني مريـض مقهـور؛ أريـدك أن تمـوت لتنتهـي مـن عذاباتـك؛ ستسـتريح يـا عزيـزي في المـوت؛ ولنـا لقـاء هنـاك؛ سـتكون حينهـا طفـلا عاديـا وسـأكون حينهـا أمـا طبيعيـة.

يانيس:

أبي هـل تسـمعني؟ اليـوم حدثتنـا الأسـتاذة عـن السـماء؛ وأخـبرت جميـع أصدقـائي أنـك كنـت تصطحبـني إلى الحديقـة لنشـاهد السـماء؛ قـال جـاك إن السـماء لا شيء؛ السـماء ليسـت لا شيء؛ أنـا أخبرتهـم أنهـا بالونـة زرقـاء تلعـب فيهـا الطيـور والسـحب؛ اشـتقت إليـك يـا أبي.

والدتك في يوم آخر:

كيـف حالـك اليـوم؟ ألـم تمـت؟ عنيـد حـتى في موتـك.. اليـوم جـاءت «لوسـيندا»؛ أتتذكرهـا؟ مرافقتـك في الطفولـة قدمـت تسـأل

عنك اليوم بالبيت؛ لقد كبرت وأصبحت امرأة أربعينية؛ عرفت منها أنها لم تتوفق في زواجها بسبب عقمها؛ حقيقة أنا سعيدة لأجل سماع هذا؛ العقم أرحم مليون مرة من أن يكون ببيتك طفل متوحد.. مضطرب معاق.. لقد حزنتْ كثيرا لأجلك وستأتي لزيارتك إن لم تمت قبل اليوم؛ لقد قلت لها ذلك؛ نحن ننتظر أن يُفرج عن جثتك ولترقد بسلام بقبرك؛ (ترفع رأسها إلى الأعلى ثم تمسك بأصابعك وتتلمسها بشيء من الحنان) أنا لا أنسى يوم تركتك أمام الساعة الحائطية الكبيرة تعد الأرقام كما تحب؛ خرجت إلى حديقة المنزل وانشغلت أعلق فوق حبل الغسيل الملابس؛ فجأة اصطفق الباب تاركا إياي بالخارج؛ وأنت وأخوك الصغير بالغرفة؛ المفاتيح كانت بالباب من الداخل؛ دون جدوى حاولت دق الباب؛ جربت أن أنده باسمك عاليا؛ أعدت الصراخ وكنت منشغلا بعد الأرقام على الساعة؛ وأخوك «جاك» كان يحاول جذب ابريق الماء الساخن من فوق المطبخ؛ بينما أنت كنت منشغلا بعد الأرقام؛ ولم تلتفت إلي؛ كان وجهي محتقنا حزينا؛ وكاد قلبي يتمزق لرؤية أخيك الصغير ملتهيا بجر ابريق الماء الساخن الذي بدت لحظاته قليلة حتى ينسكب فوق رأسه؛ توسلت إليك عبر النافذة أن تفتح لي الباب؛ بكيت وصرخت كثيرا لكنك كنت منشغلا بعد الأرقام بصراخ أعلى من صراخي؛ كنت أتضرع إليك: أرجوك ستيفان افتح لأمك الباب.. أرجوك أخوك سيوقع ابريق الماء الساخن على رأسه؛ ماما انظر إلي أعطني المفتاح من فضلك.. المفتاح هنا وراء الباب ستيفان أرجوك أخوك سيوقع الماء على رأسه.

ووقع ابريق الماء الساخن على جاك؛ ولم تنتبه للكارثة؛

جربت ركل الباب برجلي؛ وكان الجيران أبعد من منزلنا؛ رحت أستغيث بالمارة هناك على شارع «سان كاترين» ودخل الرجلان إلى البيت بعد أن داهما الباب؛ وكنت لا تزال منشغلا بعد الأرقام فيما أخوك قد أحرقته المياه الساخنة؛ ظلت الندوب على وجهه عقدة أبدية وظل المشهد ببالي كلما أبدى الآخرون كلاما مسيئا عن أخيك أحس بغصة ما؛ (تتنهد عميقا ثم تأخذ نفسا) لولا عمليات التجميل لكان أشبه بمصاص الدماء؛ لقد عاش طفولة معقدة بسبب عنادك؛ كنت تكرهه؛ وترفض أن يشاركك غرفتك أو لعبك؛ هذا ليس بمرض يا ستيفان هذه أشياء لا تصدق، لا تصدق على الإطلاق! (تغرس وجهها بصدرك وتبكي مطولا).

جوريس:

صديقي العزيز؛ حقا أنا متأسف لك؛ أحاول أن أستوعب الحدث؛ لقد تركت «آكيمي» بالصين؛ لم أستطع البقاء هناك دون المجيء للاطمئنان عليك؛ لا أعرف إن كنت تسمعني عزيزي «المختلف».. (يبتسم بدمعة على عينيه) أنت قوي يا ستيفان قوي يا أخي؛ أنا لم أعرف شخصا أقوى منك؛ عندما أسمع ما يحاك عنك بين عائلتك أعلم تمام العلم أن هذه الأمكنة لا تناسبك؛ أنت بريء ونقي وأنا واثق أن القدر سينصفك مرة أخرى ليعود صفاؤك بيننا.. يا صديقي؛ نحن لا نتحدث كثيرا؛ ونختلف كثيرا ولكنك ظللت الأقرب إلي وصدقني فأنا بعت لك أغلى شيء لدي لإيماني الشديد بأنك أهل للمصنع؛ ولم تخيب ظني أبدا؛ توليت كل شيء بدقة كأنك مدير محنك؛ أبهرتني منذ الطفولة ولاتزال مبهرا حتى في حياتك.. ستعود إلينا يا صديقي..

عِـدني بذلـك يـا أخـي.

والدك:

(بـرأس حزيـن وصـوت رخو) سـتيفان الغـالي؛ ولدي العزيز يؤسـفني حقيقـة أن أراك هكـذا ممـدا؛ لا نـدري حـتى إن كنـت تسـمعنا أم لا أو أنـك ستسـتمر في المقاومـة أم أنـك ستفشـل؛ ولكـن سـواء هنـا أم هنـاك سـنحبك؛ سـنحبك يـا سـتيفان حـتى وإن كنـت لا تتلمـس هـذا الحـب؛ أمـك تقـول أن مرضـك جينـات مـن عائلتنـا بالسـكيكدة؛ لكننـا لا نعـرف عنهـم شـيئا! وأنـت تعـرف أني منـذ التاسـعة عـشر مـن عمـري جئـت إلى هنـا أخـدم فرنسـا روحـا وجسـدا؛ ولـم أعـد إلى هنـاك؛ لا شيء هنـاك ينتظـرني؛ ولكنـك قـد تشـبه جـدك في عنـاده أو أمـي في عزلتهـا؛ أتذكـر أنهـا كانـت تخـبز لنـا الخـبز وتطهـو المـرق ثـم تدخـل لغرفتهـا بعدهـا؛ لا نراهـا إلا صباحـا.. بـل كانـت تكـره نـور الشـمس وتحجـب عنـا النوافـذ والأبـواب.. هـذا كل مـا أتذكـره عـن أمـي؛ أمـا أمـك فهـي امـرأة جميلـة وتحـب النـور.. الحيـاة رائعـة يـا بـني عليـك فقـط أن تختـار؛ الآن عليـك أن تختـار طريقـا واحـدة أن ترجـع إلينـا مـع احتمـال أن تصلـح هـذه الضربـة عـلى الـرأس سـوء معاملتـك معنـا أو أن تعيـش في سـلام الله إلى الأبـد؛ لطالمـا عرفـت الأشـياء لوحـدك كمـا عرفتهـا أنـا يومـا مـا.. لوحـدي؛ تـاركا كل العالـم ورائي.. أحيانـا مـن الأحسـن أن تبـدأ بدايـة مهمـا كلفتـك مـن حماقـات.. (قبلـة أخـيرة عـلى جبينـك).

يانيس:

- أبي؛ لقـد رسـمت أنـك جالـس تحـت السـماء وكانـت هنـاك عصافـير كثـيرة تجلـس بجانبـك.. أنـا أحبـك وأنتظـر عودتـك إلي.

أمي تقول أنك لن تعود.

(تنهره مابيل على هذا القول): سيعود إلى الجنة يا عزيزي وهذا ليس بالشيء السيئ يا يانيس.

- ألا توجد هنا أيضا جنة؟ أبي سيفضل الجلوس تحت السماء..

مابيل (يانيس بالخارج مع الممرضة):

كنت أفضل ألا أحدثك نهائيا؛ فما الجدوى ستيفان؟ ما جدواه التحدث إلى ميت تتحكم فيه الآلات هل أحدثك ام أحدث الآلات التي بواسطتها الآن «تتنفس»؟ أنت لا تتساءل حتى إن كنت أحبك هل كنت أعنيها فعلا؟ هل تعرف أنني لم أعنها قط؟ وأنني تزوجتك من أجل نقودك؟ لماذا لا تعرف أنك غبي وساذج؟ وزوج بارد لا يغار ولا يعرف إلا نفسه! لقد دخلت هذه اللعبة مع نفسي؛ ولست الوحيدة القادرة على إيذائك.. (تقترب من أذنيه ثم تهمس): بالمناسبة أنا من أرسل السارق المتعمد ليضربك على رأسك ولكنها كانت خطة غير موفقة إطلاقا. (تعيد نبرة صوتها كما أول الحديث): حسنا؛ إنني امرأة تافهة؛ أنا أعني ما أقول لك (تطلق ضحكة ساخرة) ولكنك لن تفهم هذا الشيء؛ لم تفهمه أيضا؛ وأنا أحببت أن أجني من قرف زواجي بك بعضا من الأوروهات التي سيكون بوسعها تعويضي عن الضرر النفسي الذي دخلته بكامل وعيي؛ ولكني لم أستطع أن أحبك بقدر ما استفزني تكوينك كشخص! أنت أصعب من مصطلح «الزواج» بالمناسبة؛ أنت أعقد شخص قابلته بحياتي؛ بل وأدخلتك عالمي لكنني لم أطأ يوما باب أفكارك؛ أنا أعيش مع شخص لا أعرفه؛ رجل غامض ومختبئ في جبة عاداته؛ أنا لم أكن زوجة ولا حبيبة ولا صديقة ولا مرافقة خاصة؛ أنا شخص

حمل يوما بالصدفة ابنا منك.. وحينها أنهيت دوري معك؛ أنا أكرهك أو فلنقل أكره اختياراتي في الحياة عموما؛ ولأنك لا تعرفني أشد المعرفة تورطتَ بي.

جاك:

أخي؛ أنا لا أعرف منك سوى نظرتك الحزينة في كل شيء تتمسك به؛ أعرف تلك النظرة جيدا فهي أعمق من أن تتجاهل؛ إنك أكثر الأشخاص الذين طبعوا حياتي وتركوا عليها وشوما وندوبا قوية؛ هل كان ذنبك أيضا؟ ربما كنت مقتنعا بأننا يمكننا أن نكرهك من أجل تصرفات لم تقصدها مطلقا؛ ربما أقنعنا أنفسنا بأنك شخص شاذ في العائلة؛ شخص مريب يحمل بين عينيه آلاف علامات الاستفهام غير المبررة؛ دون أن تكون مجنونا ولا عاديا؛ تقف في منتصف الأمور تستفزنا جميعا؛ لقد أحرقت نفسي بالماء الساخن ولكنك كنت طفلا كبيرا أيضا؛ ليس من شأنك أن تهتم لتصرفاتي الطائشة؛ القدر يُغير من أقداره حين نكون سيئي الحظ؛ وحتى وإن شحنت أمي رأسنا بالكثير من الخزعبلات عنك؛ كنت أحبك وظللت أحبك إنما لأجل أن تكون مرتاحا سوف نوقع التزاما بشأن موتك؛ أنا مقتنع أيضا بأنك تستحق راحة أبدية على عنائك معنا؛ نظرتك الحزينة؛ على وجهك أيضا اليوم؛ أتمنى أن نريحك منها عما قريبا.. آمين.

نادل المقهى:

أين أنت يا صديقنا الهادئ؟ أعني أين أنت الآن فعلا؟ هل

أنت معنا أم كما كنت دائما في مكان ما بيننا وبينك؟ قد سألتني زوجتي عنك؛ فقلت ربما هو منشغل مرة أخرى بأعماله وعائلته ونفسه؛ فسألت عنك السيد «كريستوف» المحامي الذي كان يبلغني بالحوالة كل شهر؛ قال أنك مرضت منذ ذلك الوقت وأنا متردد في زيارتي إليك؛ أعني لست هنا إلا للاطمئنان عليك؛ وأما موضوع الحوالة الشهرية التي كنت ترسلها لي لترميم بيتنا بالجزائر فإنه قد تمّ؛ أردت أن أخبرك بأن والدتي قد وجدت أخيرا مكانها دون أن يأخذها أخي الأكبر وزوجته لدار المسنين؛ تعرف أنه لا عاداتنا ولا شهامتنا تسمح بذلك؛ ولقد ساعدتني كثيرا؛ ويعلم الله كم أنا مدين لك؛ صدقني حين كنت أضع لك القهوة وسألتني ما هي المرارة؛ جاوبتك بحزن عميق وعفويا قلت لك أن المرارة هي ألا تتمكن من توفير بيت كريم لوالدتي المسنة التي تعيش بالجزائر مهددة بالطرد في أي لحظة من بيت ابنها الأكبر؛ حكيت ذلك وابتسمت؛ ولم تكن عيناك آبهتان لي وقتها؛ وكنت منهمكا في عدّ الأرقام بالطاولة؛ وتعيد كلمات كثيرة؛ وكنت قد نسيت الأمر لولا أن السيد»كريستوف» فاجأني ذات يوم قائلا أن السيد ستيفان سيمنحك دخلا إضافيا كل شهر لكي لا تحس بالمرارة مجددا؛ وأردف: غريب أنا لا أعرف عن أي مرارة تتحدثان! ولكن علي تنفيذ أوامره.

كثيرون يشبهون خلقك النبيل؛ ولكن وحدك لا تعير لذلك اعتبارا؛ حتى أننا لا نعرف إن كنت تعرف ذلك!

ستعود؛ متأكد أنك بريء من الموت.

لوسيندا:

ولدي العزيز! آه كم هي متشنجة ملامحك حتى في راحتك؛

لأنـك تعانـد هـذه الأوقـات بـلا شـك أنـا أعرفـك؛ وأعـرف أنـه لـو خـير إليـك الإفصـاح عـن مشـاعرك لفضلـت السـكوت تمامـا كمـا أنـت عليـه الآن؛ وأعلـم أن عالمـك الـذي تدخـل إليـه عالـم آخـر: ألوانـه لا تشـبهنا؛ نوتـات الأصـوات الـتي تسـمعها غـير التي نسـمعها؛ مذاقـات الأطعمـة؛ طريقـة النظـر إلى الحيـاة برمتهـا مختلفـة وصعـب عـلى الجميـع أن يعـي ذلك؛كنـت طفـلا يصعـب أن ينـسى مـن ذاكـرتي.. (تبتسـم إليـه بحنـان ثـم تمسـك بيديـه) عزيـزي أنـت تسـتحق فرصـة ثانيـة؛ قـاوم وسـتجدك بيننـا؛ أحبـك يـا صغـيري مهمـا كـبرت.

ماريا (أختك):

ليـس عنـدي مـا أخـبرك بـه؛ انتهيـتُ مـن زواجـي الأول سريعـا؛ وأفكـر بمسـك الشركـة وإدارتهـا ريثمـا تمـوت؛ أتمـنى أن تنتهـي سريعـا مـن عذاباتـك.

***

بعد مرور ستة أشهر..

كيـف فكـروا في أمـر سـحب مأخـذ التيـار الكهربـائي مـن الآلات الـتي تعتـني بنومـك الرحيـم وقتلـك فقـط لأنـك آثـرت البقـاء ممـدا بالسريـر؟ لقـد رفـض الأطبـاء كلهـم هـذا الاقـتراح؛ وكان الدكتـور فـارس محقـا بكـون مثـل هاتـه الحـالات تحتـاج صـبرا وإيمانـا بالحياة يفـوق المعتـاد؛ إنهـم قطعـا قـد آمنـوا بأنـك ستسـتجيب للحيـاة

مادامت حالتك مستقرة ولم تزدد سوءا؛ قال د. «فارس» بصوت صارم لأمك المتحايلة على الحزن أنه لم ير في حياته عائلة تسأل عن موعد موت ابنها! «شيء ما في ابنك سيدتي لم نفهمه بعد! لا تقلقي سينجو وسيقوم من سباته؛ إنه يرتاح قليلا من القسوة المحيطة بهذا العالم البائس!».

وكان الدكتور فارس حتما يقصد كل الموقعين حول إمكانية موتك! طبعا زوجتك ووالداك! قاس قول هذا؟ لكن الحقيقة بالطبع لا تحتاج منا أن نضع لها مساحيق؛ لقد كنت حيا تسمع وتعي كل شيء! وبالطبع كنت لا تجد متسعا لقول هذا؛ أو إثبات ميت على أنه حي؛ لقد نهضت من مرقدك على غفلة من الجميع؛ كانت «إيميلي» كما عادتها بالمخدع أقصد غرفتك؛ تتحدث إلى حبيبها جوناتان الذي لم تستطع بالطبع أن تفارقه؛ بل إنهما قد خطبا بعضهما البعض وأنت تعرف كل القصة طيلة هذه الستة أشهر؛ كنت حارسهما السري الأمين؛ وقد مرت برأسك قصصهما المضحكة؛ بل إنك لم تكن تعرف أن هذا يحدث لنا نحن البشر؛ لم تكن تعرف أن مشاعرنا تؤرقنا كما آرقتك؛ لقد كرها بعضهما وتجادلا وتصالحا وتخاصما وتعاندا وتسامحا ثم خطبا بعد هذه المدة الشيقة من الغيبوبة الواعية؛ ولما كانت إيميلي بشعرها الأصفر تحاول تعديل قبعتها الطبية وتتحدث إلى جوناتان حول إمكانية الخروج لمشاهدة فيلم بالسينما الغير ممكنة بعدما كلفها الدكتور جيمس بحراسة مريض غرفة رقم ١٠ بالمساء؛ كنت قد بدأت بتحريك أصابعك اليمنى؛ وفي الحقيقة إيميلي لم تنتبه لذلك وقد كانت منهمكة في شرح وضعية المريض رقم ١٠؛ ولكنك حاولت إصدار صوت

آخـر للفـت انتباههـا؛ صـوت يشـبه أنـين نـاي؛ ثـم تبسـت إيميـلي في مكانهـا وقالـت لجوناتـان:

جوناتـان أعتقـد أن مريـض الغرفـة رقـم ١٠ قـد اسـتيقظ مـن غيبوبتـه!

ربمـا مـت وعـدت! أو كانـت وصلـة غنـاء صامـت بـين فيلمـين مختلفـين؛ لكنـك عـدت مليئـا بالاكتشـافات المذهلـة؛ نعـم عـدت كمعجـزة! قبـل أن يمضـوا ورقـة مغادرتـك مـن الحيـاة؛ قبـل أن يرثـك المتربصـون بـك في حياتـك! قبـل أن يذبـل ابنـك حزنـا عليـك؛ قبـل أن يصنـع لـك القـدر ثقبـا صغـيرا تطـل منـه جـبرا عـلى الحقيقـة الأخـرى؛ الـكلام الآخـر الـذي لـم يقـل أو ذلـك الـذي لـم تعـره اهتمامـا؛ وعـلى أي إيميـلي ظلـت متسـمرة في مكانهـا لثانيـة؛ رمـت بهاتفهـا وانطلقـت تبلـغ الطاقـم بأكملـه عـلى أنـك عـدت واسـتفقت؛ وفتحـت عينيـك قليـلا وعـاد لرموشـك صـوت لا يـكاد يسـمع؛ لكنـه عـلى الأقـل كان مُهمًـا جـدا مهمـا بـدا تافهـا؛ وصـار لوجنتيـك لـون الشـفق؛ ولشـفتيك حركيـة بـين الفتـح والإغـلاق ولكـن بكسـل شـديد؛ ربمـا نسـيت كيـف تحـرك كل هـذه الأشـياء! طبعـا؛ إنهـا لا تنـسى بـل إنهـا تحتـاج وقتـا آخـر لتسـترجع الأعضـاء ذاكـرة الحيـاة!

كان الدكتـور فـارس فرحـا وهـو يسـتقبل مـن إيميـلي خـبر يقظتـك! كانـت السـاعة تـدل عـلى الخامسـة مسـاء؛ بـل بدا عـلى وجـه الطاقم كلـه علامـات الشـفاء مـن يـأس؛ أو كأنـك كنـت تثبـت لهـم أن مـا آمنـوا بـه قـد كان صحيحـا؛ بعـض الصالحـين يعلقـون آمالهـم عـلى الآخريـن؛ حـتى إذا تحقـق مرادهـم انفرجـت أسـاريرهم معهـم؛ الأمـل معـد يـا سـتيفان؛ وحيثمـا اسـتحال تحققـه وزاد النـاس في تشـبثهم بصحـة إيمانـه؛ حـتى إذا نيـل بعـد عنـاء كان وقعـه أشـد

عـلى الجميـع وليـس بذلـك المعنيـون بـه؛ بـل كل مـن فكـر فيـه وانتظـر معنـا مختبئـا غـير فاصـح عـلى أنـه معنـا بشـكل مـا.. ينتظـر!

كان الجنـاح في عادتـه؛ أبيـض وغارقـا في هدوئـه؛ واليـوم أقصـد اليـوم الـذي اسـتيقظت فيـه كان غائمـا ولكـن في لحظـة مـا مـن السـاعة الخامسـة؛ انقشـعت الغيمـات لتخـرج الشـمس مـن صمتهـا هـي أيضـا؛ وحـتى أنـه لـم يبـد جليـا أن السـماء زرقـاء كمـا أحببـت دائمـا؛ إلا أن كاتريـن كانـت تسـتعد بالخـارج للذهـاب إلى منزلهـا؛ وكأنهـا أحسـت بـشيء مـن العطـش؛ فصعـدت بتثاقـل درج المشـفى الجنـاح الأيمـن؛ عسـاها بذلـك تحـرق بعـض الكالوريـات الواجـب أن تنقصهـا قبـل أن تفكـر في الحمـل.. فكـرت كاتريـن أنهـا تريـد أطفـالا أصحـاء! ولكـن مـاذا إذا ولـدت طفـلا مسـتقبلا يعـاني بفعـل الوراثـة مـن مشـكل السـمنة؟ هـل سـترفضه؟ تجنبـت كاتريـن بالفعـل الخـوض في هـذا السـجال العقيـم بينهـا وبـين المسـتقبل؛ وأكملـت صعودهـا للـدرج حـتى تجلـب قـارورة الميـاه مـن مسـتودع الملابـس الخـاص بالممرضـات؛ وكانـت إيميـلي بالصدفـة مـارة هنـاك بخفـة العاملـين صباحـا! مـا الأمـر قالـت كاتريـن؟

–لن تصدقي؛ مريض الغرفة العاشرة استيقظ من غيبوبته!

(بعينين متسعتين) يا له من خبر يا إيميلي! وكيف حاله الآن؟

–إنـه محـاط بالفريـق المـشرف؛ دقـات قلبـه جيـدة وضغطـه ايضـا؛ كل شيء عـلى مـا يـرام؛ لـم نصـدق حقيقـة!

–عائلته؟

–سوف لن يصدقوا بالتأكيد!!

–حريٌ بهم أن يفعلوا.

-٧-

مـن الصعـب أن يتقبـل الآخـرون رهافـتي في وقـت أبـدو فيـه ذكـرا متجـردا مـن الحنـان؛ يبحـث عـن مـأوى هـو نفسـه معيـل نفسـه؛ رب وحدتـه؛ عامـل عـلى رزقـه؛ يـترك عرقـه المتـدلي بـين أكتافـه؛ وكأنـه بـلا قلـب.

كنـت بالشـاون لحظـة انبعـاث وتجـلٍ؛ لحظـة في الأفـق الأزرق الخـارق نقطـة صغـيرة بـلا لـون حقيقـي؛ لـوني زائـف هـارب؛ مثـل كل الألـوان الخليطـة الـتي حاولنـا ابتداعهـا؛ أو وجدناهـا بطريقـة مـا بالحيـاة والطبيعـة؛ هـل نهـرب مـن الألـوان المبهرجـة مثلـك.. إلى الألـوان الباهتـة مثـلي؟ أو بالعكـس؟ هـل نظـل في نفـس المسـاحة وعـلى نفـس اتسـاع اللـون؟ كلـون يسـع الجميـع؛ يسـع تفاهـة الطبيعـة والوجـود؛ كأنـه الحيـاة بمفهومهـا الجميـل الـذي لا يعـدو أن يتلـون مشـاعر لـه قـدرة بـل لـه روح تتفاعـل؛ تُفـرح وتحـزن وتربـك وتزيـح الموضـع مـن موطنـه الأصـل.

وأنـا اخـترت الأزرق ليـس لأنـه السـماء قبعـة العالـم الآسر وليـس لأنـه انتظـام الحريـة بعنوانهـا المطلـق ولكنـه لـون خـاض جـدالا عميقـا كي يتخلـص مـن أثقـال البربريـة والتوحـش.

اللـون الأزرق.. هـذا اللـون البديـع الكثيـف المتجـدد في مـدى غـير محـدود ولا محـدد عالـم خفـي يتشـكل ليعـبر بصمتـه مـن كل الانفعـالات: الحـزن والحـزن الـراقي والفـرح والفـرح الشـديد والحيـاة

والحياة الجديدة؛ فاليأس واليأس المحبط والأمل والأمل الأكيد؛ الحب والحب المتصوف.. فالغيرة والغيرة الرقيقة؛ الملل والملل المبدع.

هنا في الشاون اللون يتغلغل في أكثر من عبارة؛ يخلق لك امتدادات لا متناهية من السلام؛ عالم بسيط فريد ومختلف؛ إنها «الطبيب النفسي» كما همس لي سائح فرنسي وأنا أشرب كأس الشاي الطويل بنعناعه وزهر أرنجه: «نحن نسميها «الطبيب النفسي»، قلت: «فعلا هي الطبيب.. بل هي الروح».

يستقبلك هذا البهاء الجالس بتوازن عجيب على جنبات جبل؛ تبدو لك البيوت المتراصة الزرقاء تشد بعضد بعضها البعض فيما تختفي الأزقة الصغيرة بحكم المسافة؛ وحين تخترق السحب البيوت وتتناطح أدخنة أقراص الخبز مع أباريق الشاي يروق إليك النظر إلى هذه المدينة من بعيد.. آخذ رجليّ إلى الجبل.. أعبر «راس الما» عين الله الجارية من مياه باردة عذبة؛ أغسل يديّ فأملأ قارورة تكفيني للصعود؛ أجدني وقد أنهيتها عند منتصف الطريق؛ أرتشفها مع وقع النبضات التي تلهث خلف لحظة وحيدة؛ أن تصل فتتأمل هذه اللوحة الزاخرة بالفن صوتا وحسا ومذاقا ولونا؛ حين تجوب المدينة أو حتى بالطريقة التي قد تشاهدها من فوق هي واحدة: إن مدينة كهذه تصحح وقع اللون بعينيك. إنها تلوّن أحزانك وتلون أفراحك وتحيطك بالكثير من السلام.

الأزقة الضيقة؛ بجدران بيضاء وزرقاء؛ زرقة متطرفة في القتامة وزرقة أخرى حريرية؛ تقترب من البرودة إن كان للبرد لون؛ وتقترب من الصفاء إن كان للصفاء لون؛ وتميل إلى الهدوء.. لون

حالـم كالسـماء في يـوم ربيعـي؛ في سـقفها أغصـان العنـب الجافـة الـتي سـلكت طريقهـا مثـل بيـوت العنكبـوت وامتـدت أصابعهـا النحيلـة إلى النوافـذ والأبـواب المحيطـة؛ الشـبابيك الصدئـة بلونهـا الذهـبي أو الأسـود؛ القطـط الوديعـة السـمينة ممـددة كعارضـات أزيـاء باريـس عـلى السـلالم؛ أصـص عملاقـة بألـوان دافئـة بهـا الحبـق والزعـتر والـورد الأصيـل.. تمـر مـن أزقـة في مـدن أخـرى كأنـك لا تمـر؛ تمـر مـن هنـا يتجـدد وجـودك ويشـع وينبثـق ويُـؤرخ؛ تمـر مـن هنـاك كأنـك لا تمـر؛ كأني لـم أمـر؛ ولكـن كل يـوم تسـير هنـا شيء فيـك يُزهـر؛ تنبـت مـرة أخـرى كاللـون أو تُفرحـك القطـات الممـدات بثقـة عظيمـة لا يهـتز فروهـا ولا تنبـس ببنـت شـفة حـتى وإن لمسـتها؛ رمقتـك بكسـل عجيـب وابتسـمت ثـم أكملـت نومهـا في تصالـح فريـد مـع المـكان؛ تصبـح -وأنـت المـار- أهـل الزقـاق؛ وكل زقـاق هـو في شـأن؛ وكل بيـت هـو بحكاياتـه: شـكل بابـه الكبـير الأزرق بنقـط سـوداء في وسـطه ويـد حديـد تمسـكه مـن يمـين؛ رائحـة القهـوة المقطـرة بزعـتر الجبـل المحـلّيّ؛ ضحـكات «العايـل» و»العايلـة»؛ أو صـوت راديـو قديـم.

كانـت النسـاء الأصيـلات البيضـاوات اللـون يضعـن «الشاشـية» (قبعـة) وعـلى خصرهـا «الحايـك» منديـل مقطـب بالأحمـر القـاني الجميـل؛ يحينـك بابتسـامة الصبـاح والمسـاء؛ مبتسـمات حـتى وإن كـن يجـررن أثقـال البهائـم المحملـة بجـبن الماعـز الطـري؛ وعـلى «بردعـة» الحمـار سـطل طماطـم مـن حدائـق الـدار أو حقـل صغـير لـم تتركـه لـنزاع الطبيعـة؛ يحملـن البصـل الصغـير الأبيـض المجفـف؛ سـطول الزيتـون البلـدي الـذي يـبرق مـن زيتـه الصـافي عـلى سـحنته السـوداء؛ سـطول الثـوم الطـري؛ شـجيرات الزعـتر؛

أغصان طريفة من أوراق «موسي» الجيدة للسمك والصلصات؛ سطول التين المجفف؛ سطول للفلفل الصغير البلدي؛ شرائط الفلفل الأحمر المجفف المتراص من الصغير إلى الكبير؛ حزم البقدونس والمعدنوس والسبانخ الخضراء الطرية.. كل شيء هنا تحمله النساء الجبليات المتدحرجات من أعلى الجبل طري وحقيقي وطازج مقدم مع ابتسامة صباحية نابعة من الداخل؛ الخضر فرحة هي أيضا؛ موضوعة بحب غامر بالامتنان نحو الطبيعة؛ يجلسن بنظام وانتظام على جنبات الأزقة من «باب العين» وصولا إلى ساحة «وطا حمام» أو موطئ الحمام؛ الحمامات المغرورات اللاتي تنزل لتحية جماهيرها من الأطفال والعجائز أحباء الله؛ ثم تنصرف إلى عليائها بعد أن تكون قد التقطت فتات الخبز والبسكويت.

أمر يوميا على جميع هذه المخلوقات المميزة؛ وأشرب روائح «الآتاي/الشاي» الناطق بالنعناع والياسمين؛ أقبل ألوان الوجود الرحبة وأسلم على النساء اللواتي يحتفلن بعيد المرأة كل صباح مع حمار لطيف يجررنه؛ وكنت قد انصهرت بسرعة هنا حتى خلتني جئت مرات عديدة؛ أتدحرج مثلهم في تلك الدروب اللامتناهية التشعب كمتاهة؛ ثم تلفظني المدينة القديمة حتى أجدني بشارع «غرناطة».

واصلت العيش؛ واصلت اليتم المقصود ولم يكن قد سأل عني أحد؛ واعتبرتُ ذلك قضية هامشية أمام هذا الجمال اليومي للمدينة؛ وكان «زاهر» يرمقني من شرفته الزرقاء المقابلة لشرفتي الجديدة؛ يبتسم بكبرياء في غير محله ثم ينسحب مخلفا وراءه ستارة بيضاء مائلة للرمادي؛ ماذا كانت تعني ابتسامته؟ عربون

ود؟ عربـون ترحـاب؟ إلهـام لقصيـدة لـم تبـدأ؟

وكنـت أواصـل عمـلي بالمؤسسـة الجديـدة مثـل عـادتي؛ أحـدث نفـسي بهـذا الكائـن الجديـد الـذي دخـل حيـاتي مـن بابهـا الحزيـن؛ منـذ شـهر وأنـا أرغـب في معرفـة اسـمه فقـط؛ اسـمه ويكفـي؛ كان بمثابـة موقـف ممـيز أن أسـكن مقابـل جـار وحيـد تعيـس مثـلي؛ يبتسـم ويـشرب كأس الشـاي ويقيـم صبـاح مسـاء بالبيـت؛ كان حدثـا نـادرا واسـتثنائيا هـو هـذا الشـعور بـأن ثمـة مـن يهتـم بـك عـلى الأقـل ولـو عـلى سـبيل التمـني أو الوهـم؛ لـم أكـن أعـرف شـيئا عنـه.

«زاهــر، زاهــر، ارم لي المفاتيــح لقــد نسـيتها فــوق الطاولــة». هكـذا صرخ رجـل مـن تحـت يبـدو كصديـق لـه؛ وسـمعت أنـا ذلـك بالصدفـة حـين كنـت أهـم بغلـق النافـذة تحسـبا مـن ريـاح الشـتاء.. هـو كذلـك اسـمك! زاهـر.. قلـت في نفـسي.. أنـت قصـة هـذا الموسـم.

***

ولعـل الجـدران تتقطـر بـرودة بفعـل الرطوبـة والـبرد؛ كانـت هنـا شـتاء قـد هطلـت بأيـام قبـل مجيـئي؛ كنـت قـد مـلأت سريعـا بيـتي الجديـد بتحـف بسـيطة وغـير مكلفـة؛ تعجبـني «الخـوردا» أو الأثـاث المسـتعمل القـادم مـن بلـدان العالـم؛ وخصوصـا الأنتيـكا القديمـة الرخيصـة؛ أعتـبر أن اقتناءهـا سـبب مغـر للفـرح والسـعادة؛ قيمتهـا تكمـن في غبارهـا في رائحتهـا الصدئـة؛ هـي أرواح معتقـة مختبئـة في شـمعدان فضـة؛ أو حـتى في حقيبـة جلديـة كلاسـيكية كمـا وجـدت بها

صورا لسيدة جميلة بالأبيض والأسود مع عطر صغير؛ اعتبرته قصة قصيرة منفتحة على جميع التأويلات الممكنة؛ أشتري إطارات الصور الحديدية؛ وأشتري الزربية ذات النقوش السوداء الإيرانية الأصيلة؛ وأشتري مكبر صوت ألمانيً؛ قارورات العطر الفرنسية القديمة مع ما تبقى بها من عطر معتق؛ مزهريات منقوشة قادمة من بلاد الهند؛ أغطية من الدوم «لحاف قصب السكر»؛ رويدا رويدا أصبح عالمي بعضا من كينونة الناس؛ من بيوتهم وحكاياتهم وروائحهم؛ أعتبر أن بيعهم كان في الأصل قضية؛ أو حاجة ملحة؛ أو هو استهزاء بقيم الشيء حين ينقضي أجله.. جربتُ أن أكون صديقة للبيئة وألا أخذلها في شيء؛ ألا أرم وبالمقابل أن أشتري ما يُرمى أو ما سيجد نفسه في الحاوية.. كانت «سيمان» بائعة مجوهرات الفضة ترافقني لهذه المناسبات الثرية باستمرار:

- في حياة أخرى كنت لأكون بائعة الذكريات والأنتيكا والقصص القديمة. قلت لسيمان وابتسمت مؤكدة حسن النية!

وكانت «سيمان» تشبه الغجريات؛ قادمة من جبال الأطلس المتوسط؛ حاملة معها كل المجوهرات المغربية الأصيلة؛ من تيجان وخلاخل و»مضام» (ما يضم خصر المرأة كحزام فضة)؛ «سيمان» تعجبها أغاني «إيمي وينهاوس» وهي غالبا ما تُكحل عينيها الواسعتين مثلما كانت تفعل «إيمي»؛ تحب الجلوس في دكانها الصغير الكائن وسط زقاق المدينة القديمة؛ تسمع خطابات السياسة وكانت تقود حملات فيسبوكية لنصرة الأمازيغيين تاريخا وفكرا وانتماء؛ «سيمان» تحب الصمت والحب؛ تعيش هنا وحيدة أيضا بعد أن اكتشفت أن والدها

تـزوج بالزوجـة الثانيـة؛ ثـم ماتـت والدتهـا ألمـا عليـه:

–هـل كان ذلـك حبـا أم كراهيـة؟ لـم أحسـت والـدتي بالفاجعـة المهولـة حـين تـزوج أبي؟ لـم مثـلا لـم تطلـب الطـلاق وكانـت لتظـل بيننـا ولكانـت معـي الآن هنـا؟

–يعني أنت أيضا مثلي.

–هل تفكرين في الرجوع مثلا؟

–لا قطعـا؛ لقـد هربـت لأني لا أسـتطيع النظـر مجـددا لنظـرات انكسـار متبادلـة.

كنـا قـد تبادلنـا قصصنـا بعجالـة مـرة ذات مسـاء مـن شرفـتي؛ كانت تسـتأنس للبيـت؛ تحـب بياضـه.. أرضيتـه.. ثـم التحـف الـتي كنـا قـد اقتنيناهـا سـوية؛ سـيمان هـي الشـخص الـذي لـم أسـتطع أن أكسـبه عزلـتي؛ دخلـت بعفويتهـا وابتسـاماتها للحيـاة هنـا معوضـة غربـة الزمـكان المفـترض؛ نسـكب شـايا ونتطلـع لـذات الشرفـة ونتبـادل الصمـت المطلـق؛ نتأمـل السـماء ونسـتمع لأطفـال الحـي وهـم يغنـون أغـاني جيلهـم السريعـة؛ وحـين يمـر زاهـر ويرمقـني بعجالـة أحـس بـشيء مـا يتغـير بداخـلي؛ يمـارس شـيئا مـن سـحره عـلي.

كيـف بهـدوء تسـاقط المطـر في صبـاح يـوم الاثنـين بينمـا الـبرد في أَوْجِـهِ «يجـب أن تكـوني سـعيدة لأن موجـة الصقيـع قـد تأخـرت هـذا العـام»، قالهـا «عبدالسـلام» بعـد أن قاطـع حديـثي مـع البقـال جارنـا؛ قلـت «ليـس مـن شـأنك» وانصرفـت بوجـه مقطـب وغاضـب؛ وعبدالسـلام أنـا لا أعرفـه؛ ولكنـه هنـا منـذ أول يـوم وضعـت فيـه رجـلي؛ كنـت قـد رمقتـه جالسـا عنـد دكان «السمسـار» لاسـتئجار بيـت بالمدينـة القديمـة؛ وهـو مـن حينهـا معنـا؛ أغلـق

السمسار دكانه الفوضوي ذا الجدار المزركش بالمفاتيح العديدة؛ القديمة منها والصدئة والجديدة.. الصغيرة المسننة والعريضة مثل مسدسات تكسس؛ ثم هو من عرفني بنفسه وبادر بيديه للتحية: أنا عبدالسلام (بلكنة أهل الشمال).

جيد قلت له؛ واكتفيت بنصف ابتسامة؛ كنت فعلا قد أخذت موقفا منه؛ هكذا! كأنه لم يوفق في أن يكسب شيئا من المودة التي تُخلق بالعادة عند الغرباء؛ وعبدالسلام رجل طويل أبيض اللون ذو عينين رماديتين بريبة؛ شعره البني مع القليل من احمرار على ذقنه المشذبة؛ لكن أثر جرح بالغ الحدة على خده اليمين مخيف فعلا؛ إنه غائر ولعله لم يذهب حينها للمشفى أو كأنه ترك مفتوحا لزمن؛ وجه مشوه ومثير للشفقة ولم أمنع نفسي من أن أقول هذا برأسي؛ كان وجه عبدالسلام مخيفا.. وكأنه أثر لقتال قديم بينه وبين أولاد الدرب في سنتين ماضيتين، ولأنه يُدخل رأسه في كل شيء فإنه حتما من النوع الذي جر على وجهه مآسي عديدة؛ كأن يحب بنت الجيران فجاء أخوها بسكين منتقما؟ هذه احتمالات سطحية كونتها عنه؛ أعرف ذلك؛ ولكن قلبي يحدثني أنه متلفي وأينما وليت بوجهي وجدت عبدالسلام حاضرا؛ تبعنا منذ اليوم الأول؛ معطيا رأيه في كل زيارة حتى صرخت في وجهه غاضبة:

–هذا بيتي أنا وسيكون بيتي أنا لا بيتك أنت! من أنت لكي تعطي رأيك المتطرف في كل بيت نزوره؟!

لم يجبني وكان يكتفي بقهقهة حقيقية؛ وضحك من كل شبر فيه واكتفى بأن يرد بسلام: والله تضحكينني.

واستمر ضاحكا بصوت أشعرني بهستيرية اتجاهه أكثر؛ وفعلا

كنت أعيد التفكير في ملاحظاته ليلا وأحس أن بها منطقا قليلا؛ فبيت الزرهونية كان ضيقا جدا وكانت السلالم إليه غير مريحة؛ أما شقة المحامي فكانت مثل مكتب! بل هو مكتبه القديم وحين حاول إصلاحه ليعود كشقة للكراء وجد نفسه وقد تعدى على ملامحها وأجهز على البناية فما تركها بيتا عاديا ولا ظلت مكتبا تجاريا؛ ثم منزل السيد «عمران» فبالرغم من ألا ملاحظة تقنية بخصوصه إلا أن عبدالسلام تحدث عن إمكانية أن يدخل سارق من باب سطوحه وهذا شيء مستحيل في الشاون؛ وأنا لم أعرف لم يتحدث ابن المنطقة بحذر من البيت المستقل لفتاة وحيدة ومستقلة مثلي؟ عموما قد تكون لغة ذكورية منه.. إنه رجل مثير لاستفزازي وغضبي الشديدين؛ وفي كل زقاق يكون هو في مكان ما متربص لي؛ ولولا أنه قيل لي أنه مرشد سياحي غير مؤهل لقلت أنني شغله الشاغل؛ من أين يجد البعض هذه المهن المربحة والسهلة في ذات الآن؟ هي البطالة حتما فلا مصانع هنا؛ لا مقاولات كبرى ولا وظائف غير مهنة مرشد سياحي! هي المهمة السهلة والممتعة على الإطلاق؛ تذهب مع القوافل متسللا من الدروب ثم تستعرض عضلاتك وتدخل في التاريخ الطويل للسيدة الحرة وفي زحف الموريسكيين وقصتهم مع (سيادة الحكم المسيحي) وبعدها تعرض عليهم محلات أصدقائك ولا تنسى مطاعم ومقاهي تعرف أصحابها فتأخذ أجرا من كل هذا وذاك! أعتقد أن هذا كل ما يفعله عبدالسلام كمهنة؛ وحقيقة كان يخيفني؛ يخيفني جرحه الغائر المفتوح وتخيفني جرأته؛ وضحكاته؛ وتدخله في كل صغيرة وكبيرة؛ والتصاقه بي في كل مكان راوحته؛ يخيفني الرماد بعينيه؛ وسامته المستفزة؛ مستواه

الفكري المتطاول على لغات العالم وعلى تاريخ لم يعرفه إلا سمعا.. عبدالسلام يخيفني.

وكانت «سيمان» لا تعيره اهتمامها؛ ولا اهتمام شكواي منه؛ ونغير الموضوع لشيء مفرح مثل الحديث عن زاهر:

– هل تعرفين أن لي جارا غريب الأطوار!

– لا، من أين سأعرف جيرانك؟ هيا ما اسمه وسنه ولم تسألين عنه ؟

– مهلا «سيمان» أنا أسألك فقط لأني لا أعرف عنه معلومات كافية كنت أظن أنه وبحكم سكنك هنا لسنوات ظننتك ستعرفين عنه أكثر.

– أن أسكن بالشاون لسنوات لا يعني أني أعرف كل شخص يسكن هنا؛ قد يكون موظفا جديدا مثلك انتقل مؤخرا؛ بهذه المدينة الكثير من الجدد والراحلين والزائرين.. الشاون ليست مكانا أبديا.

– ومن أين عرفت أنه قد يكون زائرا جديدا؟ ثم ابتسمت ابتسامة عاشقة.

– لا أعرف. وصمتت.

– لا ليس زائرا جديدا؛ إنه طبيب الأسنان الكائن بنفس العمارة.

– تقصدين الشقة السفلى التي نمر منها قبل أن نصل لشقتك؟

– نعم، نعم؛ إني لم أكن أعلم بذلك غير مرتين التقينا هنا فيهما بالصدفة كنت أظن حينها أنه مريض ويعالج سنا هنا.

– ها ومن أين عرفت أنه هو الطبيب المعالج لا المريض؟

– لأني أخذت موعدا عند سكرتيرته السيدة «نعيمة»، وكان

هـو قـد خـرج بوزرتـه مـن داخـل الغرفـة الخاصـة بالطبيـب ليأخـذ معلومـات عـن طفلـة صغـيرة أتـت عنـده.. قـال للسـيدة نعيمـة بلطـف: هـل قالـت والدتهـا أنهـا تعـاني مـن التوحـد؟ ثـم ابتسـم إلي وحيـاني تحيـة الصبـاح فغـادر نحـو الطفلـة الـتي كانـت تنظـر إلى السـقف بشـغف.

–أخـذت موعـدا؟ وكيـف عرفـت أنـه طبيـب جيـد للأسـنان؟ شـخصيا أنـا أتعالـج عنـد دك. سـميح بناصيـة شـارع الربـاط.

–وكيـف عرفـت أنـه ليـس بالطبيـب الجيـد؟ يـا «سـيمان» ليـس غـرضي إطلاقـا أن يكـون ماهـرا أم لا! إنـه إعجـاب أنـا لا أعرفـه.. شيء يدفعـني لاكتشـافه.

–هاااا كالحب مثلا! ثم ضحكت طويلا.

–لا يمكننا أن نتحدث عن «الحب» أنا لا أؤمن بهذه الخزعبلات.

–دعـي فلسـفاتك جانبـا فـإذًا يـا سـيدة الخصـل اللولبيـة الحمـراء مـا الـذي يجعلـك تجلسـين أمـام الشرفـة كشـاعرة؟ ومـا الـذي يجعلـك تبحثـين عـن اسـمه وسـنه وتاريخـه ومهنتـه؟ لا بـل تحددين موعـدا لفحـص أسـنانك البيضـاء السـليمة؟! ثـم تبتسـم فتداعـب خصـلاتي.

–يـا عزيـزتي هـي أشـياء لا تفهـم؛ هـل يمكننـا ألا نسـمي أحيانـا الأشـياء بمسـمياتها؟ إنهـا أشـياء فضفاضـة تسـع أجـزاء دقيقـة مـن كل شـعور.. قـد تجمـع الإعجـاب مـع القليـل مـن التعلـق مـع القليل مـن التعـود فالقليـل مـن ملـل الوحـدة.. وهـذه الخلطـة العجائبيـة لا أجـد لهـا اسـما وأنـا أراهـن أن الجميـع قـد يحـس بهـذا الخليـط الهائـل مـن المشـاعر ثـم يعطونـه اسـما كالحـب، أمـا أنـا فـلا أريـد

أن أتسرع في شيء.

– هممممم؛ أعتبر جوابك هروبا ذكيا من نمطية الأجوبة؛ أيتها المتمردة الخائفة.

– هل أحببت يوما يا «سيمان»؟ أعني حبا حقيقيا؟

– الحب حد التطرف.

– أووووه! ثم ضحكنا معتبرة أن بعضنا يجد إحراجا أو قصورا في التعبير عن نفسه.

– متى موعدك مع الدكتور زاهر؟

– أعطتني السيدة نعيمة موعدا بعد أسبوع كامل لأن أجندته مليئة بزيارات الأطفال الصغار هذه الأيام وعلى ما يبدو أنها مجانية مخصصة للفقراء والمحتاجين.

– عمل نبيل! هذا سبب كاف للوقوع في غرامه.

– أجده حالة خاصة: مشيته؛ تأنقه؛ وداعته؛ كبرياؤه الموضوعة في غير محلها.. لحيته غير المشذبة...

«سيمان» مقاطعة: مهلا مهلا مهلا كل هذا ولا تسمينه حبا من النظرة الأولى.

– ليس هناك من حب من نظرة أولى وثانية وسبعين؛ هذه تهيؤات.

– ولحيته غير المشذبة؟!

– لحيته هي الحقيقة المطلقة الوحيدة في الموضوع.

ولقد كانت تهزمني الحياة فأنتصر بعينيك؛ ومضى الأسبوع طويلا فضلت أن أقضيه بين العمل وإعداد الامتحانات؛ وفي كل

مـرة أمـر مـن عـلى «سـيمان» لأطلعهـا عـلى سـير أيامـي أجـد دكانهـا مليئـا بالـزوار والسـائحين الشـغوفين بارتـداء الحـلي أو شراء هدايـا فضيـة مميـزة كهدايـا تذكاريـة لأهاليهـم؛ فـلا نجـد وقتـا كافيـا لتبادل نميمـة المسـاء كمـا يجـب؛ أمـا عبدالسـلام فهـو كطيـف مقيـت يطـل عـلي برأسـه كل فينـة وأخـرى:

–ألم تتعب من مطاردتي واللحاق بي في كل مكان؟

–مـن قـال أني اطـاردك هـذه أرض الله يـا آنسـة. ثـم يفـر ضاحـكا باسـتفزازه المتعـود.

–مقيت.

قلـت ذلـك ورحلـت بعدمـا أكـون قـد يئسـت تمامـا مـن جـدالي معـه؛ جـدال غـير مفـضٍ لـنزاع حقيقـي ينتهـي بفائـز ومنهـزم؛ بـل هـو لا يعطيـني فرصـة لذلـك؛ وعـلى أي فقـد كنـت أنتظـر يـوم الاثنـين بشـغف مقيـت أيضـا.

***

الكلام الذي كان يجب أن أقوله لصاحب الدار:

انـت «شـفار شـلاهبي» «سـارق ومتحايـل» وبـدل أن تقرضـني المـال الأجـدر أن تـؤدي الضريبـة.

ولكـني بلعـت هاتـين الكلمتـين في حنجـرتي واكتفيـت بإغـلاق بـاب شـقتي عـلي؛ ولقـد كنـت قـد طلبـت منـه وصـل تسـديد فواتـير الكراء هذيـن الشـهرين اللذيـن فاتـا فاعتـذر قائـلا بـأن «الثقـة» شـعاره! ثـم طالبتـه بعقـد كـراء مثلمـا يفعـل كل الحضريـين فقـال أن العقـد

سيلزمه تسديد فواتير الضريبة!

–ولم ستحتاجين عقد الكراء يا أستاذة هل لا سمح الله قد أحسست بشيء من المكر مني؟

ولم يكن الإحساس بالمكر منه حقيقة دافعا لأطالب فيه بتسوية وضعيتي غير أني ظننته إجراء روتينيا حتى جاء السيد فرزدق يدلو بدلوه ويبرر لي؛ قلت له مختلقة عذرا منطقيا: أريد عقد الكراء لآخذ قرضا من البنك. ولكنني لم أتوقع أن يعرض علي نقوده بدلا من أن يسوي بيني وبينه وضعية عادية؛ قال بعدما أزاح عن وجهه السمين نظارة سميكة بحجم قعر الكأس:

–إذا كتبنا عقد الكراء فإن أهل الضريبة سيعرفون أن لي بيتا أكتريه هنا ولسوف ينهالون علي بالفواتير.. فهمت؟

–وما ذنبي أنا سيد فرزدق؟

–فَرْدَقْ وليس فرزدق يا بنتي؛ وعموما أنا هنا رهن الاشارة؛ لا تحتاجي لا بنك ولا هم يحزنون وأنا بالحياة.. أنت مثل إحدى بناتي.

كنت قد استنفدت معه طاقتي في محاولة الفهم والشرح؛ وعند الغروب بعد ساعات طويلة من التدريس ظهر رأس عبدالسلام مثل هلال على مقربة من راس الما:

–عبدالسلام كيف للسمسار صديقك أن يورطني مع فرزدق بدون عقد كراء ولا يحزنون؟

–أهلا أهلا بالغالية.. هلت الأنوار وتكلمت الأقمار الاصطناعية. ثم ضحك كعاداته.

–لست أمزح إطلاقا ولا تجعلني أندم على الساعة التي تنازلت

لأحدثك فيها؛ ولكنك شريك في هذه الجريمة أيها الجاسوس.

–كوني مطمئنة؛ الرجل من أطيب خلق الله فلم كل هذه الوساوس الفارغة.

–لأن القانون لا يحمي المغفلين وفرضا ادعى صاحبك بأني لا أدفع سنتيما مقابل الكراء؟

–لأنه رجل من أطيب خلق الله؛ لأنك لا ترين ذلك للأسف.. ترين النصف الفارغ من الكأس.

–ها! كلام الفيسبوك لا أريد أن أسمعه يا عبدالسلام أفهمت؛ وقل له أن يسوي ضرائبه فالله لا يريد للطيبين أن يحتالوا على القوانين. ثم انصرفتُ تاركة إياه في ضحك هستيري غير منته.

الرجل العجوز الذي لا يؤمن بالعقود أشعرني بفلسفة القانون والواجب؛ أو حين يتحول القانون إلى آلة من آليات الفساد؛ إذ إن ما يعتقده البعض سرقة الدولة لأموال لا يتم استثمارها في الصالح العام هو بعينه ما يطبقونه على ضعاف الحيلة مثلي؛ هم يتهربون من أداء ضرائبهم ونحن ندفع ثمن ذلك ريبة وحذرا.

وليكن؛ قلت في نفسي لدي أشياء أهم برأسي؛ كان علي أن أحضر عشاء خفيفا أتناوله ثم لأضع رأسي على الوسادة لأترك نزاع الضرائب لاحقا استعدادا لسفر سريع بالصباح الباكر إلى مدينة «وزان» القريبة من هنا؛ كان علي جلب سلعة الحلي الفضية القادمة من مدينة «تزنيت» وحيث إن سيمان مشغولة جدا في الدكان اقترحتُ عليها الذهاب بدلا عنها وفرحت بعدما اتصلت مستشيرة إياي في حل.. قالت لن أجد من أأتمنه غيرك.

«وزان» مدينة مررت عليها مرور الكرام ولم أجدها أقل متعة من الشاون؛ هي مدينة بيضاء مع القليل من معالم البهرجة؛ مدينة تأخذ أنفاسك بسهولة التنقل وسطها؛ ليست مربكة بل إنها عاجزة عن إرباك أي كان؛ مدينة المتصوفين والعارفين بالله.. توجهت إلى مركز ترك السلع القادمة من المدن البعيدة؛ كانت سيمان تعرفهم فاتصلت بي لتؤكد تعويضها بدلا عنها ثم لتعتذر عن عدم تمكنها للمجيء لأخذ السلعة؛ أخذت العلبة الكارتونية من الحجم الكبير ثم توجهت صوب المقهى لأفطر هناك؛ حدثني «أحمد» وهو زميلي في المؤسسة التي أعمل بها أن بوزان زيتونا أسود ألذ مذاقا من سابقيه؛ قلت هي فرصة لأتذوق كل ذلك؛ حملت العلبة بذراعي وصرت أتبع حدسي نحو مقهى بناصية الشارع الرئيسي؛ جلست وطلبت إفطاري مع تشديد الطلب على حصة غنية من الزيتون الأسود المنكه بتوابل المنطقة؛ كنت قد جلبت معي كتابا فلسفيا عن فلسفة الآخر؛ ووجدتني على مشارف الانتهاء منه؛ وضعت العلبة فوق الطاولة وجعلتها عن يميني؛ وكلما مر متسول أو مجنون ارتعدت خوفا من أن يوقعها أو أن يسرقها أحد؛ شعرت بمسؤولية عظيمة تجاهها؛ فهي قيمة بالاضافة إلى ثمنها المرتفع لأنها حلي فضة ومصنوعة خصيصا تحت طلب سيمان؛ إن الآخر وكما قال الكتاب آخر حتمي والعلاقة معه مشبوهة وضرورية؛ ولا يمكننا إلا أن نستكشف ذواتنا من خلالها؛ الآخرون يفرضون ذواتهم علينا: إننا نحبهم نكرههم.. نضحي من أجلهم نساعدهم ننساهم نتذكرهم؛ فلا يمكن أن تقوم أي عملية أخلاقية أو وجدانية أو عملية إلا بهذا الآخر.. الآخر الذي يمكن أن يصبح مأساة على

رأي الكاتب.

كنت أقرأ كل ذلك فتطفو على ملامحي بعض من ذكرياتي الأليمة؛ الآخر الحتمي؛ وكأني سرحت بمخيلتي طويلا أفكر في كل العبارات التي مرت: «الجحيم هم الآخرون» كما قال سارتر مؤكدا أنه قد فهم هذا اللبس مع الآخر حين وصفه بـ»الجحيم» ولولا احتكاكه بهم لما تمكن من جرد هذه الخلاصة؛ ذلك أن الصدام بين الذوات حقيقة لا يمكن تجاوزه!

لكن فجأة انتشلني من تأملي طفل صغير قرابة السنتين كان واقفا يلتقط شيئا صغيرا من الإسفلت؛ وكانت شاحنة من الحجم الكبير ترجع إلى الوراء غير منتبهة له؛ لم أشعر بقدمي حين قفزتا مسقطة الكرسي أمامي محاولة العدو إلى الجهة المقابلة؛ كان الطفل غارقا في بحثه عن قطعة نقدية وكانت عجلات الشاحنة الضخمة على قرابة دهسه بلا أدنى انتباه؛ لم يكن في الشارع من ملتفت سوى أني كنت أصرخ بهستيرية قصوى: الولد الولد خلف الشاحنة.

ارتطمت بعربة للفراولة التي كان بائعها على أهبة تصفيف حباتها؛ فيما تركته غارقا في دهشته؛ مسكت بالولد من ياقة قميصه بعدما عرضت كتفي جهة باب الشاحنة السفلي؛ تألمت قليلا وكان الطفل بحضني سليما ثم توقفت الشاحنة بعدما طرقت بابها بقوة؛ اتجهت غاضبة صوب السائق الذي كان يهم بالنزول:

– هل أنتما بخير؟

– في المرة المقبلة لا تسق شاحنة بهذا الحجم دون أن تنزل وتتأكد ألا أحد وراءك؛ فهمت؟ أين هي الكاميرا التي توضح لك

الطريـق الخلفيـة؟ أيـن هـو الحـس الانسـاني؟ لقـد كنـت لتدهـس الصـبي وتطحـن جسـده!

– أنـا آسـف سـيدتي ولكـن في المـرة المقبلـة انتبهـي أنـت أيضـا لطفلـك.

– ليس طفلي ولست والدته ولكني رأيته وحيدا هنا.

– وأين هي والدته؟

كان الطفـل الصغـير مذهـولا غـير مسـتوعب لما حـدث لـه؛ بـكى مطـولا قبـل أن تنقـذني جدتـه مـن هـول تسـارع وتداخـل الأحـداث قالـت لاهثـة: أيـن وجدتـه يـا بنيـتي لقـد انسـل مـن يـدي في دكان الأدوات المنزليـة.

– (قلت متعبة) كان هنا يا خالة؛ لا تخافي حمدا لله أنه بخير...

– شكرا يا بنتي؛ نجاك الله من الشر ورضي الله عنك.

وضعـت عـلى جبـين الطفـل الصغـير ذي الخديـن المكتنزيـن قبلـة وطلبـت منـه أن يعـدني بـألا يفعـل مثـل هـذا التـصرف مجـددا؛ سـلمت عليهمـا ثـم هممـت بقطـع الشـارع عائـدة إلى المقهـى؛ ثـم صعـدت مـن قدمـي حـرارة الوعـي: لقـد تركـت علبـة المجوهـرات الكبـيرة عـلى الطاولـة!

امتـد بـصري إلى هنـاك؛ حقيبـتي أيضـا! جريـتُ غـير مهتمـة بالسـيارات الـتي كانـت بالشـارع الرئيـسي؛ دق قلـبي سريعـا؛ الريـح الـتي سـلكت نفسـها إلي بقـوة جعلـت شـعري يتمايـل جنوبـا وشرقـا فـزاد مـن توتـري؛ أسرعـت لقطـع الشـارع فـإذا بالإشـارة الخـضراء تسـمح بمـرور السـيارات وتمنعـني مـن المـرور؛ اضطـررت للوقـوف منتظـرة وجربـت أن ألـوح بيـدي لنـادل المقهـى الـذي كان متسـمرا

يدخـن سـيجارته بهـدوء شـديد؛ كل الاحتمـالات الـواردة الآن أمامـي: مـاذا سـأقول لسـيمان في حالـة مـا إذا سرقـت العلبـة؟ هـل لـدي مـا يكفـي لسـداد قيمتهـا؟ يااللخيبـة يااللخيبـة إن سرقـت؛ وسـاوسي اعتلـت رأسي مجـددا بعدمـا تخلصـت نسـبيا منهـا؛ أحسسـت بموجـة بـكاء عارمـة تعتريـني ولـم ينقـص مـن حدتهـا سـوى إشـارة المـرور الحمـراء الـتي سـمحت لي بالجـري حـتى طاولـتي ثـم صرخـت:

–العلبة العلبة التي كانت فوق الطاولة أين هي؟

أجابـني نـادل المقهـى بابتسـامة: أنـا لـم أر شـيئا. ثـم سـقطتُ مغميـا عـلي.

***

«كيـف عرفـت أن مقاعـد السـينما حمـراء؟» سـألني أبي بذعـر وكأنمـا سـمعني أرتـد عـن الديـن أو أن السـينما دور للدعـارة لا للفـن؛ لقـد تركتـك تدرسـين علـوم التربيـة فمـن أيـن عرفـت دور السـينما؟ كان بإمـكاني أن أختلـق لـه أي خرافـة منطقيـة يتأكـد فيهـا بـأني لـم ألـج دور سـينما قـط؛ ولكـن مثـل هـذه الأسـئلة لا يمكـن أن نجيـب فيهـا إلا بـ: أنـا لـم أر شـيئا. مثلمـا فعـل نـادل المقهـى؛ ولكـن والـدي لـم يغمـى عليـه؛ الإنـكار سـيد الأدلـة وهكـذا وجدتـني أنهـي بعـض الجـدالات العقيمـة بتفنيـد مـروري أو ذهـابي كليـا؛ لا أتـرك مجـالا للنقـاش أو لتسـلل أو حـتى لاعـتراف؛ هـو مقتنـع سـلفا بتفاهـة دور السـينما ودورهـا في تهديـم أخـلاق المجتمعـات؛ وأنـا مقتنعـة تمـام الاقتنـاع بأننـا فقدنـا الكثـير مـن أخلاقيـات تقبـل الاختـلاف حـين

اندثر الفن.. هذه الأجوبة الجاهزة سلفا تنهي بعضا من المآسي المحتملة؛ ولكن من حسن حظي أن النادل كان يمزح معي بتلك الـ«لم أر شيئا»، وكان عقلي متأكد قبل مرور الشارع من أن العلبة قد سرقت لا محالة وأنها لا تظهر لي من فوق الطاولة كما قد تركتها قبل عملي البطولي بدقائق معدودة؛ لحسن حظي فقد جاء لمسح طاولتي ووضع إفطاري كما طلبت فإذا به يضع كل أغراضي على الكرسي الفارغ بجانبي؛ تحسست جيبي ووجدت هاتفي الغبي لم يبرح مكانه؛ شكرت النادل كثيرا وقال لي بعد أن استفقت برشة ماء على وجهي ألا خوف هنا من سرقة الأغراض؛ المقهى مؤمن ومعروف وأن الأشخاص المشبوهين لا يتعدون هكذا على أشياء الناس بالأماكن العامة ولو تركتها شهرا كنت لأرجع ولأجدها في مكانها.

طبعا شكرت الله كثيرا وشكرت النادل على حسن اهتمامه؛ ولكني ظللت خائفة وارتعدت فرائصي مرة أخرى؛ كيف أفقد الوعي بين أناس غرباء؟ هل كانت يد النادل نظيفة حين أيقظني؟ هل لمس يدي ووجهي؟ كنت أدخل في هذه الهلوسات مرة أخرى؛ في ازدحام شديد وأذى مؤلم لعقلي الصغير؛ لم أجد مخرجا من ورطتي كان علي أن أغسل يدي لأتمكن من مسك الخبز والكأس.. دعكت بعضا من المعقم وأكلت سريعا رغم أني فقدت الشهية في الأكل وفي الاستمتاع بالمدينة.

ثمة أيام بلا اسم؛ أيام تبدأ من صباحاتها وإن بدت مشحونة بالمشاعر؛ أيام لا يمكن أن تنعتها بالأيام النحس ولا يمكنك أيضا أن تصفها بالأيام البيض؛ إنها أيام مليئة وثقيلة والأهم من هذا كله بصمتها العميقة في الذاكرة؛ أحداث تظل معك في كل مكان

وزمـان؛ تعيـدك للإحسـاس ذاتـه ولـو رجعـت بالخطـوات إلى الـوراء سـتجد أنـك قـد فعلـت مـا كان عليـك فعلـه؛ ولاتخـذت القـرارات نفسـها؛ الخطـوات ذاتهـا؛ لسـلكت نفـس الـدروب ولانفعلـت بـذات الانفعـال؛ هـي أيـام لا تصلـح لأن تقيسـها بالنـدم.

بخطـى سريعـة انطلقـت نحـو الحافلـة المؤديـة إلى الشـاون؛ المكـوث بـوزان في هـذه الظـروف ليـس بالأمـر الجيـد؛ تقـول جـدتي: «احـن ظهـرك حـين يهيـج مـوج الشـاطئ بغتـة». أخـذت نفسـا عميقا وصعـدت بالعلبـة معـي ووضعتهـا عـلى رجـلي؛ مطوقـة يـديّ حولها؛ واسـترخت فرائـصي كأنـني أتجـرد مـن تعـب قديـم؛ تمنيـت أن تمـر هـذه السـاعة والربـع في أتـم مـا أرجـوه حـتى أتمكـن مـن إيصـال الأمانـة إلى أهلهـا سـالمة دون خسـائر فادحـة؛ تنهـدت عميقـا ولـم أكـن قـد أعـرت للمسـافرين أدنى التفـات؛ وضعـت في أذني سـماعة ووصلتهـا بإذاعـة مـن إذاعـات الراديـو القديمـة؛ كانـت السـيدة فـيروز مـن حظـي تنشـد: «نسـم علينـا الهوى مـن مفراء الـوادي».. اسـتكنت لصوتهـا المبعـوث في اللحظـات الحرجـة؛ كأنهـا كانـت عـلى اسـتعداد لمسـح كل آثـار فظاعـة الصبـح؛ دخلـت في موجـة تأمـل ولـم أعـرف إن كنـت قـد غفيـت عـلى سـمعها أم أني كنـت فقـط منسـجمة مـع تجـلي صوتهـا الغائـر في الجمـال حـتى اسـتفقت عـلى هاتفـي الـذي رن منتشـلا إيـاي مـن لحظـات هـدوء حقيقيـة:

–نعـم سـيمان؛ أظـن أني بخـير.. أنـا عـلى مـتن الحافلـة عـلى أي حـال وأنـت؟

–أووه سـلامتك؛ جـربي وضـع المعقـم عـلى يديـك والأجـزاء الظاهـرة مـن جسـدك بالليـل؛ سـوف لـن «يطـوف» بـك النامـوس وسـتنامين مرتاحـة. قاطعتـني الراكبـة بجانـبي؛ والـتي يبـدو أنهـا

أمالت بجسدها كله كي تنخرط في هذا النقاش فتدخلت مشوشة علي سماع ما كانت سيمان بصدد قوله؛ كان رأسها مندفعا إلى الأمام بحيث كانت تريد رؤية شاشة الهاتف وإدراك هوية المتصل ثم تدخلت هكذا مستعجلة بالمعلومة:

– نعم، نعم، بالتجريب؛ معقم اليدين يبعد الناموس من يديك.

جاوبتها بايماءة مقتضبة؛ وكانت عيناي تحاولان التبسم لها شاكرة لها حسن الصنيع! وكنت أستطرد حديثي مع سيمان موهمة أني قد سمعت كل ما قيل أثناء الاربع الدقائق الفائتة: آه، نعم، نعم (قلتها اعتباطا لا غير).

فأضافت سيمان: أنا أشك في النافذة الصغيرة للمرحاض لأنها تطل مباشرة تحت حاوية الأزبال؛ وأنا لا أعرف من هذا «الحمار» الذي تجرأ على جرها تحت شباكي.

– يا سيمان الحاوية كانت موضوعة تحت نافذة جيرانك أيضا فلم لم تتذمري حينها! الآن عندما حولوها تحت نافذتك قلت عنه حمارا!

– حمار وستون حمارا وسوف أشتكي للبلدية.

– هنا تدخلت الراكبة بجانبي مجددا: نعم، نعم، هم هكذا عمال البلدية.. يأتون بالحاويات ويضعونها تحت رؤوسنا! هل لهم عقل؟ هل يفكرون قليلا؟

صوبت حينها نظرة انزعاج حقيقية أتبعتها بابتسامة صفراء تشكرها مجددا على هذه الفواصل الإشهارية ثقيلة الدم بين كل مشهد وآخر.. وبطبيعة الحال لما فوت سماع ما كانت تلك

المتوتـرة سـيمان مـن قولـه فقـد حاولـت تخمـين الـكلام وعـلى أي فأنـا لـم أفـوت سـماع الشـعر! كانـت لتسـب ولتسـتخرج مـن قامـوس الكراهيـة كل المرادفـات السـيئة وصـب جـم غضبهـا في وجهـي قلـت مقاطعـة صوتهـا المرتفـع: المهـم أغلقـي نافـذة شـباك المرحـاض ولا تنـسي شراء معقـم اليديـن.. سـيمان كـدت أصـل، أكلمـك لاحقا.. مـع السـلامة. هنـا مجـددا تقاطعـني السـيدة «فضـول» بأسـنانها المتفرقـة داخـل فمهـا الصغـير حيـث يلمـع ضرس داخـلي مـن الفضـة الخالصـة: لا لـن نصـل قبـل الثالثـة لا يـزال أمامنـا نصـف سـاعة تقريبـا.. كنـت قـد اسـتنفدت صـبري حينهـا ولـم أجـد بـدا للـصراخ في وجههـا:

– لم تتدخلين سيدتي في حديث لا يهمك إطلاقا!

ثـم صمتـت بالفعـل؛ وتكمشـت كُدعسـوقة داخـل كرسـيها الأزرق القديـم؛ كأنمـا يلـزم للبعـض أن يسـمعوا صراخـا حـتى نضـع لهـم حـدا؛ صبـت عـلي سـيمان بعضـا مـن غضـب تافـه في غـير محلـه فيمـا وجـدت شـخصا مناسـبا يسـتحق أن أفـرغ عليـه بعضـا مـن هسـتيرية كل مـا حـدث صباحـا؛ كانـت الحافلـة قـد توقفـت وقلـت في نفـسي: عطـب مـا بالمحـرك مثـلا! هـذا مـا كان ينقصـني فعـلا.

هـو يـوم بـلا اسـم؛ وعـلي أن أحـني ظهـري للمـوج الهائـج؛ قلـت ذلـك في نفـسي وأعـدت تركيـب السـماعة في محلهـا تاركـة للمذيـع أن يتحفـني بخياراتـه الكلاسـيكية الماتعـة:

– تفضلي معنا سيدتي رجاء.

كان هـذا صـوت الـدركي بلباسـه الرمـادي الـذي لا تشـوبه شـائبة؛ نظـرت بوجـه تعـب مسـتفسر ومنذهـل:

– مهلا؟ لم أفهم.

– نعم تفضلي معنا سيدتي لبعض الاجراءات الروتينية.

يا إلهي أي يوم هذا؟ أي ذنب اقترفته كي أجني يوما مدهشا كهذا؟ نظرت لوجوه كل الركاب الذين أخرجوا أعناقهم متسائلين عن التهمة التي قد اقترفتها؛ أصوات تتعالى: ويلي ويلي (يا ويلتها).. العيون التي كانت تتسع مع كل خطوة وأنا أحملق فيهم بذهول عجيب؛ كنت أشاطرهم حقيقة كل أحاسيسهم وأقول لنفسي: يا ويلتي يا ويلتي ما أنا فاعلة!

– هي إجراءات روتينية أستاذة؛ أين تشتغلين؟

– بمدينة الشاون سيدي.

– جيد؛ كيف وجدت الشاون؟ (وكان لطيفا معي في محاولة تلطيف الجو بعدما لحظ اصفرارا باديا على وجهي).

قلت بتلعثم: جيدة جيدة.

– لدينا معلومات سيدتي أن بعلبة الكارتون مواد مشبوهة وعلينا التأكد من صحة هذه الأخبار.

– عفوا هي ليست لي وأنا لم أقم بفتحها.

– ولكنك أنت حاملتها بغض النظر عما إن كنت أنت صاحبتها أم لا! دعينا نتأكد أولا مما في العلبة أصلا.

لا يمكن أن تتكالب علي هذه الظروف هكذا فجأة؛ كان صوت الدركي آمرا زميله بفتح العلبة، وإذا بصوت ضاحك نازل من الحافلة يقول لي:

– لِمَ لَمْ توقظيني؟ سيدي أنا صاحب هذه السلعة، ولولا هذه المرأة الطيبة لما عرفت أن أنام بآخر المقاعد.

–أهلا أهلا هذا أنت؟ قالها الدركي مع ابتسامة.

–هيا سيدي افتحها ليس بها شيء يذكر؛ بعض من حلي الفضة وسلاسل؛ وخواتم سأبيعها لسيمان.

–آآه صاحبة حملات الفيسبوك الفاشلة.

–تماما؛ ولكن يا سيدي لسانها الحلو وطريقة بيعها للحلي خطيرة فعلا.

–ها.

–نعم؛ كما قلتَ العلبة سليمة؛ الحلي وخواتم الفضة والسلاسل.. جيد.

–نعتذر سيدتي كما قلت هي إجراءات قانونية عادية؛ عبدالسلام انتبه لعلبتك مرة ثانية ولا تكلف سيدة لا تعرفها بحملها بدلا عنك.

***

وعدت نفسي ألا أبكي أو أنجرف؛ ووعدتها أني سأبني سيدة جديدة؛ بنفس الطباع ولكن بروح أقل عذابا من ذي قبل؛ امرأة تستطيع أن تبني لها علاقات إنسانية مع هذا الآخر المريب؛ تخلصت من أدران يوم الأحد الأسود بحمام دافئ حيث أحواض الاستحمام هي أمكنة لاتخاذ القرارات ولترتيب الأحداث واحدا تلو الآخر؛ ماذا يعني كل ما حدث؟

كان السؤال يتوالد في رأسي كفقاعات الشامبو؛ هل عبدالسلام سيئ لهذه الدرجة؟ أعني يورطني بحكاية مشبوهة ومغلوطة

ثم يقوم بدور المنقذ؟ ياله من حقير.. أكملت استحمامي ثم آثرت الانزواء بغرفتي؛ كانت سيمان تتصل بي كل المساء ولكني لم أكن قادرة على سرد ما حصل؛ أو قول أني فاشلة فيما يخص الصداقات؛ أو إعادة التفكير فيما حصل؛ ما حصل مريع حقا ومهين؛ حتى السيدة السمينة التي كانت تحشو فضولها في مكالمتي أشفقت علي واستهزأت بي وأنا القادمة من بحث روتيني من طرف الدرك.. يا إلهي صرت في دقائق معدودات متهمة بتهمة مشبوهة؛ كان شيئا لا يطاق.

ولكن سيمان أتت مع الساعة العاشرة؛ كنت ملتصقة بسريري؛ أحبس جموح اليأس بحنجرتي؛ ولم أكن قد أكلت شيئا طوال اليوم ما عدا لقيمتين في الإفطار؛ لم تكن لدي رغبة في فتح باب شقتي لأي كان؛ ولكني أحسست بخجل تجاهها فهي حتما قد جاءت لتطمئن علي بعدما يئست من دق باب هاتفي:

–ما بك، شاحبة؟

– لا شيء يا سيمان مجرد تعب.

–آه أنا آسفة حقا أمرهق إلى هذا الحد السفر إلى وزان؟

–لا يا سيمان لا تقولي ذلك أرجوك؛ أنا تطوعت لمساعدتك، ولكن يبدو أن ظروفي النفسية لم تكن على ما يرام هذا كل ما في الأمر.

–ولم لا تجيبين على الهاتف؟

–لأني لا أريد أن أجيب يا سيمان؛ أحس أني بداخل متاهة؛ أعتذر منك يا صديقتي، فأنا هكذا طباعي سيئة أحيانا وغريبة وغير منطقية.

بلكنة باردة: لا عليك؛ فإذًا ماذا ستلبسين غدا لموعدك مع زاهر أنسيت؟

–مهلا.. سيمان أنا لست في حال جيدة لهذا الموضوع حتى أني فعلا قد نسيت الأمر.

–كيف تنسين أمرا كهذا؟ انظري لقد جلبت لك فستانا أسود كلاسيكيا يليق بك لم ألبسه قط؛ لا تنسي وضع القليل من الألوان لكي لا يخيفه هذا الشحوب؛ ثم تجنبي عطرك المليء بعود الصندل والحنضل.. زاهر لا يحب هذه الروائح القوية.

–وكيف عرفت أنه لا يحب الروائح القوية؟

–لأنه رجل قادم من مدن البحر؛ لقد قيل لي أنه من الريف.

–طيب؛ سيمان شكرا على نصائحك عزيزتي، لكني لا أدخل في خانة أي من النساء.. أنا كائن متجرد من التبعية..

–لا تبدئي محاضراتك الغبية.

–طبعا.. غبية.

–ثم صديقتي هذه هدية مني إليك.. عقد فضة به خنجر أمازيغي حر.

–أووه جميل حقا؛ لكني لا أقبل الهدايا أيضا؛ ولا أريد أن أحس أن ثمة جزاء من وراء تطوعي.

–ما بك حساسة؟ لا، أنت على غير عادتك اليوم.. هيا السلسلة أمامك اعتبريها هدية عيد ميلادك القادم أو الفارط كما تحبين. ثم وضعت قبلة على خدي وذهبت.

في لحظة ما كنت أود أن أسألها عن عبدالسلام إن كانت تعرفه لتفك لي شفرته ولكن ثرثرتها الزائدة حالت دون ذلك.

كانت لقاءاتي مع زاهر تمر بشكل عادي مثل كل مريضة مع طبيبها الماهر؛ كل ما يمكن أن يقوله داخل عيادته لا يتعدى ما يمكن أن يُقال بالعادة؛ تعلقت به سريعا؛ لأن هذا النوع من الرجال؛ الذين لا يفسحون لك فرصة الكشف السريع ممتعون؛ يتركون لديك طمأنينة أنه قد يكون الاختلاف؛ قد يكون السمكة السابحة في عكس التيار؛ هو يترك مجالا لعيش حلم مواز أو وهم مواز؛ وكلما تقرب هذا النوع بتعفف وكبرياء اتسعت بداخلك رقعة الخيبة أو عَلَا سقف التوقع؛ ذلك وأن زاهر ظل مراوحا بين الصداقة والجوار؛ واضعا حدا للأقاويل التي روجت عنه: إنه زير نساء.

ثمة فرق بين امرأة لاصقة وامرأة لصيقة؛ ثمة فرق كبير؛ حتى اقترح علي هو بنفسه أن أساعده في استعادة اللغة العربية التي ودعها في صفوف المدرسة الابتدائية؛ كان يبدو لي أبا حين كان يبعث لي برسالة يخبرني فيها عن الجو الغائم صباحا وبأن أرافق مظلتي الحمراء معي؛ كنت أراه أخا حين كانت يداه المُعالجة لآلام الناس تسود من تغيير إطار عجلة دراجتي الهوائية؛ كان أما حين يبتسم لي مع الصباح ويهمس لي حين نلتقي: ربي معك.

كان إنسانا بسيطا رغم وسامته الفادحة؛ لكني كنت أنا.. أنا وفقط.. بجنوني وعفويتي وخصلي الحمراء الطائرة ووجهي المستدير.. كنت غموضا بحجم متر وسبعين و٦٥ كيلوغراما؛ غموضا يقترب من زاهر ليحنو على هذا الطيف البائس الجبان الذي خلّف وراءه سوء الفهم والظن.

كنا نلتقي بالعادة في مقهى «ياسمينة» بأعلى رياض بالشاون حيث اصطكاك الريح مع الصوت يخلف صدى حلوا سائغا

ولذيذا؛ نضع فعليا على الطاولة قواميس اللغة لأشرح له بعضا من تعقيداتها؛ ولم أكن ضليعة ولكني كنت الأحسن مستوى:

–إن اللغة الروسية أبسط وأنت تطلبين مني أن أشرح معنى «توغّل» (ثم يبتسم بأسنانه الخالصة من كل العيوب التي يمكن لأسنان البشريين أن يقعوا فيها طفرات أو وراثة!) لقد عشت خمس سنوات هناك بموسكو؛ أحسست أن دماغي قد توقف لأعوام هناك بسبب الضغط والوحدة والغربة.. واللغة الباردة جدا.

–خصوصا وأنت ابن الريف.

–هل أنتِ مستعدة للارتباط؟

هنا توقف الريح عن اصطكاك بالصوت؛ وحسبت أني لم أسمع ما قيل وظللت قرابة نصف الثانية أحملق بالقواميس المصفوفة أمامي؛ كان تعاطفه قويا إلى حد أنه أعاد سؤاله: هل أنت مستعدة للارتباط؟ ادعيت أني أصبت بصمم أو كان علي أن أبدو متفاجئة أو متناسية.. فجربت الصمم؛ كنت أتوق لأتخلص منه أو أن أتصرف بحكمة؛ لكن كيف يريدني أن أستقبل حبه وهم لم يعلموا الفقيرات كيف يتعاملن مع سلاسل الماس والذهب؟

–لم تجيبي.

وفضلتُ أن يقرأ كل ذلك في هذا الارتباك المهول الذي طالني: هل يمكننا أن نكمل الحصة إلى يوم آخر؟

–نعم سأنتظر جوابك إلى يوم آخر.

كنت منذهلة وعلى قدر من الحزن المختلط بالفرح؛ أو أنا على ما يبدو من هؤلاء الذين ينتظرون شيئا بقوة وحين ينالونه

يصابون بإحباط عظيم؛ أليس هذا ما كنت تسعين إليه؟ لماذا هذا الحزن اللعين.. وهو بجانبي نسير نحو نفس الزقاق ليصعد أحدنا بالعمارة المجاورة وأصعد أنا بالمقابل؛ كيف يفكر الآن بي؟ ما كل هذا الحزن الذي يصعد كأن الدنيا قد وقعت فوق رأسي؟ هل فكرة مطلقة فكرة سيئة؟ تخافين من هذا اللقب صحيح؟ تعتقدين أن الرجال كلهم بنفس مستويات الوحشية.. أحببته ولا تريدين لهذا اللقب الضحل أن ينهي على سعادتك؟ كنت بين كل حين وآخر أنظر إليه وهو سعيد غير آبه حتى لجوابي المقيت؛ حتى في لاجوابي كان عاديا وكان يبدو عليه هدوء ما؛ بينما لو استطاع فقط أن يقرأ جزءا صغيرا مما أفكر فيه الآن؛ لم فكر في أن يرتبط بي؛ ما الذي سيضيفه وجودي بحياتك يا زاهر؟ أنت لا تعرفني.

ولأن سيمان كانت تعرف كل صغيرة وكبيرة؛ فإنها صرخت من الفرحة لحظة معرفتها للخبر؛ كما قالت: لقد سقط الشرغوف في الشبكة!

عن أي شبكة تتحدثين يا سيمان لو تعرفين أني صعدت وبكيت كثيرا في غرفتي؛ ولم أشأ أن أبعث رسالة «الليلة السعيدة» أو أن أتمنى لنفسي «الليلة السعيدة»؛ لأني وصلت للنقطة الصفر؛ للحلقة المفرغة؛ للنهاية البئيسة؛ للاكلام؛ ما هي الإجابة التي يمكنني أن أستعملها:

لا شكرا، لا أريد ارتباط.

نعم يا زاهر، أنا في قمة احتياجي لذلك ولكني امرأة مطلقة مريضة وخائفة وتركت عائلة من وراءها.

لا ونعم!

مـاذا سـأقول؛ هـل سـأعري عـن مـاضيّ الحزيـن.. عـن طليقـي الـذي كان يبرحـني ضربـا وكاد أن يقتلـني بسـكينه مرتـين؛ وأن أرتجيـه ألا يفعـل هـو ذلـك معـي يومـا مـا؟ أم سـأكمل فقـراتي البهلوانيـة والتظاهـر بـألا شيء سـيئ؛ حيـاتي في منتهـى الجمـال وأن الصـورة المرممـة والملونـة الـتي ركبتهـا بوسـاوسي وقهـري تجعلهـا كذبـة صادقـة قـد صدقهـا الجميـع وسـتصدقها بـدورك كذلـك؟

–ما هو الارتباط في قاموسك يا زاهر؟

–كمـا عنـد جميـع البـشر؛ حـب وعائلـة وأولاد.. أريـد أولادا يشـبهونك.

–هذا كلام كبير يحتاج إلى تفاسير مقنعة.

–ليـس ثمـة مـن قناعـة أكـبر حـين يتعلـق الأمـر بفكـرة تكويـن عائلـة مـع سـيدة صديقـة؛ بسـني الأربـع والأربعـين هـذا مـع هـذه الوحـدة والرتابـة؛ أهـم شيء كنـت أبحـث عنـه هـو امـرأة جيـدة للحيـاة والصداقـة.

–لكني مصابة بالوسواس القهري و...

(قاطعني) ماذا لو لم يهمني أي شيء من ماضيك.

–أي شيء؟ لا شيء؟

–لا شيء؛ بالمقابل دعي ماضيّ أيضا بالجانب؛ اتفقنا؟

وترك الكرة مرة أخرى بملعبي..

***

كنت أعيد التنقيب في سلة القمامة لأتأكد من أنني لم أرم شيئا مهما؛ ثم أحمل الورقة من جديد وأعيد قراءتها وأعلم تمام العلم أنها تذكرة للسفر لن أحتاجها في شيء؛ ولكني أخاف ألا أكون قد قرأتها جيدا كأن يتهيأ لي أني رميت هويتي أو بطاقة سحب النقود.. وهكذا؛ العودة إلى دوامة الألم من جديد؛ كنت حينها لا أجد صدرا واحدا طيبا من غير سيمان؛ انهرت كثيرا في تلك الأيام لأنني لم أستطع فيها اتخاذ قرار واحد؛ ولم أجد بدا من أن أحكي لها على كل شيء؛ وضعت أسراري مثل الثملين في الحانات المنسية؛ الذين يحملون أوجاعهم ويمرغدون قساوة الحياة برشفة كحول حارة ومرة؛ لو أن السكارى وجدوا القدرة على الفضفضة بما يخالج قلوبهم لما غيبوا العقل عنوة؛ فلماذا السكارى لا تثمل قلوبهم؟ لم تزيد حنانا وعطفا؟ لم يجهشون بالبكاء على أرصفة الطرقات؟ وكلام الليل يمحوه النهار.

وحين أمسكني عبدالسلام من يدي عنوة وأنا أسحب بعضا من نقود آخر الشهر؛ كانت السنة الجديدة تبدو في زينة أشجار الأرز والكستناء المزيفة بالمقاهي و«المحلبات» و«الفنادق»؛ والبهرجة اللعينة هذه لم تستثن شيئا؛ «بابا نويل» النحيف يجر ويلاته معه على طفلا يهتدي إليه ويلتقط معه صورة مقابل دراهم معدودة؛ كان قد قال لي أنه تعب من مراقبتي وتعب من غبائي أيضا؛ وعلي أن أستفيق وثمة مؤامرة تحاك من ورائي.. كنت لا أصدق عبدالسلام وأعتبره مريضا نفسيا أكثر مني؛ أعتبره مهلوسا من درجة فارس؛ ولم تتغير نظرتي الأولى عنه؛ وحتى أني لم أعره مبالاة؛ فضلت أن أستل منه يدي؛ وراح هو يكمل حديثه ويتقافز من أمامي مقنعا إياي بضرورة الحذر؛ في لحظة

مـا صرخـت بوجهـه: مـن أنـت لتتدخـل في شـؤوني وحيـاتي؟

–أنـا شـخص يحبـك ويخـاف عليـك؛ ثـم غـير نـبرة صوتـه لتصبـح أكـثر جديـة «غـدا إن طلبـت منـك سـيمان السـفر لجلـب سـلعة جديـدة لا تذهـبي».

كنـت سـاعتها في موعـد جديـد مـع قلـب الأحـداث؛ كيـف عـرف عبدالسـلام أن سـيمان سـتطلب مـني مجـددا أن أجلـب لهـا سـلعة؟ صعـدت إلى البيـت وجلبـت أوراقـا صغـيرة وكتبـت عليها عبدالسـلام وسـيمان:

سـيمان تدعـي دائمـا عـدم معرفتهـا لعبدالسـلام وتتحـاشى الحديـث عنـه؛ عبدالسـلام سـبق أن أنقـذني مـن ورطـة كبـيرة، مـاذا لـو كانـت سـيمان تشـتغل في شيء مشـبوه؟ لـم أوقفـني الـدرك؟ مـن كان وراء الوشـاية الكاذبـة؟ هـل يمكـن أن يكـون عبدالسـلام بريئـا لهـذا الحـد؟

–لا لـم يسـبق لي أن ذهبـت لبيـت سـيمان بدعـوى أني مريضـة بالوسـواس القهـري ولا يمكنـني الدخـول لبيـوت الآخريـن؛ أنـا لا أعـرف عاداتهـا؛ بقيـة أصدقائهـا؛ لا أعـرف تفاصيلهـا الصغـيرة.. أعـرف دكانهـا فقـط.

–ولـم يسـبق لي أن تحدثـت مـع عبدالسـلام حديثـا حقيقيـا مطولا يكفـي لأقتنـص منـه الكـذب مـن الحقيقة.

–وكيف أفصل الحق من الباطل من لغته؟

كان عـلي أن أفـك لغـزا نبـت قبـل أن يفـوت أواني؛ وكمـا توقـع عبدالسـلام اتصلـت سـيمان بصـوت أقـرب للخافـت تتوسـلني أن أذهـب غـدا إلى وزان مـرة أخـرى لجلـب سـلعة جديـدة؛ كنـت عـلى

وشك أن أغامر بالنعم؛ ولكن كان صوت عبدالسلام وهو يتوسلني ألا أذهب كان الأبقى؛ ما الذي سيجنيه من عدم ذهابي؟ ليس له لا ربح ولا خسارة في الموضوع، وهل سيمان كانت لتحضر لي مصيبة داخل السلعة؟ وما الذي ستجنيه؟

قلت متجاوزة صوتها الخافت بصوت أقرب لما فعلت: أعتذر عزيزتي فأنا مريضة أيضا.

أحسست أنها حولت الصوت من الهمس إلى الأنياب: عفوا؟ لا تعتذري بل غدا حاولي الذهاب ليس لي من أعتمد عليه غيرك.

تحولت اللعبة هنا أو لعلي استيقظت قليلا من سباتي العميق: سيمان لن أذهب عزيزتي؛ في المرة الفارطة انهرت من حالتي النفسية فأنا لم أعتد بعد جو السفر المباغت.

–لن يقع أي شيء لك؛ خذي زاهر معك؛ أنا أقترح أن يذهب معك زاهر هكذا سيكون للسفر معنى. ثم تضحك.. كانت تضحك فعلا!

لقد خالتني سيمان مريضة نفسية فعلا؛ أنا مريضة نفسية حقيقة لكني في أشد وأبهى حالات وعيي وإن غيبته بفرط الإنسانية؛ خالتني مجنونة ليس لي حدود أو ضوابط أو قيم أو أني مثلا لا أجيد استعمال «لا» في قاموس اللغة؟ لا عزيزتي لقد استعملتها كثيرا وهي من قادتني إلى الشاون وإليك بالتحديد.. مر كل هذا الحديث برأسي فيما كانت هي تحاول باستماتة أن أذهب وحين يئست أحسستها وكأنها تدس تهديدا خفيفا وسط حديثها: أوك صديقتي، تذكري هذا الموقف جيدا؛ ليلتك سعيدة.

كان علي حينها أن أرن على هاتف عبدالسلام:

–كنـت أعـرف أنـك سـتتصلين؛ مشـكلتك أنـك لا تعرفـين النـاس هنـا ولا تريديـن أن أوفـر عليـك الطريـق.

–كيف عرفت أنها ستتصل؟

–بـل كيـف ضحيـت بنفسي في المـرة الفارطـة وتحملـتُ عنـك تهمـة مشـبوهة؛ أنـت لا تعرفـين أن سـيمان قـد دخلـت السـجن مرتـين بتهمـة تهريـب المخـدرات؟ أنـت لا تعرفـين هـذا.. طيـب وأنـت أيضـا لا تعرفـين أنهـا طليقـة زاهـر وأنهـا تبيـد كل امـرأة تقـترب بـه أو فلنقـل هـي تسـتدرجكن للوقـوع بحبـال عشـقه ومـن تـم تحيـك لـكل ضحاياهـا جريمـة تبعدهـا عـن زاهـر وعـن المدينـة بأكملهـا؟

كانـت دموعـي تنهمـر بتلقائيـة حـتى أن بـردا أصـاب قميـصي مـن بلـل عيـني؛ كنـت غـير قـادرة عـلى وضـع جملـة مفيـدة؛ بتلعثـم قلـت:

–السـجن لا يعـني تأكيـد تهمـة و... قاطعـني عبدالسـلام ضاحـكا مثـل عاداتـه المرحـة:

–مـن أي كوكـب جئـت؟ في أي مدينـة فاضلـة تعزلـين فيهـا نفسـك؟ لـولا أني أحببتـك فعـلا لمـا تكبـدت العنـاء لأتعـب حنجـرتي معـك؛ مصدومـة الآن؟ اسـتفيقي إنهـا أفعـى بيضـاء وهـذا أقـل مـا أصفهـا بـه.

–ولمـاذا تركتـني أسـكن بهـذه الشـقة منـذ البدايـة. وكانـت دموعـي لا تـزال منهمـرة.

–لـو تتذكريـن كـم العيـوب الـتي أتحفتـك بهـا لحظتهـا لكنـك صرخـت بوجهـي؛ مـا عسـاي كنـت لأفعـل أمـام رأسـك المتصلـب.

«جئت لبلاد السكاكين
لم أكن سكينا
أنا الجرح».

مثلما كتب «رين هانغ» هذا الـ»هايكو» البديع؛ كتمت صرختي وعتقتها دمعا؛ كانت هذه السطور معلقة أمامي في إطار مموج من حديد مطلي بالذهب المخملي به القليل من الصدأ اشتريته مع سيمان من الخردة «سوق الآثاث المستعمل»؛ وحين طلبت من خطاط بالمدينة القديمة أن يكتب لي هذا الهايكو ابتسم وقال: مؤلمة!

لقد علقتها هنا متمنية أن أكون قد أخطأت التقدير؛ ووضعتها هنا لأني كنت أقصد مدنا بعيدة في الذاكرة؛ حيث إن الشاون عانقتني بألوانها التي غيبت انتباهي عن رؤية الحقيقة؛ وحتى حين واجهت زاهر بحقيقة الأمر رفض أن يضع صلته بصلة سيمان أو أن تكون مثل عقبة تقف أمامنا! كيف تتركني مع صديقة تبيت لي الضغينة والمكائد؟

لم يكن لديه جواب ولم يكلف نفسه عناء الإجابة؛ قاومت تصديق الحياة المنصفة؛ قاومت تاريخي لوحدي؛ قاومت مرضي لوحدي.. حتى أنت يا زاهر تركتني لأقاوم أجوبة فجة؛ فراغاتها أكثر من أي احتمال كلام.

بدا وجه زاهر كأنه متواطئ مع الغدر؛ يداه اللتان لم تتعرقا؛ عيناه اللتان لم تثبت في مكانهما؛ ثبات نبرة صوته؛ أنيابه البيضاء التي لمعت أكثر من ابتسامته؛ ولكني لم أتردد حين هممت

بالانصراف من أن أقول: «لقد كان جوابي «نعم» بالمناسبة»، ثم تساقطت دموع غزيرة؛ دموع كاللتي بكيتها أواخر غشت؛ دموع صامتة تسيل مثل واد عتيق يعرف مسيره؛ سرت غير متقطعة ولكنها بنفس الصبيب؛ غير أنها بلا مذاق؛ كماء عذب تفجر من رحم أرض عقيم؛ نزل مبللا كل شبر بجسدي؛ كانت صورة جدتي حاضرة؛ عينا أمي الثابتة في المواقف؛ صوت إخوتي؛ كانت هذه الصور تخطو خطواتها معي؛ لا أستطيع البقاء هنا أيضا هذا ما خطر على بالي لحظتها؛ ولو مؤقتا؛ ولكن دمعي كان غزيرا فعلا؛ وتداخل المطر بحباته العملاقة يقرع على رأسي الحسرات والأسى؛ الحياة التي كنت ترجينها تخليتِ عنها؛ العائلة التي تخليتِ عنها.. تخلتْ هي أيضا عنكِ؛ السرير بالصالون جانب النافذة؛ طيور الجدة فوق السطح حين تأتي بحثا عن صوتك؛ الأمان القاسي في البيت اشتاقك؛ سطوة الأشياء؛ «اللا» التي يرفعونها شعارا تحنُّ إليك؛ صديقات الدراسة حين يعدن بأطفالهن الصغار وبعوائل شبه مفككة تبحثُ عنك الآن؛ ربما لان قلب زوج العمة.. لربما أنا إنسانة سيئة! أنا إنسانة سيئة بالفعل؛ تركتُ ما يفعله البشر واستبدلت الشاون بشمس؛ استبدلت سيمان بمينة؛ استبدلت الألوان بالأركان؛ استبدلت زاهر بالمطر؛ حاكمت عبدالسلام.. إنها أواخر السنة؛ لم يتبق غير يومين لأفتح عاما جديدا قد بدا صداه من هذا الدمع الذي لا يريد أن يتوقف.. هذه الحكايات الحزينة التي لا تنتهي.. هذا العذاب النفسي الذي لا يهدأ.

-٨-

أبريل من العام الجديد

أعجبني جدا هذا الوضوح الذي أتيت به من العالم الآخر؛ استكشاف أنواع الحب الذي يحبه لك الآخرون؛ لقد تبينت قليلا أنه ليس واحدا بالطبع؛ من أرادوا موتك ليسوا كمن تمنوا بقاءك؛ ومن تمنوا لك راحة أبدية هناك ليسوا كمن تمنوا لك الراحة إلى جانبهم؛ تبينت هذه الفروق الطفيفة بين كل حب وحب؛ لقد ميزت بينه وتمكنت ولو عبر الحدس أن ثمة معيارا آخر نستند إليه لنعرف الناس؛ إنه قلبك يا ستيفان! قلبك هو هذا العضو الذي بفضله ندرك الحس؛ وأنت لولا فضل «الغيبوبة الواعية» عليك؛ لما استطعت تحليل الكلام؛ التدقيق في نبرة الصوت ودقة الصدق؛ تحريت في هدوئك «الحب» وتلمسته عبر قلبك؛ وعلى أساس ذلك صنفت الناس مجددا؛ وأدركت -ربما متأخرا- أن قدرك عند الناس.. مختلف!

أنت تستحق فرصة ثانية كما سمعت من مرافقتك الجميلة «لوسيندا»؛ قلت لنفسك ذلك؛ بعد أن اختلف الأمر قليلا عن سابقه؛ وتحرك العقل قليلا نحو العاطفة؛ نحو فوهة البركان المشتعلة؛ نحو تلك الألغاز المبطنة التي تقودنا عميانا حيث جزء من الصواب؛ ذاكرتك العاطفية أصبحت قوية الآن لدرجة أنك استعدت آخر لحظات قبل تلقيك الضربة الموجهة على

رأسك حتى غياب الوعي؛ كانت لربما لحظات شبيهة بمشهد المد والجزر لشاطئ نظيف؛ كان بمثابة غطس في أعماق الموج حيث لا وجود لصخرة أو سمك قرش؛ بل سباحة متناهية السيولة؛ كأن الموت لم يعد مخيفا كما رُوِّجَ له؛ كأن ثمة بهذا العالم الرحب من هم أمس الحاجة إلى ظلك.

أنت لم تتوقع من نادل المقهى أن يكون سعيدا بذلك القدر؛ لم تتوقع أن تلك الأوروهات قد تشكل سعادة أنت بنفسك لم تتلمسها منها! ظننت لزمن أن الناس لا تسعدهم النقود! ولكن ها أنت تدرك العكس؛ والداك وماريا كان ليسعدهم أن تموت فيرثون المصنع! مابيلا أيضا المجرمة المتخفية في هيئة الملائكة! غير أن نادل المقهى ويانيس أثبتا وسط هذا الكم الهائل من الزيف أن النقوذ جزء من السعادة؛ لقد أذهلك هذا الاكتشاف أيضا! مثير للغرابة أنك أدركت متأخرا أيضا معنى الاستثمار في الحب! وأما الربح الذي تتوقعه فهو الأمن.. إنك ترفض أن تعيش في زمن قِطع الغيار! واستبدال المنتج قبل نهاية فترة الضمان؛ وانتهاء الاستهلاك بانتهاء مدة صلاحيته! قطعا ظللت وفيا للعلاقات غير أن المال يُفسد كل شيء؛ لقد فضلوا أن يقطعوا سبل عودتك طمعا في مالك؛ وقد قررت اليوم بلا تردد أن تخلصك من التفاهات وأشباه العلاقات؛ وأن تتحرر كليا من ارتباطات البيت والممتلكات والسيارات؛ لو تتخلص من جميع القساة بطريقة حضارية واعية أكثر مما كنت عليه من قبل؛ إنك استيقظت قليلا إلى هذا العالم؛ فتحت له قلبك وإخلاصك وعزلتك؛ وقطعت وعدا بالرجوع للشرنقة الذهبية المخلصة للشرور؛ إنما في هذا الوقت بالضبط والتزاما بالمستجدات التي

طـرأت عـلى حياتـك فإنـه مـن المؤكـد سـتبيع المصنـع.

أبريـل في باريـس أتى مسـتلا سـيفه مـن جـب الشـتاء؛ فصـل معتدل قليـلا إلى بـارد ليـلا؛ والسـماء الـتي تفضـل الجلـوس تحتهـا ليسـت مغريـة كمـا يجـب؛ هـذا العـام مثـل أعـوام كـثر.. شـهر فاضـح ومفضـوح؛ وليـس بكذبـه وادعاءاتـه بـل لركـود سـوق البورصـة وانخفـاض أسـهم المصنـع بعـد سـباتك.

***

أن يخونـك صديـق؛ قـد يعـني أنـك وثقـت بعـدو.. كانـت العمليـة برمتهـا مسـألة وقـت وأنـت تـزف لهـم خـبرا مهمـا في حياتـك:

–ستيفان سيتبخر.

لـم تكـن جملـة مفهومـة؛ وبالعـادة كلامـك برمتـه لـم يكـن بسـيطا أو قابـلا للفهـم؛ بـل إن محاولـة التعبـير لطالمـا شـكلت لديـك حاجـزا قاتـلا يحـول بينـك وبـين الآخريـن؛ لكنـك اليـوم كنـت دقيقـا؛ ولحسـن حظـك لـم يأخـذ والـداك وزوجتـك وماريـا وجـاك كلامـك بمحمـل جـد أو تحليـل ومعاينـة؛ بـل نُظـر إليـك كمريـض اسـتعاد جـزءا مـن لياقتـه بفضـل الترويـض الطـبي والكثـير مـن الفحوصـات والأشـعة والمعاينـة والفحـص والفحـص المضـاد؛ الأشـعة السـينية والتحليـلات الدمويـة والبوليـة والعصبيـة؛ كل ذلـك الوقـت بـدل الضائـع في مبـاراة العـودة؛ ينُظـر إليـك بأنـك سـتيفان القديـم؛ وليـس سـتيفان الـذي تمكـن بفضـل الصمـت مـن اسـتعادة جـزء مـن طاقتـه العصبيـة الشـعورية؛ لـم يسـتوعبوا أن الغيبوبـة الـتي دخلـت

فيهـا اضطـرارا قـد أراحـت قدراتـك البصريـة الهائلـة وحـدت مـن نشـاطك الزائـد في مناطـق الدمـاغ المسـؤولة عـن الإدراك البـصري الخاصـة بالتعـرف عـلى الوجـوه والأشـياء؛ وبالمقارنـة مـع دمـاغ السـوي مثـلا فقـد قـال لـك «دك. فـارس» أن هـذا الاختـلاف بـين دماغـك كمتوحـد ودمـاغ السـوي لا يمكننـا وصفـه بالقصـور أو الاختـلاف إنمـا يتعلـق الأمـر هنـا بطريقتـين في الاشـتغال فقـط!

إنهـم لا يدركـون ذلـك يـا سـتيفان؛ لا يفهمـون أن ثمـن ذكائـك المذهـل والخـارق أحيانـا هـو في عـدم تمكنـك مـن ربـط علاقـات اجتماعيـة بالتعبـير عـن حاجاتـك ومشـاعرك وأحلامـك وأحزانـك معنـا.. لكنـك اخـترت أدق الكلمـات الآن؛ وليسـت تعـني عنـد عائلتـك شـيئا؛ فـكي تتبخـر يجـب أن تكـون مـاء! ولا حاجـة لـكي يسـتوعبوا أنـك «مختـل عقليـا» وأن مابيـلا كانـت شـبه متأكـدة أن الضربـة عـلى الـرأس وإن لـم تكـن موفقـة فإنهـا سـتذهب بمـا تبقـى مـن عقلـك!

ولقـد كان تصرفـك مهذبـا للغايـة؛ وابتسـمت في وجوههـم واسـتأذنتهم في الذهـاب حيـث بدايـة عهـد جديـد!

إن السـتة أشـهر برأسـك كانـت كافيـة جـدا لتنظـم حياتـك المسـتقبلية المعلقـة بـين الوجـود والعـدم؛ وهـا أنـت سـتنفذ كل مخططاتـك بهـدوء؛ كمـا عودتـني دائمـا؛ هـدوء خطـير ومتثائـب نحـوي؛ وأحسسـتُ في قصتـك بوجـود شيء مـا رائـع ومميـز في وجدانـك النقـي؛ لسـت تائهـا هـذه المـرة؛ متأكـد ممـا تفعلـه؛ واثـق مـن القـرارات الـتي اتخذتهـا؛ بقلبـك الحقائـق برمتهـا؛ وبعقلـك الخطـة الـتي آثـرت أن تسـير وفقهـا؛ وأول شيء اخترتـه لهـذا الصبـاح بيـع المصنـع؛ لذلـك بـدا نهوضـك مـن غرفتـك عزمـا مؤكـدا؛ أزلـت البيجامـا الرماديـة ونظارتـك الطبيـة ووضعتهمـا فـوق

حـوض الاسـتحمام؛ ثـم احتضنـت قطـرات المـاء الدافئـة وكأنـك كنـت تـودع شـقتك أيضـا بهـذه البدايـة؛ لنتخـلى عـن كل شيء قلـت في نفسـك؛ ليتخـلى سـتيفان عـن كل مـا مـن وسـعه أن يكبلـه ويربطـه بأحـد؛ سـيتبخر سـتيفان مثلمـا تتبخـر قطـرات هـذا المـاء في السـقف؛ وسـوف لـن يضيـع هـذا الدخـان الكثيـف غـير المـرئي؛ سـيعود مـاء آخـر.. في مـكان آخـر؛ مثـل سـتيفان تمامـا؛ «يـالله؛ إنهـا نعمـة أن يعـود سـتيفان إليـك؛ ويعـود إليـك ليستكشـف عظمتـك مـن جديـد ويشـكرك مـن جديـد؛ وسـيكون سـتيفان كمـا وعـدك في ذلـك الصمـت أنـه سـيبذل قصـارى جهـده ليكـون المـال والعطـف في خدمـة الإنسـان.. آمـين».

إن الطريـق الـتي سـلكتها باتـت معتـادة اليـوم؛ وحمـدا لله أنـك قـد كنـت اقتنيـت شـقتك الفخمـة وسـط باريـس؛ لا تحتـاج عنـاء كي تصـل إلى السـيد «كريسـتوف» محاميـك الخـاص؛ والسـيد «كلـود» المتحمـس لـشراء المصنـع مـن «غـبي» كمـا سـبق أن وصفـك بذلـك في كلمتـه الافتتاحيـة إثـر اجتمـاع لـه بشركتـه الخاصـة؛ ولا يحزنـك ذلـك وأنـت الـذي لا يكـترث لمثـل هـذه الأقاويـل المغرضـة الـتي يحـاول الاقتصاديـون بهـا الترفيـه عـن أنفسـهم؛ بـل أنـت لا يصلـك المعـنى الحقيقـي للكلمـات الـتي نقولهـا لنوجـع بعضنـا البعـض؛ ووددت أن تقـول لنـا أن مـا يوجعـك حقيقـة هـو أنـك لا تسـتطيع إقامـة جـسر تواصـل عـادي معنـا؛ وأنـك بالفعـل لا تفهـم المجـاز ولا تحتفـظ بقامـوس السـب والشـتم والإطـراء؛ وكل هـذه الكلمـات ربمـا بالنسـبة إليـك لا تخـرج عـن إطارهـا الكلامـي.. كأنهـا بـلا معـنى عنـدك! وهـذا أمـر جيـد جـدا؛ حيـث نتمـنى جميعـا أحيانـا أن نصـل لهـذا المسـتوى العـالي مـن الـرقي والتعـالي عمـا يُقـال ويروجـه النـاس

عنا! وبالمناسبة فإن بيع المصنع بثمن «غير معقول» هو ليس غباء لو عرف كلود المغزى من ذلك كله!

لقد عرجت على المقهى الخاص بك؛ وعرفت حينها أن نادل المقهى صديقك قد توفي بنوبة قلبية في بيته قلت:

– لكنه زار ستيفان منذ أربعة أشهر؛ وقال كلاما جيدا؛ وكان ستيفان يريد معانقته؛ لكنه لم يستطع تحريك شيء.

– «محمد» كان يحبك كثيرا ويعزك؛ ليرحمه الله (أردف النادل) إننا لم نصدق بعد خبر موته؛ كنتَ عزيزا عليه سيد ستيفان – ليرحمه الله.

أحسست بوخز بالقلب؛ كأنه حزن؛ وظل وجه «محمد» ببالك ولم تستطع ألا تفكر فيه؛ إن كلماته لازالت عالقة ببالك؛ كان ممتنا من أجل تلك الأوروهات التي لم تكن تعني لك شيئا إطلاقا؛ ولكنك فهمت أن في خبر موته إشارة إليك بأنك في الاتجاه الصحيح للأمور؛ إنك تشكر القدر بقدر وجودك؛ الآن وحقيقة؛ وأنك لن تنسى التجربة ما حييت.

قدماك وأنت تجرهما حزينا بسماع وفاة «محمد» قاصدا مكتب محاميك السيد «كريستوف» كانتا رشيقتين؛ تجرانك حيث الخلاص؛ خطوات ممنهجة ومرتبة تحط على الإسفلت دون أن تصدر ضجيجا؛ حذاؤك كان رياضيا؛ غيرت طريقة لباسك الأنيقة والمرتبة حد الإزعاج؛ ولم تعد غارقا في جديتك! حذاء رياضي وقميص قطني بلون الزرقة وسروال الجينز؛ حاملا محفظة خفيفة وصغيرة على ظهرك؛ بها قارورة ماء وفوطة ونظارتك الطبية وبعض الأدوية التي يجب أن تؤخذ بانتظام؛ محفظة للنقود

وهاتف حقير وصغير ليس على الموضا! وقد بدا على وجهك بعض علامات التجاعيد الصغرى؛ تحركت نحو باب المكتب بإخلاص؛ حتى أنه قد يظهر جليا من مشيتك أنك تريد أن تنهي هذا البيع بأي طريقة ممكنة.

«كريستوف» خلص الأمر رجاء دون أن نطيل الحديث.

نظرت باقتضاب إلى غريمك السيد «كلود» وقد يمكن لأي مار من أمام المكتب أن يقتنص حماس السيد «كلود» وضجرك؛ وأما السيد كريستوف فقد ضم حيرته لرزمة الأوراق وحاول تخليصكما من عبء الوقت:

– السيد ستيفان يبيع لك المصنع بثمن 2 164 320 أورو.

– حسنا أنا أقبل ذلك.

– إذًا مبروك، وقعا على العقود!

كان «كلود» لازال يظن بأنك غبي؛ ويبتسم بخبث لسذاجة الموقف؛ استدرت له وقلت:

– ستيفان مدين لك؛ لقد خلصته من شيء ثقيل على قلبه.. ثم استدرت للسيد «كريستوف»: سأضع عائدات بيع المصنع في حساب جمعية «قلب ابتسامة للاطفال المتوحدين».

سحبت الكرسي إلى الوراء؛ استخرجت الفوطة الصغيرة؛ مسحت عرقا تصبب بفعل الدواء من أعلى جبهتك؛ حملت حقيبتك ومشيت نحو باب الخروج دون أن تلتفت.

لم يكن وقتا مناسبا إلا لترتيب مواعيدك المستعجلة؛ كانت الخطوة الثانية: أن تتخلص من شقتك بباريس.

حسنا؛ كيف كان بإمكانك أن تبيع مأواك المتبقي؟ هل ستظل بلا مأوى؟ متشردا في وقت أنت في أمس الحاجة فيه للراحة من تعب الجسد الذي ألمَّ بك العام الماضي؟ هل سترتكب حماقات مجانية غير محسوبة العواقب؟

وحدك كنت تملك الجواب الأصح؛ لكنك عدت باكرا صباح اليوم التالي إلى المقهى لتحتسي قهوتك الصباحية؛ بنفس قميص البارحة وحذائك وسروال الجينز؛ كأن ستيفان ما قبل الغيبوبة تبخر؟ لم يعد يراك الناس بنفس هندام قواعد اتيكيت المدينة الفرنسية! إنك الآن أشبه بسائح مهاجر مطحون بالتفكير والقلق؛ أخذت الجريدة من غير عادة؛ فحطت عيناك على إعلانات البيع والشراء؛ وأول ما تبادر إلى ذهنك نشر إعلان لشقتك:

«شقة كبيرة لسيد يريد أن يتبخر؛ وهو يهديها لزوجين مهاجرين لا يملكان مأوى».

استخرجت قلما من محفظتك؛ وأدرت ورقة الفاتورة للجهة الفارغة؛ تركت ثمن القهوة السوداء نظرت بفضول لما سيكتب في الجهة المقابلة؛ إنهما وجهان لنفس المصير؛ غير أن للقهوة ثمنها البارز باللون الأسود القاتم؛ أما الشقة فهي هدية بالمجان لزوجين مهاجرين!

وقد أعدت كتابة الجملة بتأنٍ ورفق: «شقة كبيرة لسيد يريد أن يتبخر؛ وهو يهديها لزوجين مهاجرين لا يملكان مأوى».

وحين ذهبت عند السيد «كريستوف» فإن حنقا كبيرا كاد ليخرج من عينيه: هل جننت؟!

قلت بصرامة: أنت موظف عند ستيفان سيد كريستوف وإذا

تعـذر عليـك إكمـال الإجـراءات القانونيـة لإهدائـه، فالأمـر يرجـع إليـك؛ سـيبحث سـتيفان عـن شـخص آخـر ينفـذ.

–طيـب فكـر بالأمـر مليـا؟! أظنـك جننـت فعـلا! أيـن سـتعيش وبـأي نقـود؟

–من قال أن الناس يحتاجون لمنازل فخمة كي يعيشوا؟

–طيـب سـؤال في محلـه سـتيفان، رجـاء أنـا لا أتعامـل معـك عـلى أنـك مختـل أنـا أعرفـك يـا رجـل وأعـرف ذكاءك وعمليتـك ومعرفتـك بالأشـياء؛ ولكـن تقديـرك للأمـور الآن أصبـح خاطئـا! أن تبيـع المصنع بنصـف ثمنـه وتضـع العائـدات كلهـا في صالـح الجمعيـة فإنـه كـرم كبـير منـك؛ ولكـن إهـداء الشـقة! حقيقـة أنـا أرفـض أن أدخـل في هـذه الجريمـة المجنونـة!

–النـاس تفـرح للمشـاركة؛ هـذا مـا ظننتـه؛ محمـد مـات ولكـن مـا حـكاه عندمـا زار سـتيفان في الغيبوبـة كان شـيئا مؤثـرا؛ و...

يقاطعـه «كريسـتوف»: لقـد كـررت هـذا الـكلام كثـيرا؛ أعتـذر سـتيفان عـن مقاطعـة حديثـك لكـن كيـف حـدث ذلـك؟ أكنت تسـمع وتحـس؟ ثـم ابتسـم كأنـه غـير مصـدق؛ وكان غـير مصـدق بالفعـل.

–سـتيفان يا كريستوف كان يسمع كل شيء.

–تلـك هـلاوس صديقـي؛ وأثـر الضربـة القويـة؛ هـذه الأشـياء لا يمكـن أن تحـدث ولا يمكـن أن تعتمـد عليهـا.. هـذا سـوء تقديـر منـك! ثـم أنـا أعتـذر أيضـا لكنـك لسـت سـتيفان الـذي نعرفـه جميعـا عـلى الأقـل عمليـا؛ تغـيرت كثـيرا؛ ربمـا ظلـت لهجتـك هادئـة ونـبرة صوتـك حـادة إنمـا تغـيرت؛ شيء مـا فيـك ليـس عـلى مـا يـرام أكـثر تعقيـدا وغرابـة؛ والأمـر أنـك كل يـوم تطلـع بقـرار جديـد

أكثر حدة من سابقه؟ ستيفان إذا عرف والداك بأمر ما تفعله سيرفعان دعوة للحجر على ممتلكاتك بدعوى أنك جننت بعد الغيبوبة و...

–ولذلك ستيفان يتخلص من هذه الأشياء طواعية لأناس يستحقون ذلك بالفعل! أناس لا يعرفون من يكون ولا من حيث أتى ولا يعرفون شيئا عن ماضيه أو مستقبله؛ أريد الشقة لأناس صادقة؛ أرجوك ساعد ستيفان على ذلك؛ وهو ليس بمجنون؛ ستيفان يتكلم بالعقل ولا يريد أن يترك مجالا ليغلق عليه أحد مصحة الأمراض العقلية؛ لا تجعلهم يفعلون ذلك أرجوك.

–أنت لا تساعدني على ذلك! أنت لا تعرف والدتك يا ستيفان؛ احتمال كبير أن ترفع علي دعوة عدم تحري صحة سلامتك العقلية في تسيير شؤونك المالية!

–أنت محام كبير وذكي؛ أمي ليس بمقدورها أن تفعل شيئا حين لم أمت.

–ماذا تقصد؟

–لقد قلت لك أن ستيفان كان يسمع كل شيء؛ هل صدقته الآن؟

–وما الذي تنوي فعله بعد «إهدائك» للشقة؟

–رتب ستيفان كل شيء؛ لا تخف عليه؛ اكتب إعلانا على الأنترنيت كما كتب على الورقة دون إضافة أو نقصان؛ ثم حدد موعدا لثلاثة أزواج لندرس حالة كل واحد منهم ونعطي الشقة لأكثرهم استحقاقا. ستيفان يشكرك يا «كريستوف».

ثم سحب كرسيه بهدوء نحو الوراء وجر خلفه خطاه المتعبة

بالألم.

***

يـدا الفتـاة البـاردة تشـجعانه عـلى التحـدي الـذي ينتظـره؛ يداهـا النحيفتـان الصغيرتـان بأظافـر قصـيرة شـبه متجمـدة لـم تكـن يـده تكفيهـا لتدفـأ؛ بـل لعـل تلـك البرودة الشـديدة هي الـتي كانـت تمده بالتحفـيز الـكافي؛ إن الجـو البـارد ممتـع قـال لهـا بخفـت؛ ابتسـمت بضجـر وقالـت وهـي تسـحب يديهـا إلى جيـب المعطـف أنـه كان ليكـون كذلـك إن اسـتطاعا عـلى الأقـل الصمـود في الأيـام المقبلـة.. لـم يسـتطع أن يوجـه عبـارة أخـرى مطمئنـة؛ أو أن يسـتعطف صبرهـا بضمـة أكـبر مـن الريـح القارسـة؛ لكـن حـين أشـاحت بوجههـا إلى امـرأة تمسـك بيديهـا الاثنتـين توأمـين؛ توقـف هـو عـن تخمـين سـؤال متماسـك يمتـص كل هـذا الغضـب:

– هل تثقين بي سعاد؟

في داخلـه تمـنى لـو أجابـت بنظرتهـا العظيمة الـتي توحـي بالعبارات والاحتمـالات الجميلـة؛ دائمـا مـا كان يحبهـا عـلى طريقتـه الخاصـة؛ ودائمـا مـا كانـت أجوبتهـا قاسـية وواقعيـة إلى حـد كبـير؛ لكنـه لـم ينتظـر أن تلقـي جوابهـا القاطـع باللا أو بالنعـم؛ لقد حـاول ألا ينظر إليهـا؛ وألا يكتشـف مـدى خيبتهـا أو حزنهـا أو خوفهـا مـن القـادم؛ واكتفـى بالنهـوض مـن كـرسي الحديقـة الخشـبي؛ أمسـك كفهـا البـارد ثـم سـارا بجانـب جـسر «ميرابـو» العظيـم؛ وفي كل لحظـة تتخلـل أصابعهـا البـاردة أصابعـه يتملكـه حـذر مـن جوابهـا عـن سـؤاله

الطائش؛ ثم إنه لم يحدد سببا لهذا المشي المفاجئ؛ لربما احتاجت للجلوس والراحة؟ لقد أحس بندم ولكن دون أن يظهر ذلك فيما كان وجهها لا أثر فيه لشيء؛ ليست حزينة ولا فرحة؛ ولا كانت تستعد للجواب ولا يبدو عليها علامات التفكير والحيرة؛ كانت تمشي بيد باردة لا غير! إن هذا الوجه أعرفه جيدا؛ قال في نفسه؛ إنها غاضبة ويائسة لكنها تثق بي!

أحس بضجر كبير وهو يفارق أشجار الكستناء؛ ولعل الجو الصيفي لم يعد صيفا كما يحلو له أن يسمي نفسه؛ لقد أصبحت كل المواسم بباريس بردا وسلاما؛ لذلك احتفظ بقميصه الصيفي رغم الريح القارسة؛ يونيو أصبح محيرا للغاية؛ قال لها بجدية.. لم تجبه وفضلت أن تلتفت إلى قطة اختلفت معها في اتجاه النزهة غير المرغوب فيها؛ ثم أكمل غير مكترث لعدم حديثها: تعرفين يا سعاد؛ منذ أن عرفت أن تشابهنا الخلقي شبه المطابق للملامح قد ينقذنا من هلاك وشيك؟ أعني ماذا لو بقيت بطنجة مجرد عازف للبيانو! ولو بأفخم الفنادق! هل كنت لألتقيك؟ إن ثقة السيد «خوان» بإمكانية إنقاذ أشخاص في تحقيق أحلامهم حتى وإن كان بطريقة مريبة وغير قانونية هي التي تجعلني اليوم هنا معك.. كانت ليلة غريبة؛ حتى المطعم كان على غير عادته شبه فارغ؛ كان السيد «خوان»...

ثم أكملت سعاد سريعا: وكان السيد خوان يجلس في الطاولة العاشرة المقابلة لمنصة العزف؛ وحين عزفت مقطوعة «هوبكينز» (And the waltz goes on) نهض من مكانه وصفق لك بتهذيب؛ فلما شاهدته ذهلت من مطابقة التشابه بينكما.

–كأننا كنا توأما يا سعاد؛ كأنني رأيت وجهي بالمرآة مع اختلاف

بسيط في الأقدار؛ كان قدري فقيرا ينتظرني الإخوة التسعة في حي «مرشان» لإطعامهم؛ بينما السيد خوان كان رجل أعمال ناجحا وغنيا.

– فأعجب بعزفك وأذهل للتطابق بينكما حتى أن مدير شؤون الموظفين ذهل من طلب السيد خوان لإكمال الحديث معك على نفس طاولة العشاء.

– لقد شك في كوننا توأما وقد فرقتنا الحياة لولا أني أعرف أن والديّ لم يكونا بذلك القدر من الإيثار! كان قد قال كلمة واحدة: ما الذي تتمنى أن يحصل لك.. جاوبته بسرعة متسرعة: الهجرة إلى أوروبا.

– ثم قدمت إلى إسبانيا على أساس أنك السيد خوان بأوراقه وجواز سفره! تدربتَ على اللغة والقليل من حركاته وأسئلة روتينية ثم اجتزت الاختبار والحواجز بسلام.

– كان بإمكانه طبعا أن يسلك طريقا غير هذا ليحقق حلمي، ولكن السيد خوان به لسعة من الجنون ويحب المجازفة في كل شيء؛ قال ستذهب بشرط أن أثبت للحواجز والحدود أن العقل البشري والملامح البشرية لا يمكن الوثوق بها أو اعتمادها إطلاقا؛ إننا نثق بالأفعال فقط يا كمال!

– قصتك الممتعة مع السيد خوان أحفظها عن ظهر قلب من يوم زواجنا؛ وأنا كذلك أثق بالأفعال يا كمال؛ ثم انتزعت كفها من يده لتعدل من حجابها الذي بعثرته الريح.. ثم أردفت بوجهها الذي مال إلى شحوب؛ نحن لم يعد لدينا وقت إضافي بهذا البيت؛ علينا أن نرحل منه وإلا جاء صاحب البيت بالشرطة.

فضل ألا يجيبها في تلك اللحظة وانتظر مرور الباص ليتمكن من الهروب إلى حيث لا جواب حقيقي أو متسرع؛ لقد حقق أمنيته بالهجرة لكنه حتما لم يجد الأحلام الوردية كما كان يشاهد دائما من الجالية المغربية التي تعود كل صيف بسياراتها وبذخها السطحي لتهيج به شباب المنطقة العاطل؛ إنه يعرف حقيقتهم الآن؛ ويعرف أن الأوروهات التي تصنع منهم ومنهن أبطال الصيف ما هي إلا عبودية هنا؛ إن الرفاهية المؤقتة بالبلد تأتي بالكثير من ساعات العمل الطويلة؛ إن ثمنها بالكاد وحدة مثخنة بالتهميش وبعض العنصرية؛ إنها ليست أقل من تغيير السوء بسوء آخر؛ فرق طفيف في الجغرافيا مع تمدن خرافي ومعاملة أرق لاستحمال كل هذا العذاب!

تمددا في سريرهما الذي لن يعود سريرهما؛ نظر إلى السقف الأبيض الناعم وهو غارق في سواد دامس؛ لعبة اللون المتناقض لا تزال ذاتها؛ إن البياض على الرغم من حياد انطباعه يظل متفوقا على السواد في كل الحالات؛ هنا السقف يلعب دور النقاش البارد بين قارتين؛ لقد فكر في العودة المخيبة إلى طنجة؛ ولكن سعاد النائمة بجانبه لا ذنب لها في كل ما حدث! إنها يتيمة ذكرت نفسك بذلك؛ واليتامى لا يمكن اللعب باستقرارهم أكثر من اللازم؛ كان يجب أن تجد حلا فعليا كما قال السيد «خوان» علينا أن نثق بالأفعال فقط؛ إن البحث عن عمل الآن ضروري؛ سنتان مرتا على هجرته دون أن يتمكن من الاشتغال بغير ذي مهنة؛ إن التمسك بالفن فكرة ليست سيئة؛ لكن العزف على البيانو أيضا لا يوفر بيتا؛ إنه يصر على النجومية الفارغة وينسى أنه مغربي عربي سيحتاج الكثير من غسل الأواني بالفنادق

والمقاهي حتى يتمكن من إبراز نفسه فنيا لاحقا!

أقنع نفسه في ليلته الطويلة وأمل وهو يشرب فنجان الشاي الصباحي الأخير بمطبخ البيت بأن البحث عن بيت آخر ريثما يجد عملا هو الحل الأكثر صوابا؛ لكن أين وكيف؟ إن ما تبقى لهما سيكفيهما لاستئجار غرفة مع أشخاص لا يعرفهم؛ هو بالكاد مضطر وليس يجد كيف سيقنع سعاد بالفكرة؛ إنها مريضة في الأيام الأخيرة وربما تطلع نتيجة الاختبارات الطبية التي وضعتها آخر الأسبوع الماضي؛ لا يمكن أن يطلب منها فلسا آخر؛ لا يمكن حتى التفكير في هذا الأمر؛ لقد ظلت محاربة بما يكفي من أجل غروره الفني؛ ووقفت معه في الشدائد والويلات؛ واحتضنته حين كان غريبا وآمنت بطموحه حين تحملت عناء مساعدته.. أحس أن دوره الفعلي قد حان؛ إن سعاد ليست مجرد امرأة عابرة؛ إن رقتها في السنتين اللتين فاتتا عصرت أنانيته في الوصول إلى الهدف السريع؛ كان يعتقد أن الحظ حين يبتسم لأول مرة فإنه يظل بفمه المفتوح ببلاهة لنغترف منه الفرص متى اشتهينا! اعتقاد مراهق وبه الكثير من التسرع في الأحكام؛ بدأ يختلس نظراته نحو النافذة المجاورة محاولا تجميع بعض الأفكار القليلة المتبقية؛ يكره هذا الشعور بالاضطرار؛ ورغم تفكيره المضني في البحث عن حل آخر غير السكن في غرفة مشتركة مع الغرباء إلا أنه لم يدرك الحكمة في أن بعض الناس يولدون اختيارا وآخرون اضطرارا؛ إن الرغبة في مجيئك إلى الحياة أصلا كانت مجرد غلطة شنيعة في ليلة موحشة! ولعل بعضنا جاء بعد أعوام من الرجاء والدعاء وزيارة مصحات العقم؛ والأصل أننا في أحايين كثيرة لا نختار سبل العيش إلا في حالة كنا أغنياء؛ لم يشعر بالرغبة

حتى في قول أن الغنى النقطة التي تبتدئ منها الحلول السريعة لكل المشاكل؛ لقد ظلت عقدة دفينة عطشى قادمة من المغرب وهذا العطش للأسف لا يمكن للنقود أن تملأ جوف «فنان».. إن ما يستطيع دفعه الآن كأقصاه ثمن هو مئة وخمسون أورو شهريا؛ حتى يتمكن من تغطية مصاريف الذهاب والإياب والأكل؛ أما سعاد فهي غير متطلبة؛ ولم يسبق لها أن طالبت بشيء غير استثنائي؛ إن عينيها وحدهما جوهرة قد يدفع المرء عمرا بأكمله من أجل أن يُبقي صفاءهما في محله.

حمل هاتفه وكتب على محرك البحث: بيت رخيص لمهاجر.

وكان المحرك سخيا؛ حتى أن طلبات العروض كانت شيقة وأخرى غالية وبعضها غريبا:

- مهاجرون إفريقيون في شقة بضواحي باريس؛ غرفة مجهزة بمطبخ صغير؛ ودورة مياه مشتركة. الثمن مئة أورو.

- سيدة مقعدة تحتاج إلى رعاية هي وقطتها «ميمي» وكلبها «سول»؛ غرفة للكراء بطابقها الثاني مع إمكانية قدوم العائلة للزيارة كل ويكاند. الثمن مئتا أورو شهريا؛ تقتطع خمسين أورو مقابل رعاية السيدة!

- ثلاثة شبان وبنت يبحثون عن زوجين للغرفة المتبقية «الصالة»؛ الحفلات الليلية مدفوعة الأجر لن تحس بالملل! الثمن: ثلاثون أورو.. البيت والحفلات الليلية يستحقان فعلا!

- سيد وسيدة كوريان يبحثان عن مستأجر لبيتهما خلال عطلتهما القريبة إلى المغرب؛ يرجى أن يكونا نظيفين وأي تغيير في البيت سيدفع عنه المستأجر تعويضا عند قدومنا؛ الثمن

عـشرون أورو فقـط.

«شـقة كبـيرة لسـيد يريـد أن يتبخـر؛ وهـو يهديهـا لزوجـين مهاجريـن لا يملـكان مـأوى؛ للاسـتفادة مـن هـذا العـرض المرجـو بعـث ايميـل يعـرف بالزوجـين وحالتهمـا عـلى الايميـل التـالي:

cristophefleimber@gmail.com أو stephanlaiki@gmail.com

وشكرا.

كـبر الاعـلان الأخـير جيـدا حـتى يتمكـن مـن قـراءة مضمونـه بشـكل موضوعـي؛ وقـد أعـاد قراءتـه مـرات عديـدة حـتى نـسي كـوب الشـاي أمامـه؛ ثـم حـاول فهـم ذلـك بصـوت عـال:

سـيد يريـد أن يتبخـر؟ شـقة كبـيرة؟ يهديهـا لزوجـين مهاجريـن بـلا مأوى.

نظـر إلى سـعاد الـتي بالـكاد اسـتيقظت اليـوم؛ كانـت تجلـس عـلى الأريكـة بـرأس متعـب وشـعر منسـدل عـلى وسـادة قـد بـدا جليـا أنهـا لـم تنـم جيـدا ليلـة الأمـس؛ ورغـم ذلـك تجنـب أن يسـأل عـن حالتهـا الصحيـة اليـوم وقـرر أن يذهـب أبعـد مـن ذلـك:

–ماذا قد يعني رجل يريد أن يتبخر؟

عدلـت رأسـها وصوبـت باتجاهـه عينيهـا اليابسـتين ثـم أجابتـه بتثاقـل: أيـن قـرأت ذلـك؟

–لقـد وجدتـه بأحـد إعلانـات عـن اسـتئجار بيـت جديـد.. «رجـل يريـد أن يتبخـر؟» لـم أفهـم قصـده؟!

–ربمـا قصـد إحـدى الظواهـر الغريبـة الـتي حصلـت باليابـان في التسـعينيات؛ مـاذا يفيـدك ذلـك يـا كمـال؟ قالـت بلهجـة حـادة ضجـرة.

–إنـني لـم أفهـم بعـد علاقـة في جملـة رجـل يريـد أن يتبخـر فيكتـب إعلانـا ليهـدي شـقته الكبـيرة بباريـس لزوجـين مهاجريـن؟! أعـني هـل فهمـتِ شـيئا؟!

–أين قرأت ذلك؟

–الآن بالهاتـف. ثـم نهـض مـن كرسـيه وجلـس بقربهـا عـلى الأريكـة.. انظـري.

–غريـب! أظنـه مجنـون مـا يـا كمـال أو هـؤلاء ممـن ينصبـون عـلى النـاس باسـتعمال هـذه الإيميـلات.

–لكن أين النصب في شقة مهداة بالمجان!

– الشـيطان يكمـن في التفاصيـل الصغـيرة يـا كمـال؛ أكمـل قـراءة بقيـة الاعلانـات دون أن تضيـع وقتـا؛ لـم يتبـق لدينـا وقـت فعـلا! أتعـرف ذلـك؟

–حسنا.. ماذا عن هذا الإعلان المغري:

«ثلاثـة شـبان وبنـت يبحثـون عـن زوجـين للغرفـة المتبقيـة «الصالـة»؛ الحفـلات الليليـة مدفوعـة الأجـر لـن تحـس بالملـل! الثمـن: ثلاثـون أورو.. البيـت والحفـلات الليليـة يسـتحقان فعـلا!»

كانـت سـعاد قـد صوبـت نظـرة مخيفـة أضحكـت كمـال كمـا لـم يضحـك مـن ذي قبـل؛ سـأردد عـلى مسـامعك طـوال اليـوم: الحفـلات كل ليلـة وسـوف لـن نحـس بالملـل!

وفضلـت سـعاد أن تضحـك هـي أيضـا.. بعـض المشـاكل لا يمكـن أن نواجههـا إلا بالسـخرية!

كانـت السـاعة تشـير إلى الثانيـة والنصـف زوالا؛ سـعاد تلـف حجابهـا العـصري بالزهـري والـترابي؛ كانـا لونـين مغايريـن ولكنهمـا

يجتمعـان في شيء؛ إنهـا لا تعلـم لـم لبسـتهما معـا؛ لكنهـا كانـت تحملـق في المـرآة عسـاها تتأكـد مـن ربطـه جيـدا دون أن تتلفـه الريـاح؛ خرجـت مـن غرفـة النـوم ووضعـت محفظـة نقودهـا وعطرهـا وبعـض الشـكولاطة السـوداء؛ ثـم حدقـت في وجـه كمـال الغـارق في التفكـير: أنـا جاهـزة.. تلـك العبـارة الـتي بعـثرت قلقـه في الأفـق وأفاقتـه مـن نفـق الكوابيـس.. أمسـك يديهـا وقبلهمـا؛ تأبطهـا بـين ذراعيـه الواسـعتين وانطلقـا نحـو بيـت السـيدة «آن-مـاري»؛ لقـد كانـت البيـوت الجميلـة في شـارع «لـوزان» ناعمـة؛ وكل وردة في أصيـص؛ وكل حديقـة أمامهـا بـاب؛ وخلـف البـاب أسر تجتمـع عـلى طاولـة الغـداء؛ أو بالحديقـة الخلفيـة تحتفـل مـع ضيوفهـا بوليمـة شـواء؛ أيـا كان فخلـف الأبـواب دائمـا أسرارهـا وهيبتهـا وقداسـتها؛ وسـعاد وكمـال لا يملـكان أن ينظـرا إلى البيـوت إلا بنظـرة الجائـع لطبـق لذيـذ.. ربمـا كانـا يسـيران بصمـت ناضـج؛ هـذا الصمـت الذي يـأتي في موقفـه الصحيـح؛ إن الجميـع يصمتـون في أحايـين كثـيرة؛ لكـن هـذا الصمـت الـذي سـارا بـه لـم يكـن مـن بـاب «ليـس هنـاك مـا يقـال» بـل إنـه يحتمـل أكـثر مـن طاقتـه؛ وقـد حمـلاه عبأهمـا الثقيـل؛ سـعاد الـتي مـا عـادت تثـق في شيء وصحتهـا المربكـة ثـم هـذه النحافـة الـتي أفقدتهـا أنوثتهـا؛ وكمـال الخائـف مـن فقـدان حلـم العـازف المشـهور! لقـد كانـا شـبه متفقـين عـلى ألا يقـولا شـيئا، ولكنـه اتفـاق مـر دون أن يوجهـا لبعضهمـا كلمـة واحـدة؛ كان فطريـا للغايـة؛ وحـين وصـلا أمـام البيـت كان قـد قطعـا مسـافة نصـف السـاعة تقريبـا مـن بيتهمـا القديـم؛ بـدا البيـت عاديـا أيضـا؛ قديمـا نوعـا مـا؛ بعـض القرميـد متهالـك في شـيخوخته؛ وكانـت سـعاد قـد لاحظـت شـقوقا حـول البـاب والنافـذة؛ سرعـان مـا التفتـت سـعاد

إلى كمـال وقالـت:

– البيت مخيف يا كمال!

– أسـمعت بالمثـل الـذي يقـول: لا تحكـم عـلى بيـت مـن بابـه؟ تـوكلي عـلى الله يـا بنـت الحـلال!

كانـا قـد رنـا عـلى جـرس البـاب مـرة؛ ثـم اضطـرا للمـرة الثانيـة؛ مـاذا لـو كانـت السـيدة «آن-مـاري» لا تسـمع؟

– إنها مقعدة يا كمال؛ سيلزمها ربع ساعة لتفتح الباب.

– وليكن يا حبيبتي! إن الله مع الصابرين. ثم انفجر ضاحكا.

– يالـك مـن مسـتهتر! اسـكت ستسـمعك السـيدة مـن غـير اللباقـة أن...

بلعـت سـعاد كلامهـا حـين سـمعا اسـتدارة القفـل بغتـة؛ كانـت السـيدة صغـيرة الحجـم قـد فتحـت البـاب؛ إن شـعرها الأبيـض المكـدس فـوق رأسـها كغيمـة قـد جعـل عينيهـا الصغيرتـين جـدا تختفيـان وراء النظـارة السـميكة؛ كانـت سـيدة صغـيرة في الحجـم جـدا؛ ظهرهـا المحـدودب قـد يبـدو مليـا مـن الكـرسي؛ ابتسـمت بحـذر وقالـت: مرحبـا؛ مـن أنتمـا؟

– مرحبـا سـيدة «آن-مـاري» أنـا كمـال المسـتأجر الجديـد الـذي اتصـل بـك صباحـا مـن أجـل موعـد.

– من؟

نظـر كمـال لسـعاد بنظـرة سـاخرة سرعـان مـا قابلتهـا سـعاد بارتبـاك واضـح: أعـد يـا كمـال مـا بـك اليـوم!

– بصـوت أكـثر ارتفاعـا: مرحبـا سـيدة «آن-مـاري» أنـا كمـال المسـتأجر الجديـد الـذي اتصـل بـك صباحـا مـن أجـل موعـد؛ أنـا

وزوجـتي نريـد اسـتئجار الغرفـة في طابقـك الأعـلى.

–آه؛ مرحبا؛ هل هذه زوجتك أم صديقتك؟

–لا سيدة آن مـاري هـي زوجـتي عـلى سـنة الله ورسـوله. ثـم أطلـق ضحكـة مجنونة!

–تدخلـت سـعاد قبـل أن يرتفـع ضغـط السـيدة «آن-مـاري»: سـيدتي نحـن فعـلا نعتـذر منـك؛ لـو فقـط تسـمحين لنـا بالدخـول وتفقـد الغرفـة الـتي سنسـتئجرها منـك نكـن لـك شـاكريين؛ ثـم رمقـت كمـال بغضـب.

–ماذا قلتِ؟ لم أسمعك. وكانت بالكاد تتنفس.

قال بتعالٍ: هيا دورك في الإعادة يا حلوتي.

بصـوت مرتفـع: سـيدتي نريـد لـو تسـمحين بالطبـع أن نتفقـد الغرفـة بالطابـق الأعـلى قصـد اسـتئجارها منـك.

–ومن هذا الرجل الوسيم؟

التفتـت سـعاد إلى كمـال ثـم قالـت بصـوت مرتفـع أيضـا: تقصديـن هـذا؟

–نعم؛ يشبه شخصا كنت أعرفه!

–يبدو أنك تشبه الكثيرين وليس السيد خوان فقط!

وفي نهايـة المطـاف أفسـحت السـيدة «آن-مـاري» بابهـا للزوجـين الغريبـين قصـد تفقـد الغرفـة الصغـيرة؛ كان البيـت عبارة عـن متحف كبـير للآثـار؛ بـل إنـه كان شـبه مكـدس! وكانـت السـيدة «آن-مـاري» في كل لحظـة تـصرخ وتنبـه عليهمـا أن ينتبهـا كي لا يسـقطا كأسـا؛ أو أصيصـا قديمـا أو لوحـة مكسرة؛ البيـت مـليء فعـلا؛ ولا وجـود لممر يمـران منـه دون أن يلمسـا أو يوقعـا عـلى الأرض شـيئا؛ كتـب ضخمة؛

جرائـد ومجـلات للموضـا؛ علـب أدويـة فارغـة؛ مبيـدات الذبـاب؛ قنـاني فارغـة؛ آلتـان قديمتـان للكتابـة؛ سـجاد عـلى الكنبـة؛ وكان عـلى الأرجـح أن السـيدة «آن مـاري» تعـاني من»الاكتنـاز القهـري» كأنهـا لـم تسـتطع أن تسـتغني عـن شيء خـلال حياتهـا بأكملهـا.. بـل كان مـن المسـتحيل أن يجـدا طريقـا ولـو صغـيرا للصعـود أعـلى؛ إن السـيدة «آن-مـاري» قـد تركـت كخدعـة بصريـة للقادمـين لزيارتهـا ممـرا وحيـدا فارغـا تمـر هـي منـه بواسـطة مقعدهـا المتحـرك؛ أمـا النصـف الآخـر مـن الصالـة إلى الـدرج فقـد كان شـبه مسـتحيل عـلى أحـد أن يسـتمر وسـط ذلـك العبـث والفـوضى دون أن يكـسر شـيئا!

–السيدة آن-ماري هذا شيء شبه مستحيل!

–ماذا قلتِ؟

–لـن نسـتطيع الاسـتئجار منـك للأسـف؟ لكـن هـل تحتاجـين مسـاعدتنا في شيء؟ أرجـوك أنـت تعيشـين وسـط القمامـة والفـوضى؟

–هـذه الفـوضى هـي حيـاتي يـا بنيـتي؛ إني أحـس بالطمأنينـة وسـط هـذه الأشـياء؛ هـذه الأشـياء ذاكـرتي أنـا لا أسـتطيع الاسـتغناء عـن شيء. قالـت ذلـك بحنـان مؤلـم.

جثـت سـعاد عـلى ركبتيهـا ومسـكت بيـدي السـيدة الصغـيرة الهرمـة في السـن ومسـحت دمعتهـا المتواريـة خلـف نظارتهـا؛ فيمـا كان كمـال غارقـا في ذهولـه يقلـب بـين يديـه بيانـو قديـم كان تحـت علـب كبـيرة مـن الكارتـون: سـيدتي سـأخدمك بالمجـان فقـط لـو أسـتطيع مسـاعدتك أنـت بحاجـة إلى ذلـك! لـو اسـتمررت هنـا سـتموتين جـراء هـذا العفـن!

–يـا بنيـتي المـوت لا يخيفـني؛ لكـن لا تدعيهـم يأتـون ليأخـذوا

أشيائي إلى أي مكان! سأموت إن فعل أحدكم ذلك وبلغ الشرطة!

***

كل وقتك الآن لهذه الجمعية؛ لكل هؤلاء الأطفال المنشغلين بذواتهم؛ تقترب منهم بحذر لكأنهم جزء من عالمك؛ أشخاص لا تعرف بعضها البعض ؛ ولا تحسن التواصل مع بعضها البعض؛ تنظر إليهم متأملا كل واحد في ركنه؛ «جيمي» يقلب طائرة صغيرة بيديه؛ «لورا» تصرخ بأرقام متتالية؛ «آدم» يبحث في الأرض عن نقطة صغيرة لقد كانت نملة! يحملها ثم يضعها برفق؛ فتختفي النملة وسط الإسفلت فيعيد التقاطها وحملها ثم وضعها في مكانها وهكذا؛ داخل هذه الدائرة يحوم المتوحدون؛ في عالمهم المغاير المليء بالتفاصيل الدقيقة التي لا نلتفت نحن إليها؛ لقد نظرت إلى «طوم» الصغير الذي يغلق عينيه بكفيه مختبئا من شيء ما؛ شيء ما لا يراه غيره؛ انتبهت أن المرافقة ليست هنا؛ لقد أحسست بشيء من الخوف تجاه «طوم»؛ كان منكمشا على ذاته وجسده؛ وبدا رأسه المكور الصغير بين فخذيه، بينما تعمد وضع يديه على عينيه؛ قلت: «طوم» بخير؟

لم يجب وظل منكمشا بينما دخلت لوسيندا فاستأذنتك وحملت طوم الذي ظل منكمشا بلا أن يقوم بردة فعل واحدة! كان على لوسيندا أن تعود لهذا العمل الجبار؛ وقد فرحت كثيرا للعودة للعمل كمنسقة المرافقات داخل جمعيتك «قلب ابتسامة»؛ إنك فرح أيضا برفقتها؛ وجهها المطمئن يدس في قلبك الكثير من الأمل؛ إنها اليد البيضاء المنقذة للعزلة في

عالـم المتوحـد الموحـش.

نعـم يـا عزيـزي؛ إنـك مطمـئن ولـو تعـرف لوسـيندا أنـك تخطـط لتعيينهـا نائبـة عـن إدارة هـذه الجمعيـة لانهـارت مـن شـدة الفـرح! كنـت متأكـدا أو بـت عـلى الأقـل تعـرف أي الأشـياء مفرحـة وأيهـا لا؛ أي الأشـياء تـأتي أُكلهـا وأيهـا فاشـل؛ كمـا حـددت سـابقا؛ كل شيء قـد حسـمت في أمـره منـذ الغيبوبـة؛ يومـا بيـوم؛ بـل سـاعة بسـاعة.. لحظـة بلحظـة؛ ولحظـة الغيبوبـة كانـت لتمـر كعـام وأكـثر.. تتذكـر ذلـك وأنـت تلمـس في لوسـيندا نقـاء البشريـين؛ وتعـرف أن رفقـة المتوحـد ليسـت بالـشيء الهـين عـلى غيركـم؛ إنهـا مهمـة صعبـة لكليهمـا؛ غـير أنـه مـن النبـل أن يفتـح إليـك أحدهـم صلـة للوصـل مـع الحيـاة الـتي تمـشي بغـير قوانينـا؛ تنظـرون إليهـا بنظـرة غـير الـتي ننظـر نحـن إليهـا؛ محاطـون بأشـياء لا تحتـاج إليهـا؛ لا تحتـاج طرقـات معبـدة.. تحتـاج للحـب.. لا تحتـاج إلى صفـير السـيارات.. تحتـاج لقبلـة مطمئنـة؛ لا تحتـاج إلى أن تـأكل مثلنـا: فطـور غـداء عشـاء أنتـم ترفضـون ذلـك؛ تتمـردون عـلى كل شيء صنعنـاه؛ ولكنكـم تحتاجـون ربمـا لضمـة مطولـة.

كنـت تحـوم بفكـرك وسـط هـذه الأفـكار المرتبـة بفوضويـة داخلـك؛ دون أن تعـرف طريقـة لقـول ذلـك أو التعبـير عنـه؛ كان هاتفـك يـرن في جيبـك وأنقـذت المكالمـة في آخـر لحظـة:

– ستيفان معكم، من على الهاتف؟

– اهلا ستيفان كيف حالك؟ كريستوف معك.

– نعم كريستوف؛ ما الذي في جعبتك لهذا اليوم؟

– خـبران؛ أولهمـا يتعلـق بقضيـة طلاقـك مـن السـيدة «مابيـلا

فريدمـان» وهـي تطالـب المحكمـة بحرمانـك مـن زيـارة يانيـس بدعـوى.. دعنـا لا نعكـر صفـو يومـك.

– بدعـوى جنـون سـتيفان؛ لا شيء يعكـر صفـوه الآن يـا كريسـتوف؛ أخـبره رجـاء بـكل شيء.

– بدعـوى أن مرضـك قـد أثـر عليـك نفسـيا؛ عـلى أي اعتمـد عـلي في هـذا الامـر وكـن مرتاحـا جـدا بخصـوص «يانيـس» فلقـد رتبـت لـك موعـدا معهـا لزيارتهـا بعـد غـد في مكتـبي.

– ستيفان سعيد بهذا الخبر؛ شكرا كريستوف.

– هـذا واجـب يـا صـاح؛ ثـم أعتقـد أننـا قـد توصلنـا بايميـل في علبـة الرسـائل أقـرأت ذلـك؟

– لا لم يكن لستيفان وقت لقراءة الايميلات؛ ماذا هناك أخبره؟

– غريـب هـذا الأمـر كنـت أنتظـر أن تمـلأ علبـة رسـائلي عـن آخرهـا بطلبـات العـروض فيمـا يخـص شـقتك بباريـس! فـإذا وأخـيرا قـد أرسـل أحدهـم رسـالة مؤثـرة؛ أنـا سـأنتظر جوابـك بخصـوص هـذا الموضـوع.

– جيـد جـدا؛ حـدد معهمـا موعـدا مسـاء؛ سـيكون مـن الجميـل أن يتخلـص سـتيفان مـن كل هـذه الأشـياء في أقـرب الآجـال!

– وإذا مساء.. لا تنس أن تجلب ليانيس هدية غدا.

– لا يمكـن أن يجلـب سـتيفان معـه السـماء لأي مـكان! السـماء هديـة أبديـة ليانيـس.. تمـنى فقـط أن يكـون الطقـس جميـلا وصافيـا دون ريـاح!

– آمين! إذا إلى المساء!

ولقد كانت السيدة «ربيكا» البرازيلية قد وضعت لمعة في كل مكان؛ إن ربيكا قد تشبه المغنية «سيزاريا إيفورا» بشكل لافت للنظر؛ وحيثما تذهب في الميترو تهمس نظرات الجيل الثمانيني بتساؤل صامت دون أن يسألها الناس؛ لكنها تعودت على ذلك؛ حتى أنها كانت تفعل ذلك عمدا؛ تحلق رأسها حتى بالكاد قد تظهر الشعيرات؛ رأسها مدور بخدين مكتنزين؛ وسمرة عذبة عليها القليل من النمش هنا وهناك؛ بجسد مكور سمين؛ ورغم ذلك فهي تتمتع بخفة في الأعمال المنزلية فريدة؛ إنها تعشق هذه المهنة كما كانت تقول دائما للسيدة «مابيلا» والتي كانت تجد فيها شخصا تحدثه باسبانيتها المنسية؛ إن السيدة ربيكا لم تكن عادية كمساعدة بيت؛ إنها ذلك المدبر الخفي للأثاث؛ كانت تهوى إعادة خلق الحيوات في الغرف سواها غرفة «ستيفان» ممنوعة اللمس؛ حز في نفسها أنها اليوم مضطرة لفعل لذلك؛ حتى أنه بدا لها مسالما وحزينا وهو ينتظر ضيوفه في بهو البيت؛ السيدة ربيكا تحب ستيفان كثيرا؛ ولم تتركها «مابيلا» للدخول لزيارته عندما كان مريضا؛ ربيكا تعرف كل شيء؛ تعرف الشر المستطير بعيني مابيلا؛ والخطط التي خططت لها سابقا؛ وقد بحثت كثيرا عنه حتى وجدته في الشهر الفارط وهي من قدم يعرض خدماته عليه؛ لأنها تعرف مدى دقته في اختيار معاونيه؛ وتعرف أن شقته بباريس ستظل غير نظيفة وفوضوية وقد يدخل في نوبة غضب حادة وهو وحيد.

ربيكا غيرت كل شيء؛ الأريكة الحمراء مع سجاد إيراني فخم والطاولة الحديدية الزجاجية المستديرة وضعتهما في غرفة المعيشة؛ وأخرجت من مكتبه لوحات السماء التي اشتراها من

الرسامين الهواة في باريس حتى بدت غرفة المعيشة عبارة عن معرض للوحات التشكيلية بعنوان: السماء!

أما الطاولة الخشبية الفخمة بالأسود فقد وضعتها بمنتصف مساحة فارغة كانت بينها وبين المطبخ المفتوح؛ زينتها بقماش دانتيل مخملي ووضعت بأناقة الأطباق بخيوط الذهب على الجوانب كانت قد وجدتهم بأحد أدراج المطبخ؛ ثم جعلت مزهرية بوردتي الأوركيد البنفسجي؛ كان المنظر كله يطل مباشرة على برج إيفل العظيم؛ النافذة من الجانب الأيمن بهندستها القديمة من الأعلى إلى الأسفل؛ باللون الأسود وقد كان الريح يسحب الستائر باللون الترابي المائل للأبيض الناعم؛ وكانت ربيكا قد أزالت أغراض ستيفان كلها ورتبتها في حقائب ليحملها للجمعية؛ أما غرفة النوم فقد ظلت كما هي عليه؛ سوداء أنيقة وكلاسيكية لم ينم عليها قط؛ فضل دائما النوم بجانب أغراضه بالمكتب أو على الأريكة التي أخذتها ربيكا الآن لغير مكانها الذي تعود عليه.

كانت ربيكا توجه إليك نظرتها الحزينة بالرحيل؛ ولعلك انشغلت بتحليل تلك النظرة التي تصوبها في كل مرور من أمامك؛ وتحارب من أجل أن تفهم قصدها في ذلك؛ تساءلت هل أنت مهم لهذه الدرجة؟ أنت الذي يعيش متواريا في تفاصيله؛ قد صعب عليك أن تلفت نظر أحد؛ أو حاولت ألا تفعل؛ غير أن نوبات الصرع والغضب هي التي تجعل الآخرين ينظرون إليك نظرة بشعة تكرهها؛ نظرة ربيكا مختلفة الآن؛ ولعل الدواء الذي أخذته مؤخرا قد جلب إليك راحة أكثر مما سبق؛ إن ربيكا ستفتقد هذا المكان الذي باتت تعرفه كطيات السمنة بجسدها

المتكـور؛ ورغـم بشاشـتها وخفـة المـرح والبهجـة الـتي تصنعهـا وهـي تحدثـك بفرنسـيتها المائلـة للإسـبانية؛ فإنهـا بشاشـتها شـاحبة؛ وبهـا توتـر وإحبـاط مـا؛ وقفـت في المنتصـف وكان السـيد كريسـتوف غارقـا في قـراءة جريـدة الصبـاح:

–السـيد سـتيفان لقـد انتهيـت؛ العشـاء جاهـز للضيـوف؛ هـل سـأرجع في الأيـام المقبلـة أم...؟

–ربيـكا السـيد سـتيفان يشـكرك؛ سـأعيش بعـد ترتيـب العقـد مـع الزوجـين الجديديـن في الجمعيـة؛ وسـتيفان يعتمـد عليـك ليبقـي هـذا سرا.

قالـت وكأنهـا فهمـت المطلـوب: نعـم نعـم سـيد سـتيفان؛ لا داعـي للقلـق؛ أنـا لـم أعـد أشـتغل بمـنزل السـيدة «مابيـلا» منـذ آخـر فـترة طردتـني والسـيد كريسـتوف يعـرف بتفاصيـل القصـة.

ثـم تدخـل السـيد كريسـتوف بصوتـه الأربعيـني العميـق: لقـد حكيـت لسـتيفان القصـة وهـو يحبـك ويشـكرك عـلى اهتمامـك النبيـل تجاهـه.

–أنـا مـن يشـكره؛ إنـه سـيد فاضـل فليحمـه الله؛ لكـن سـيد كريسـتوف لـم يجـب عـلى سـؤالي بخصـوص عـودتي لتنظيف المـنزل؟

–لا يا ربيكا للأسف لن يعود هنا سيد ستيفان.

–آه حقا! وأين سيكون فقط إن أردت زيارته والاطمئنان عليه.

–سـيكون في الجمعيـة ربيـكا؛ تفضـلي هـذا الظـرف قـد خصصـه سـتيفان لـك هديـة ماليـة لـتزوري عائلتـك ربمـا بالبرازيـل.

وكان الظـرف سـميكا وعليـه اسـمها الثـلاثي: «ربيـكا سـانشز موندیـرا» شـكرا لـك.

كانـت السـاعة حـوالي السـاعة الثامنـة مسـاء؛ حـل الصمـت مجـددا وأرخـى سـدوله؛ فنطـق أخـيرا سـتيفان بعـد أن كانـت ربيـكا قـد غـادرت المـكان:

-كريستوف اقرأ الإيميل رجاء.

فتـح السـيد كريسـتوف هاتفـه وإيميلـه ثـم اسـتخرج مـن جيـب القميـص الأزرق الفاتـح نظارتـه؛ وضعهـا برفـق عـلى عينيـه الزرقاوين ثـم قـال:

-صباح النور سيد كريستوف وسيد ستيفان.

أبعـث لكمـا هـذا الإيميـل صباحـا بخلسـة مـن زوجـتي المريضـة جـدا؛ بـل إني أكتـب إليكمـا هـذا الإيميـل بعـد أن توصلـت لتـوي بنتائـج التحاليـل الخاصـة بهـا؛ إن زوجـتي حامـل! وليـس حاملا فقـط بطفـل لطالمـا انتظرنـاه بـل حاملـة أيضـا لـورم خبيـث في الرئـة؛ لقـد كانـت مصففـة للشـعر؛ لطالمـا اعتنـت بي وآمنـت بي وحمتـني مـن الغربـة عندمـا أدار الجميـع ظهـره؛ حقيقـة أنـا الآن غـير مسـتوعب لمـا قـد توصلـت بـه مـن المختـبر الطـبي؛ لكـن أول مـا تبـادر بالذهـن أن أجـرب حظـي في هـذا الإعـلان الغريـب الـذي أحـس بأنـه هـو ذلـك الـسراب الـذي سأتمسـك بـه؛ أسـتطيع أن أقـول إليكمـا أني منهـزم الآن؛ وبـأن وجهـي متيبـس وغـير مسـتوعب ولا مصـدق لمجـرى الأحـداث؛ وزد عليـه سـيداي المحترمـان أني بـلا عمـل الآن؛ وبـلا مـأوى في هـذه اللحظـات الـتي أكتـب إليكمـا فيهـا هذه الرسـالة؛ علينـا أنـا وزوجـتي تـرك المـنزل غـدا صباحـا؛ وأنـا جاهـز لتتأكـدا مـن صحـة كل المعلومـات الـتي كتبتهـا هنـا؛ مـن حكايـة الهجـرة السريـة حـتى زواجـي انتهـاء بهـذه المحنـة الـتي أعيشـها الآن.

سـيداي؛ ليـس لـدي مـا أضيفـه غـير أني آمنـت بهـذا الإعـلان حـتى

وإن كان كذبا؛ فأنا متوسم في الله والإنسان أن أجد حلا لمحنتي.

وليباركك الله على هذا الصنيع حقيقة كان أم مجرد كذبة صيف.

كمال

عازف بيانو من المغرب.

صمت السيد كريستوف وستيفان مليا ثم قال: يالها من محنة فعلية!

–إن الناس يا ستيفان لم تصدق إعلانك؛ من يهدي بزماننا شقة كهذه؟ لا أحد يفعل؛ لقد ظن الكثيرون أنها مزحة أو هرطقة قراصنة السطو على الإيميلات والنصب الافتراضي!

–جيد يا كريستوف أن ثمة من صدق وآمن بالفكرة!

–إنه زمن غريب يا صاح! الناس لا تثق في شيء؛ أو إنها ما عادت تستطيع أن تفرق بين ما هو حقيقة كانت أم خرافة .

ثم دقت الساعة الثامنة والنصف بالتمام؛ فسمع جرس الباب.. كان كمال وسعاد وسط اندهاش متواصل من محطة الميترو الموجودة بـ (تروكاديرو) تحت وقع الصدمة والذهول؛ لا يسكن هنا إلا نخب أغنياء فرنسا وأكثر الناس عراقة! فضلا أن يتحريا عدم الدخول في مثل هذه النقاشات؛ حتى سعاد لم تكن تعرف إلى أين هي ذاهبة وتوسلته كثيرا كي يقول لكنه التزم الصمت؛ استقبلهما السيد كريستوف بباب الشقة؛ حيث كانت زهرتا الأوركيد تلمعان وترمقان إليهما في ترحاب أنيق؛ كان كل شيء في مكانه الرائع؛ كأن الأثاث ولد هنا أو صنع لكل ركن؛ أشياء نادرة لا يعرف لم تصلح إلا كذوق دقيق وفخم للجمال؛ طبعا

كانت اختيارات ستيفان فريدة من نوعها رغم فوضوية البيت قبل أن تنقذه ريبكا؛ ظل ستيفان هادئا؛ واضعا رجليه ملتصقتين ببعضهما؛ بوجهه الطويل النحيف وشعره الأشقر المنحدر بجانب عينيه الرماديتين؛ كان يبدو من قميصه الرمادي فتحة مثلثة تظهر بعضا من صدره؛ وعلى صدره قد بدت ضمادة بيضاء مباشرة فوق القلب؛ جلست سعاد مرتجفة وكمال بجانبها فيما قد انتبها إلى أنهما لم يسلما على ستيفان:

–آسف سيدي أنا كمال وهذه زوجتي سعاد.

–أهلا كمال! ما لكما خائفان؟ ثم ضحك ليخفف قليلا من عبء المفاجأة؛ إن الإعلان كان حقيقة وكنتما الوحيدين اللذين صدقتماه؛ ثم أشار بيديه نحو ستيفان وقال: أقدم لكما السيد ستيفان لايكي صاحب الشقة.

–أهلا سيد ستيفان كيف حالك؟

–ستيفان بخير كيف حال زوجتك؟

ارتبك كمال وأحس أنه سيقع في إحراج كبير مع سعاد لأنه لم يخبرها بفحوى الرسالة ثم إنه نسي أن يرفق الإيميل بملاحظة أنه سيتستر على موضوع إخبارها بالمرض ريثما يجد عملا ومكانا.. ثم قال بذكاء متحايل: إنها جيدة سيد ستيفان انظر إلى شحوبها؛ أعتقد أنها لم تصدق حين أخبرتها مضمون الإعلان وجئت بها الآن دون أن تعرف!

–جيد يا سيد كمال فإذا لقد قرأتُ مضمون الرسالة.

قاطعه كمال: سيد ستيفان أعتذر على مقاطعتك أنا مستعد لإثبات كل كلمة قلتها في الرسالة؛ ثم كان ينظر بحرج للسيد

كريستوف؛ إنما لاحقا لأني لم أجمع أوراق كلها؛ ولكن نحن نملك دونما شك أوراق الهوية ها هي البطائق أمامكما؛ ثم وضع بطاقتي الهوية على الطاولة الزجاجية الأنيقة.

– سيد كمال نحن نثق في قولك؛ وأنا باعتباري المحامي الشخصي لرجل الأعمال ستيفان لايكي نخبرك أن مبدأ تعاملاتنا تبتدئ من الثقة وتنتهي بالثقة؛ الأكيد أننا سنوثق كل هذا في عقد لهبة ملكية الشقة ولكن أعتقد أننا سنتحرى قليلا حولكما حتى لا تجلبا للمتبرع مشاكل قانونية، أنتما تفهمان بالطبع قصدي.

– نعم نعم بالتأكيد وخذا كل الوقت؛ وسنستلم الشقة متى؟

– ابتداء من هذا المساء! سيد ستيفان لا يمزح ثم ضحك السيد كريستوف، وابتسمت سعاد التي بالكاد تحاول أن تستوعب ما يجري أمامها بالضبط ثم قالت بعياء واضح:

– هل يعني أننا سنبيت اليوم في هذا المنزل؟

– نعم سيدة سعاد؛ سيكون بيتكما بالطبع.. ثم شيء واحد مر علي غدا سيد كمال لتجلب لي الأوراق الأخرى؛ سنتوصل إلى حل بخصوص عملك أيضا؛ ربما أحتاج عازفا للبيانو في مطعمي بناصية شارع «برانلي» تعرفه؟

ولقد كان مطعما غنيا عن التعريف فعلا؛ قال كمال مذهولا: نعم نعم أعرفه أعني سبق أن سمعت عنه.

– فإذًا ها رقمي لديكما؛ وقعا فقط على هاتين الورقتين حتى نذهب نحن للنوم الساعة قد قاربت التاسعة والنصف! والسيد ستيفان مريض ويحتاج إلى النوم باكرا!

استخرج السيد كريستوف من جيب قميصه قلما ذهبيا؛

ناولهما القلم؛ وقعا على العقد ثم انتهى الطرفان بسكان جدد للشقة؛ وبسيد أحس داخل صدره المفتوحة جراحه براحة عجيبة؛ قال قبل أن يخرج: شكرا جزيلا لكما.

ثم انصرف.

***

أغسطس..

لا نفق في الأرض سيقيدك؛ ولا رقعة على هذه الأرض ستحررك إن أنت استسلمت؛ الرائعون أمثالك من يقتسمون أشياءهم التي انتبهوا إلى تفاهتها في يوم ما هي «الحرية»؛ أصبحت حرا طليقا من اعتقاداتك؛ مرتبطا بكل ما من شأنه أن يسعد الآخرين؛ لكنك في نهاية المطاف لم تستطع إلا تجميع كلمات يانيس وتخزينها في صندوق أسود بمكان ما برأسك حيث قال بنظرته الحزينة بدمع لم يسقط: أنا أحبك يا أبي.

كانت حقيقية إلى الحد أن المسافة التي بينك وبين تلك الكلمة كشفت حقيقة أن التخلص من شعور الاختناق كان سرابا؛ يانيس وحده؛ ظل نقطة ضعفك القاتلة؛ لم تتمكن من نسيان آخر دمعاته حين كانت تجره منك «مابيلا» بوجهها الحقيقي الخبيث؛ أنت لست متأكدا أنك ستظل هنا بهذه الغرفة؛ مع أشخاص لا تعرف لم هم هنا؛ يصرخون كل يوم؛ أنت كذلك ترفض حقن المهدئات؛ وتتألم كثيرا حين لم يستطع كريستوف الالتزام

بعهد الدفاع عنك لآخر رمق؛ وربما فعل ولا زال يحارب عائلتك التي صدمتها قراراتك؛ كان قد حذرك كريستوف من جبروت والدتك كثيرا لكن عنادك كان أقوى من الاستمرار في اللعبة؛ كل شيء قد سار وفق ما تمنيته؛ بعت المصنع ووضعت لوسيندا نائبة رسمية عن الجمعية والمكلفة بتسيير كل شيء من أنشطة وإعلام وزيارات ميدانية؛ تركت الشقة لكمال وسعاد ورتبت لرييكا رحلة نحو عائلتها المنسية بالبرازيل؛ خبأت ليانيس وديعة من المال باسمه سيأخذها حين بلوغه السن القانونية؛ مات محمد مرتاحا على أمه بالجزائر بعد أن تمكن من إكمال بناء بيتها بـ «قسنطينة»؛ ثم مئتي أورو تركتهما بالجيب الداخلي لسروال الجينز.. فتحت عينيك المخدرتين بنوم لا ترغب فيه؛ كان باب الشرفة لحسن الحظ مفتوحا؛ غيرت ملابسك؛ وانسحبت بالليل حيث كريستوف كان ينتظرك بسيارته كل ليلة متمنيا أن تجد مخرجا فيأخذك.. لقد أنقذك بالفعل؛ وحتى أنك لم ترغب في الحديث إليه؛ كنت شبه معطل عن الكلام بفعل أدوية كثيرة؛ تتعب قلبك الضعيف؛ وكما كنت قد أوصيته مسبقا قبل أن تربح والدتك دعوة الحجر عليك؛ وضعك أمام مطار شارل دغول؛ قدم لك جواز سفرك مع أوراقك جميعها؛ أدويتك التي انقطعت عن شربها بدعوى أنك لن تحتاج إليها من طرف أمك طبعا.. استدرت بتعب شديد وعينين محبطتين: يانيس يا كريستوف.

تعانقتما وكأنك أخيرا عرفت لم يليق دفء الأحضان! لقد كانت بلا شك لحظة قوية؛ تخالطت فيها مشاعر الامتنان بالأسى والحزن؛ إن الدمعة التي سقطت من عيني كريستوف

كانت بناء على سنوات الدراسة معا والصداقة والفشل والإخفاق معا: سوف يرجع ستيفان قويا يا كريستوف.

كانت طائرتك التي لم تكن تعرف وجهتها إلا من تذكرة الطائرة؛ الطائرة رقم ثلاثمئة وعشرون؛ الرحلة السادسة.. طنجة الميناء المتوسطي.

ثم استدرت على نافذة الطائرة الضيقة؛ ووضعت رأسك وسلمت نفسك للأقدار القادمة.

-٩-

أبريل من العام الجديد

هبط «عبدالسلام» من شقته وهو يتأمل أن يجد بصندوق الرسائل رسالة ذات أهمية؛ لا شيء قالها بمرارة مبتسمة وكأنه ألف أن يفعل نفس الحركة كل صباح ثم يتأبط أمله ويمضي حيث قوافل السياح التي تنتظره عند أبواب الفنادق الصغيرة أو كما تُسمى هنا بـ «دور الضيافة»؛ يستقبل الحياة ببساطة كثيرة التعقيد والغرابة؛ يقبل على الحياة بدهشة وليس العكس؛ لا يترك مجالا إلا يكون فيه أو ضمنه؛ حتى أنه مؤخرا انشغل بتعلم اللغتين اليابانية والصينية ليستقبل بنفسه الأفواج الغفيرة من سياحها الميامين؛ ينصرف بعينيه الرماديتين وجرحه الغائر بخد كنهر جاف من ينبوع ماء؛ لا يفطر عبدالسلام كما بقية الرجال هنا؛ الفطور عادة بالمقاهي التي تتفنن في إعداده مثلما تفعل الزوجات الوفيات؛ المقاهي تُعوض ما تتكاسل عليه النساء المدللات؛ يخرج الرجال للأفطار فتتزين لهم الموائد بالجبن العربي وزيت الزيتون القادم من وزان؛ بيضة مقلية وزيتونات سوداوات مالحات مع القليل من المرارة؛ أما الزوجات فيعانقن هنا النوم إلى الظهر؛ فبات من الطبيعي لرجل أعزب أن يمارس نفس العزوبية مع رجل متزوج.. إنه أمر حسن أن تصطبح بساحة «وطا حمام» على الحمام والجُبن العربي؛ يُنهي إفطاره وهو يفكر في الصندوق الذي لا يأتي بالجديد غير فواتير

المـاء والكهربـاء وأوراق البنـك الـتي تـشي بإفـلاس طبيعـي؛ ثـم يعـرج عنـد الأزقـة لاقتنـاص أفواجـه التواقـة إلى استكشـاف هـذه المدينـة الحكايـة الـتي لا تشـبه الحكايـات.

لقـد ظـل «عبدالسـلام» مخلصـا لتفاهـة البقـاء معـي؛ يجـر رجليـه حيـث مـداي؛ ويقابلـني في كل مـكان أراوحـه ولا يعـاود أدراجـه إلا عندمـا يطمـئن أني لازلـت أتواجـد بالمدينـة؛ ولعلـه كان يخـاف أشـياء عديـدة أو كان يتوقـع مـني ردات فعـل متسرعـة وغبيـة؛ ولأنـني لا أبـرر لأحـد مـا أفعلـه أو أنـوي فعلـه؛ اتخـذ عبدالسـلام دائمـا واجهـة اليقظـة؛ فكأنمـا كان يقفـل عـلي أبـواب المدينـة مجـازا بتواجـده المتكـرر في كل المـدارات؛ وكنـت أعـرف أن «سـيمان» قـد نفثـت دخانهـا المسـموم وقـد روجـت عـني الشـائعات بـين زمـلائي وحـتى عنـد بعـض الجـيران ذات أنفسـهم أو ظننـت ذلـك؛ السـيد «فـرزدق» كان يـأتي متكـررا ليطمـئن إن كنـت بخـير؛ وفي الحقيقـة أعلـم بـأن مثـل هـذه النمـاذج الميكـرو اقتصاديـة لا يهمهـا إلا واجب الكـراء وصحـة وسـلامة البنايـة ليـس إلا؛ وكأن بلغـني منـه أو بالأحـرى مـن صوتـه وعينيـه أن ثمـة شـيئا ليـس عـلى مـا يـرام؛ وكنـت أسـأله بجديـة مرهقـة عمـا إذا سـيظل عامـا كامـلا يسـألني بثبـات ثـلاث مـرات في الشـهر عمـا إذا كنـت بخـير! أو إذا مـا كان بيتـه بخـير! فـكان يبتسـم بـأدب ويتحجـج دائمـا بـأن سـلامته مـن سـلامة بناتـه!

–أنـتِ لسـت مريضـة بالوسـواس القهـري فقـط، لقـد انتقـل هـذا إلى الشـك بالنـاس أيضـا!

–منـذ مـتى كان الوسـواس غـير مـلازم للشـك؟ أصـل المرض الشـك في كل فكـرة ولـو بديهيـة.. ولـو في افـتراض أنـك لـم تغسـل يديـك جيـدا.. في أنـك قـد تناسـيت الفـرن مشـتعلا؛ أنـك تحدثـت مـع

شخص ما في الهاتف؛ فتغسل يديك مرة ثانية وتود تأريخ هذه اللحظة لكي لا تعاود الكرة ولكن حديثا ما بالرأس يقول لك: لم تغسل يديك.. كنت تحلم.

لم تطفئ الفرن كنت تحلم.

تحدثت في الهاتف.. كنت تحلم.

ربما أنا الآن لم أهرب من بيتنا؛ هل أنا أحلم يا «عبدا لسلام»؟

لماذا تبكي؟

–لأنك مريضة حقا ويحز في قلبي أنك لا تأبهين لذلك.

«أمسح دمعته بكفي على خده الغائر»: لا تبك يا عبدالسلام؛ أنا أجزم أن هذا الجرح هنا من كثر ما ذرفته على النساء.

ثم نضحك معا؛ أعتقد أنني غارقة إلى حد التيه في تكرار فعل الأشياء؛ وبت أشك في كل شيء عارضي أو محض صدفة؛ أعيد الحصص التي درستها فيصيح في وجهي الطلاب بأنه قد سبق أن أنجزنا نفس التساؤل الفلسفي فأعقب على كلامهم بأن هذا الشيء غير صحيح؛ فيفتحون كراساتهم ويثبتون صحة ما يقولون فيما يظل هناك صوت داخلي يقول لي: تتهاونين؛ أنت فقط تحلمين.. أنت لم تضعي التساؤل الفلسفي ولم تشرحيه؛ وما شاهدته على الكراسات سوى تهيؤات.. إني غارقة في هذا المدى المُردد أضعاف مخاوفي؛ الأوهام تتسلق جذعي فتسقط مني عين؛ وتتآكل أذن؛ ويتقشر جلدي مثل حراشف الأسماك.. أقف أمام تلامذتي برأس محشو باللوم والتأنيب وبالخزعبلات ذات المنطق السليم.. أقف هكذا كفزاع الطيور بحقول البيادر؛

ولكـن مهزومـة.. رجـاء مـن يخـبرني بالحقيقـة؟!

كنـت أفكـر بطريقـة مـا بالعـودة إلى أهـلي؛ عندمـا تحولـت سـيمان إلى حيـة بيضـاء وانقطـع صـوت «زاهـر» بالصدفـة عـن دوره المُحب؛ وكنـت لا أعـرف كيـف يمكنـني العـودة؟ هـل الفكـرة مـن أصلهـا ممكنـة؟ أو هـي اخـتزال آخـر لمعانـاة الوسـواس والشـك.. وفكـرت في كل التفاصيـل؛ المنبـوذة عـادت! كان عاديـا أن تفشـل خطـة الثـوار منـذ الأزل وأن يطيـح بهـا مندسـون هنـا وهنـاك؛ كان مـن الممكـن أن يركـب عـلى موجـتي كل مـن أسـهموا في وصـولي لهـذه النقطـة البائسـة مـن الرغبـة والمـرض والخـذلان المتكـرر أيضـا؛ ولكـن كيـف يسـعني أن أطـرق بابـا أغلقتـه بيـدي؟ ليـس ثمـة مـن أوصلـني لهـذا الحـد! ولا هـم؟ ولا هـم.. ولا أنـا؟ ولا أنـا.. ولا طليقـي؟ لا أعتقـد ذلـك وإن يكـن فلـم يعيـش النـاس بأوضـاع مماثلـة بهنـاء تـام! لكنـني اشـتقت إلى أمـي وجـدتي؛ وكنـت أرغـب لـو تغالـب الرحمـة قلبيهمـا فتبحثـان عـني؛ وكنـت أتمـنى لـو أني أعـرف أن انبعـاث وجهـي الآن بالنسـبة إليهمـا سـوى نقمـة شـديدة؛ شيء فظيـع أن تـترك منافـذ للشـك؛ منافـذ متسـعة مـلء السـماء واحتمـالات سـيئة السـمعة وإشـاعات لا حـصر لهـا؛ بيـد في الحقيقـة لـم أكـن في نعيـم أحسـد عليـه أو في إشـاعة خبيثـة كمـا سـيروج الآخـرون؛ جـل مـا رغبـت فيـه «كرامـة» وأشـياء بسـيطة تحـترم كينونـتي كإنسـان هـش؛ أنـا لـم أفعـل شـيئا يخـدش قداسـة الآبـاء؛ إطلاقـا. لقـد تآكلـت مـن جميـع الجوانـب والجهـات؛ نهـش فيّ الجميـع؛ وكاد لقـب «المطلقـة» أن يصـير البـاب الـذي تدخـل منـه لكمـات العالـم المهـتز؛ حـتى أنـت يـا أبي ضربتـني حـين اخـترت منفـذ الطـلاق؛ ولأنـني لا أجيـد إعطـاء التفاسـير لأي كان؛ اسـتحققت القسـوة بديـلا.. ثـم هـل كان مـن اللائـق أن أقـول

أنـني كنـت الضحيـة؟ إني أعـرف أن الجميـع سـيلقي بنصائحـه الفـذة وأحكامـه المسـبقة الجائـرة.. سـيقال خانـك فالعيـب منـك إذًا.. ببسـاطة شـديدة المنطـق؛ ولكـن تفاديـت هـذه الحـوارات البيزنطيـة الشـبيهة بكـرة التنـس؛ لسـت مسـتعدة لسـماع العتـاب القـاسي؛ لـو كنـت أملـك كيفيـة لأن أبيـد هـذه العـادة السـخيفة لفعلـت؛ يـا إلهـي مـا دور العتـاب بحـق؟ هـل إعـادة تصنيـع الواقـع الـذي لـم يـصر ممكنـا؟ هـل هـو توجيـه المزيـد مـن اللكمـات حـتى الضربـة القاضيـة؟ أنـا لـم أعاتـب أحـدا في حيـاتي قـط؛ كان مـن الممكـن أن أتخلـص مـن فكـرة الخيانـة في آخـر لحظـة مسـكت فيهـا ورقـة الخـلاص: لـم فعلـت ذلـك والتقطـت صـورا؟

في الحقيقـة ومـن المرعـب قـول أني لا أفكـر في ذلـك مطلقـا ولـو عـلى سـبيل الفضـول! ولـو عـلى سـبيل أن أعـرف! لكـن لـم يـثر السـؤال، العتـاب، رغبـة في المعرفـة؛ أو ضـخ القليـل مـن سـم تأنيب الضمـير الفـارغ مـن القيمـة في شـخص بـات بـدون قيمتـه الاعتباريـة؛ فالأصـل أن العتـاب معظمـه ردة فعـل المقابلـة للاسـتفزاز الصريـح؛ أنـا أعتـب عليـك لأسـتخرج النـدم مـن داخلـك، ومـن فعـل لا يصلـح لأن تتـورط فيـه بهـذه الطريقـة الوضيعـة.

أعتب عليك لأني أريدك أن تظل معي بطريقة متعالية في الكبر.

أعتـب عليـك لأنـني أعـرف مـدى خطـئي وأطمـح في غفرانـك المذلـول.

أعتـب عليـك لأني جبانـة وليسـت لي شـجاعة كافيـة لأقـول لـك دون تحايـل مـا أريـد أن أقولـه.

العتاب تحايل قذر أحيانا!

ولذلـك لا أحـب أن يعاتبـني أحـد؛ أمـا أنـا فـلا أضـع نفـسي في هـذه المواقـف بالمجمـل لما فيهـا مـن انتهـاك لكرامـة بعـض الأرواح الحساسـة والـتي تُتلفهـا العبـارات الجارحـة.

لقـد انتظرتـك طـوال الوقـت لتمسـح عـني أثـر الهزيمـة؛ آثـرت، أنـت، في المقابـل أن تلتقـط الهزيمـة الواضحـة وأن تتجاهـل عطفـك الممكـن عـلي؛ كيـف صـار لـون عينيـك متاهـة؟ كيـف حصلتـا عـلى هـذا اللـون المشـبع بالنهايـة؟ إنـني حـين أنظـر إليـك أتلقـى جيـدا النقطـة الصفـر؛ لقـد وصلنـا أنـا وأنـت للصفحـة الجديـدة ولكـن في كتابـين مختلفـين تمامـا.

إني لا أخـاف يـا زاهـر سـماع وداعـا؛ حظـا أوفـر مـع رجـل آخـر! بـل أنـا أخـاف فعـلا ألا تقـول شـيئا؛ إن هـذا النـوع مـن الصمـت بالـذات هـو لكمـة موجهـة نحـو البطـن؛ وأنـت حـين لا تقـول شـيئا تتحـرك كـرة عاصفـة سـاخنة داخـل بطـني؛ أريـد بشـدة أن أتقيـأ ولكن لا بـأس؛ عـلى القلـب أن يتمـرن أكـثر عـلى مـا يبـدو.. يااللمفارقـة أنـا أعاتـب نفـسي وبشـدة الآن!

***

وكنـت أمـر عـلى عيـادة «زاهـر» بشـكل يومـي؛ العـذاب الأكـبر في الحـب هـو أن تضطـر للمـرور أمـام الذكريـات كأنهـا شـخوص مسـتقلة؛ وكل التفاصيـل مهمـا كانـت صغـيرة تتسـع وتكـبر حـتى تأخـذ هـي أيضـا أسـواط الشـوق لجلـدك! العطـر عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر؛ العطـر هـذا الـذي يتجـول في سـلم العمـارة ويضعـني

في مـأزق مخاتـل؛ دراجتـه الهوائيـة البيضـاء الـتي يضعهـا بأسـفل العمـارة وحـين أفكـر في لمسـها يحرقـني المقبـض؛ تحرقـني الفكـرة قبـل ذلـك؛ أمـا شرفـتي فمـا عـدت أفتحهـا إلا لماما؛ هكـذا لشـهرين حـتى قيـل لي أنـه سـافر مـرة ثانيـة لزيـارة معـارض خاصـة بمعـدات تقويـم الأسـنان بأوروبـا؛ حـتى السـيدة نعيمـة سـكرتيرته لـم يعـد يظهـر لهـا أثـر؛ وقـد قالـت في آخـر مـرة قابلتهـا هنـا عـلى السـلم أن الدكتـور «زاهـر» عـلى المسـتوى العمـلي رجـل عـالي المهنيـة والـرقي ولكنـه عـلى المسـتوى الشـخصي زيـر نسـاء؛ وأنـني لسـت الوحيـدة المتلاعـب بهـا.

– لم يتلاعب بي أحد، أجبتها بانكسار.

– أنـت مثـل أخـتي وأردت فقـط نصحـك؛ أنـت سـاذجة أحيانـا أو تبديـن عـلى نياتـك والله يبعـد عنـا الـشر دائمـا.

الله يبعـد الـشر عنـا دائمـا؛ فمـاذا عـن الـشر الـذي بـدا لنـا خـيرا بعـض الوقـت؛ هـل كان شرا في رداء خَـيّر أم العكـس؛ ولكـن لا أحـد قـال لنـا أنـه كان هـو الـشر وأن الخـير هـو مـن ابتعـد فـارا بأقـداره.. لا أحـد يُقـر بـأن مـا ذهـب منـا لـم نكـن نسـتحقه؛ لـم نكـن عـلى قـدره؛ كان خـيرا بمـا يكفـي لينفـذ بنقائـه! وكانـت السـيدة «نعيمـة» تبـدو كبـيرة في السـن؛ ولكنهـا تتحايـل عـلى كل ذلـك بالعديـد مـن المسـحوقات وحـتى بالكلمـات فتنـادي عـلي «أخـتي»؛ تطـلي الألـوان وتخفـي العيـوب والهـالات؛ وتحـرص عـلى صباغـة الشـيب لتزيـف هيبتـه؛ تركـب رموشـا غزيـرة مُصطنعـة؛ لا أدري إن كانـت تضـع قنـاع «الحلبـة» كمـا يزعمـون لتسـمين الخـدود والشـفاه؛ وعـلى العمـوم كانـت تحـرص بثبـات عـلى أن تحظـى بمرتبـة الشـباب ولـو عـلى حسـاب تجاعيـد الرقبـة؛ هـو هـذا الجيـد الـذي يفضـح النضـارة؛ أمـا

جيدي النحيف فهو من شدة تقوسه قد يصلح لعش فراخ طائر السمان؛ غائر وجميل؛ أعلق عليه عند المزاج الهادئ الأقلام وأحمر الشفاه الذي لا أستعمله.

وقد تبدو لك السيدة نعيمة بزي شبابي يتسع بالكاد داخل أردافها؛ وهي لا تكثرت حتى أنها لا تحاول تبرير لطفها بالمايكاب؛ لكنها تتعمد أن تقول في كل صباح: صباح الخير أختي.. حتى وإن لن يصادف أن تكون لي أخت في سنها؛ بل كان تمسكا منها بأن السن بالحقيقة مجرد هرطقات.

لكن زاهر أخذ تأويلاته معه وذهب؛ وحيثما فتحت شرفته باغتني ندم على الإجابات التي لم أغامر في قولها؛ قلت في رأسي: تفوتين عليك فرصا عظيمة.. اللعنة على هذا التردد!

ثم بالكاد أتذكر أني كنت ضمن لعبة سيمان الحقيرة؛ أخذت نفسا عميقا وعزمت على زيارتها بعد أن مرت ثلاثة شهور على آخر حديث جانبي دار بيننا؛ ربما كان علي أن أفهم منها أسباب هذا الحقد الكبير؛ ربما كان علي أن أسامحها؛ ربما كنت أريد أن أقول لها أنها على حق إن غارت على رجل كـ زاهر! وأن التطرف في العشق لا دين له.

–إنها فرصتي يا عبدالسلام أرجوك أنا فقط خائفة من ردة فعلها.

–هل جننت؟ أتعرفين أنا نادم أحيانا أني عرفت امرأة مثلك في الحياة.

–لا مجال للندم الآن؛ لو فقط نفعني كنت حتما لأنصحك به؛ وعلى العموم؛ ماذا سنشتري لها؟

–أنت مصرة إذا!

–بل إنها الخطوة الحقيقية التي تفصلني عن مخاوفي.. النقطة الصفر!

–بشرط.

–أنا أعرفك يا عبدالسلام! فلا تكن استغلاليا أرجوك.

–أن تسمحي لي بالخطوة القادمة مع عائلتك.

–تمزح بالتأكيد؟

–فإذا لن نذهب إلى سيمان ما رأيك؟ وسوف تأكلك وساوسك اللعينة إن تركتك بمفردك.

–أنت حقير!

–حقير يحبك.. إنه لشرف عظيم سيدتي.

–عائلتي لا تريد أن تعرفني هي لا تعرفني ونحن بتنا لا نعرف بعضنا الآن؛ لم تريد أن تقلب علي المواجع، رجاء؟

–لا أحد عرفك بحياته ويتمنى ألا يعرفك مجددا.. سيتأخر الوقت وسوف يغلق محل الشكولاطة.

–يا لك من وغد.

كنت قد وعدته وعدا كاذبا صادقا؛ وعدا راقصا بين اللا والنعم؛ بين الجدية والهزل أو بين الرفض والقبول؛ وعد متذبذب مضطرب؛ يحتمل الصح كما الخطأ؛ اشتريت علبة كبيرة من الشكولاطة الفخمة التي تحب؛ وكتبا كثيرة باللغتين الفرنسية والإسبانية؛ كنت مستقصدة إهداءها رواية «رسالة طويلة جدا» لكاتبة إفريقية أحبها «مريمة با»؛ وكانت الرواية

عبارة عن استرسال طويل في الخيانة والألم وفي حسن التصرف والبديهة؛ ولما كانت «مريمة» عن سيرة ذاتية تحكي سيرورة ألم الخيانة كانت تذللها بأعذار خلاقة؛ كانت تُحيك بلطف قصتها؛ وتُغدق علينا نحن القراء نظرة مُترفة عن التسامح والسماح؛ عن أشياء كانت لتبدو أكثر من رواية؛ لأن القراءة أبعد من أن تنتهي بعد إغلاق آخر صفحة؛ بل القراءة الصادقة هي التي تنتقل إلى العبرة؛ تتجسد أحيانا في احتمال أن نتذكرها مرة أخرى وأن تصلح كمرهم لتضميد الجراحات العميقة.

كان باب بيت سيمان الجديد من حديد؛ أصفر فاقع بلون الصدأ؛ البناية حديثة البناء كما قال لنا سائق التاكسي؛ كانت مُحكمة الأمان؛ بسورها العالي الذي تزينه خيوط الحديد والأشواك الكثيفة؛ كامرات مراقبة بين كل جدار وآخر وقطع زجاج حادة الأطراف في حالة ما تجرأ أحدهم على الاقتراب.. كنت أتساءل إن كانت سيمان فعلا تحس بالخوف وسط هذا الأمان الكثيف؟ إنها حماية مفرطة؛ مثل مكياج السيدة نعيمة؛ كأنها حماية مقصودة تشعرك بالرهبة أكثر؛ إن الإفراط أشده مضر يا سيمان؛ في كل شيء؛ لماذا آثرت تشديد المراقبة عليك؟ اللون الأصفر الفاقع حد الجريمة بالجدران لا يليق بك؛ تمسكت بذراع عبدالسلام ونحن ندخل؛ المراقب الأمني سألنا عن بطائقنا الوطنية وعن أسباب الزيارة!

–هي مثل أختي، قلت متلعثمة حتى صاح في وجهي عبد السلام :

–استرجلي وأفيقي؛ هذا ليس وقتا لفلسفتك ولا لانهياراتك!

–رفقا بي يا عبدالسلام، صحت في وجهه أيضا! إن سبق لك أن

جئت إلى هنا فذلك أمر يخصك؛ إنما «الدهشة الأولى» هي حق للسذج أمثالي!

–ماذا حضرتك؟ الدهشة الأولى؟ اللهم ألهمني طول صبرك!

«ماذا بحوزتكما لكي نسجله ونراقبه»، قاطعنا الحارس الذي تكدرت ملامحه وصار غضبه ظاهرا على جبينه؛ قال عبدالسلام بديناميكيته المعهودة:

–يا سيدي روايات للتسلية؛ شوكلاطة سوداء لتعديل المزاج؛ بعض الدواوين الشعرية المترجمة.. زيارة ثقافية ترفيهية لا غير.

–معكما ربع ساعة.

–لا يمكن أن نزيد خمس دقائق فقط أخرى؟ قلتُ.. فلم أكمل جملتي حتى وجدت عبدالسلام قابضا بشدة على يدي؛ ساحبا إياي من أمام وجه الحارس الذي كاد أن يرمي بي من النافذة؛ تركته يمسح عرقه المتصبب من جبينه بطرف قبعته الزرقاء القاتمة؛ وهو في الأصل لم يمسح شيئا بل ترآى له وكأنه حين أزال القبعة وأعادها فوق رأسه أنه قد قلل من تلك اللزوجة؛ كم من زائر غبي مثلي هنا كل يوم؟ قليل من الزوار هذا الزوال؛ قلت ذلك وأنا أتطلع لسيدة في مقتبل الأربعينيات ولشاب في الثلاثينيات يحملان بعضا من العلب؛ وجه تعب وشاحب يحمل في نظراتهما المنكسرة أكثر من قصة؛ كانت يداي ترتعدان ونحن نعدو من الممر البارد؛ رائحة القِدم منبعثة بالرغم من حداثة البناية؛ وبرودة مطبقة على الجدران كأن الشمس لا تمر فوق الزنازن؛ رافقنا حارس ثان أقل غضبا من سابقه وأكثر بشاشة من الشرطي الواقف بالباب؛ كان الممر صغيرا ولكنه يشي للأحرار بعضا مما بالداخل؛ كان إحساسي وأنا هنا مشابها لأريكتي بصالون

البيت ذي النافذة الوحيدة والمنفذ الوحيد أيضا؛ ولعل الخوف الذي يحاصرني من كل الجهات كان سجنا أفضل إحكاما من كل هذه السجون! استدرت وتأملت جيدا عيني عبدالسلام الرمادية الصافية وابتسمت له؛ كأنه في تلك اللحظة أصابني بعض من الحب له ثم أغلقت على الفكرة فقلت:

–بالمناسبة؛ ليس أكبر ولا أفظع من سجني!

–يا لك من معتوهة حقيقية! في المرة القادمة علينا زيارة «المورستان» فهو الأنسب لك!

–يناسبني هذا الخيار إن كنت معي؛ أتخيل يافطة على باب غرفتك بالمورستان «المريض بهوس المعتوهة»! جميل حقا وشاعري!

وضحكنا حقيقة أنا وعبدالسلام كأننا كنا بموعد منعزل عن الزمكان؛ وكنا ننتظر أن يُحضروا سيمان من زنزانتها ولولا الحارس المرتدي البدلة ذات الثلاث قطع والذي نبهنا إلى ضرورة خفض الصوت لكنا قد طُردنا حقا؛ قال: لا أحد من السجناء يحب زيارة من أشخاص سعداء!

وكأنه قد فتح لي بابا للنقاش أمر منه؛ أو فتح أواصر الود معه:

–ولكنك حارس لطيف؛ لا تبدو مثل السجانين الشداد الذين عرفتهم بالأفلام!

–شكرا على لطفك.. ثم سكت.

–هل العوائل لا تأتي هنا؟ أقصد بالباب لم يكن سوانا وامرأة وشاب.

–الأمهـات لا يتجـرأن عـلى المجـيء هنـا؛ أغلـب المسـجونات مضطهـدات وغـير مرغـوب في رؤيتهـن بسـبب اقترافهـن للجريمـة!

–ياللقسوة.

–صديقتكم قادمة؛ خمس عشرة دقيقة من فضلكم!

استـدرت حينهـا لعبدالسـلام وقلـت هامسـة: أرأيـت أنهـا لـم ترفـض مقابلتنـا كمـا زعمـت؟

–لا تجزمي بشيء إلا عند انتهائه!

الصـوت الـذي سـمعناه حـين فتـح السـجان البـاب الحديـدي صـوت لـم نسـمعه مـن ذي قبـل؛ إنـه صـوت محمـل بالهيبـة والرهبـة معـا؛ إنـه صـوت فريـد لأنـه يبـدأ بقـوة وينتهـي بقـوة أيضـا! إنـه لا يتراجـع في الحـدة أو يضمحـل كمـا صـوت قطـرة المـاء عـلى الـكأس الفارغـة؛ أو يتـلاشي في السـماء كصرخـة؛ لا؛ لقـد كان كبـيرا في بدايتـه وكبـيرا في نهايتـه أيضـا؛ والأكـثر مـن هـذا كلـه أنـه يظـل عالقـا في الذاكـرة كرنـين الكنائـس؛ كان يديـره مـرة وثانيـة وثالثـة ثـم أسـفله قفـل مـرة وثانيـة وثالثـة؛ وحـين حـاول فتحـه؛ انبعـث نـور مـن هنـاك عنـد نـور مـن هنـا؛ كأن الشـعاعين مختلفـان، النـوران مغايـران وكل بوهجـه؛ سرت بوجهـي قشـعريرة حـين رأيـت كبرياءهـا قادمـا؛ خطـوة خطوتـان.. ثـلاث؛ فجلسـت.. وظلننـا نحـن الثلاثـة نحملـق في بعضنـا بعضـا: كثـير مـن الذهـول.. كثـير مـن الحـزن.. كثـير مـن محاولـة قـول أن كل شيء بخـير.

***

في الحقيقة الأهم من الانكسار أو الفشل إن كان لابد من تسميته فشلا هو اكتشاف معدن ساقيك حين تثبتان قدرتهما على النهوض مجددا؛ وهذا كلام خلاب ورومانسي يستدعي نفسا طبيعية غير التي أمتلك؛ نفس مضطربة وتمتلك عتادا من الأوهام والأفكار المنطقية التي في غير سياقها السليم؛ الانكسار وحده سمفونية عملاقة من النقطة (ما وراء العدم)؛ هي أشبه بالدخول في الثقب الأسود وتجاوز الزمن لزمن قديم؛ تجاوز الفرح لحزن قديم؛ تجاوز الجرح لطعنة لئيمة؛ نكوص النفس من حالة المعافاة إلى حالة من المرض المزمن؛ فالانكسار بحد ذاته أداة لتقييم النفس؛ تعرف أن وصولك لمرحلة الشفاء لم يكن سليما وأن ثمة خللا ما في هذه العملية؛ لأن اضطرابك وعودتك للمالانهاية السالبة حتما جاء عن الطريق الخطأ؛ فلتكن السرعة في أخذ العلاج الأقوى احتمالا!

الانكسار هو أيضا قاعدة متينة نحو قوة أكبر؛ قوة نحو اللامالانهايات الموجبة. ولكن ليس دائما؛ في حالتي أعني حالة الصدمة ثمة انكسار عظيم آت من القلب؛ مثل خيبة تزداد هوتها شهرا بعد شهر؛ من الأكثر قربا إلى أبعدهم غرابة عنك؛ والطعنات قريبة كانت أو بعيدة هي ذاتها؛ مذاق الغصة يظل واحدا يفترس الروح ويقض مضجعها المستكين.

قالت سيمان بانكسار: لقد هزمتني الآن!

–لم نكن في حرب؛ مشكلتي يا سيمان أني لا أنسى عرفان الأيام التي جئت فيها هنا وحيدة؛ صدقيني أنا لا أجيد العتاب ولا أجيد الحرب أيضا؛ أنا شخص فاشل مثلك!

هي هاتان الجملتان اللتان دارتا في ربع الساعة؛ وحضن

حقيقي اتسع للحماقات التي يمكننا أن نقترفها في حق أنفسنا؛ ولم أستطع الدخول في تهمتها أو حتى محاولة إنقاذها فهي كانت تعرف أني أحب العدل الإلهي في كل شيء؛ وأننا أحيانا علينا دفع الثمن غاليا؛ برأس عال؛ فرحت للكتب والشوكلاطة وقالت وهي تودعنا:

–عبدالسلام لا تأت بها مرة أخرى إلى هنا وإلا ستلقى حتفك على يدي حين أخرج لأني -وكما تعلم- صرت الآن مجرمة!

ضحكنا وقلت: يا سيمان عبدالسلام لا يموت؛ عبدالسلام في كل مكان وزمان!

انقضت ربع الساعة بالمزيد من الفرح؛ قال الحارس بجدية «نادرا ما تأتي الصديقات ليزرن السجينات ويواسيهن بصدق كما فعلتم»، ثم أردف قائلا «إنهن محتاجات للأمل وللكثير من التسامح».

عدت متخففة؛ وأنا أعرف قساوة أن تقضي خمس سنوات سجنا نافذة؛ وسط تلك الجزيرة المخيفة التي لا تمر منها الشمس.. أعرف حجم المأساة فأنا قضيت سبعا وثلاثين سنة في زنزانة الخنوع؛ لكن سيمان طلبت مني فعلا ألا أزورها مجددا؛ ولا أحد غيرنا سيزورها؛ والدها لا يعرف حتى إن كانت بالحياة أو بالسجن أو فيهما معا.. لم تكن تعرف إن كان لها أخوات أو إخوان!

وعدنا أدراجنا من حيث أتينا؛ وكنت أضع رأسي على كتف عبدالسلام حين تشتد بي نوبات الوسواس القهري؛ أرفع رأسي فجأة «هل غسلت يدي؟ أعطني المعقم رجاء»، وكان عبدالسلام لا يجيبني بل يفضل أن يتجاهلني ويحاور المسافرين الجالسين

معنا بنفس سيارة الأجرة؛ ولكني ألح فعلا فيُكمل حديثه غير آبه:

«السياح يا أخي أرادوا أن يرجعوا المدينة مثل مدينة الملاهي؛ ذلك التفاني في تلوين كل شبر فيها أفقدها عذريتها؛ أفهمت ما أود قوله؟».

ثم يجيبه السائق محتدما: «افهم يا أخي تلك ميزانيات للبلدية تُهدر».

فيعلق الآخر ساخطا: «تمنينا فقط أن يعتنوا بشبابها ويبرمجوا لهم مصانع ويجهزوها بالمقاولات؛ الشباب هناك يضيع بالمخدرات والبطالة».

ثم يرجع عبدالسلام بقوة: «يا أخي لا يمكنك أن تمنع الناس عن شرائه ولكن الذي أعرفه هو أن العمل إرادة؛ أنا أشتغل مرشدا سياحيا دون علم وزارة السياحة بذلك! فيقهقه الجميع ويقول: ماذا ستفعل؛ لن أجلس مكتوف اليدين وأنتظر البلدية لتدق بابي فتقترح علي عملا؛ والله إذ لم تشمر عن ذراعك لن يأتي أحد لينقذك».

رد الجميع بصوت رجل واحد: «فعلا».

ثم استكمل عبدالسلام النقاش:» أنا الآن أعرف لغات عديدة ونكسب مع السياح رزقا والحمد لله؛ حامدون شاكرون لا ينقصنا إلا زوجة. ثم ينظر إلي باستفزاز ملحوظ فلا أجيبه كما يفعل لي؛ لكنهم حال ما استداروا ليكملوا نقاشهم حول النهب والبطالة والفقر والادمان حتى استدارت يد عبدالسلام إلي؛ وحطت على خدي ولمسه بلطف وحنو؛ كأني طفلته: «لقد أتعبت كفيك

بالمعقم.. كفى»، تكمشت بعدها وصرت دعسوقة حمراء جميلة؛ تكمل سفرها الطويل عبر زجاج السيارة.

وحين وصلنا إلى ساحة وطا حمام؛ شكرت «عبدالسلام» بتعب وقلنا جملتنا الشهيرة: إلى اللقاء يا أصدقاء! متأكدة أن فراقنا فراق لحظي؛ وأننا سنلتقي حتما في أي مكان آخر حاولت الذهاب إليه!

يذهب هو جنوبا وأنا أكمل مسيرة الصعود داخل الأزقة الصغيرة؛ والحقيقة أن البلدة تظل عامرة؛ وكل يوم هي بأفواج يحجون إليها من كل بقاع العالم؛ نمر منهم بالكاد؛ ولو أنني بشعري الأحمر اللولبي كنت الأقرب إلى الغجر.

رأيت السيد «فرزدق» يسير في الاتجاه المقابل على الناحية الأخرى من الزقاق؛ كان يبدو -ويداه معقودتان إلى الوراء- مثل فقيه؛ بجلبابه الأبيض البزيوي الوزاني الأصيل ببطنه الممتلئ وقامته القصيرة بلحيته البيضاء الناصعة ونظارته السميكة ووجهه المألوف في كل المدن القديمة؛ هل كان قادما إلى بيتي مرة أخرى؟ فكرت لو استوقفته هنا بالزقاق وخففت عنه عناء المجيء حتى شقتي ولكني للحظتها عرجت على اليمين؛ أحسست أن اليوم كان مشحونا؛ وأن بعض الأيام يجب أن نتفانى في جعل نهاياتها إلى حد ما سعيدة؛ إن تجنب جلب الصراعات التي تكون خارج مشهد الأقدار لشيء جدير بالاهتمام والتفكير؛ وربما فكرت أني غير مستعدة للدخول في جدال جديد مع السيد فردق؛ وكان إحساسي مريضا معطوبا يتأرجح بين الكدر والحياد أو القليل من الفرح؛ والفكرة التي شغلت رأسي حينها هي غسل يدي والتخلص من كل الأوساخ العالقة بها؛ لا شيء آخر سوى أني مضطرة لتأجيل شراء الخبز من السيدة «فريدة»؛ ويلزمني

صحـن فـول مطهـو مـن عمـي «يوسـف» ولكـن يـديّ المتسـختين جـدا تعيقـان عـلي القيـام بـكل ذلـك؛ أمـر مـن عليهمـا وأدفـع ثمـن الخـبزة للسـيدة «فريـدة» ثـم الأربعـة دراهـم مقابـل صحـن الفـول السـاخن مـن عمـي «يوسـف»؛ هنـا طريقـة فنيـة للنظـر إلى الحيـاة عـبر صحـن «البايـصر» «الفـول»؛ إنـه هـادئ وقـد يبـدو كذلـك؛ غـير أن تابـل «الكمـون» المطحـون بلونـه الأخـضر الداكـن يجعلـه لوحـة متدرجـة بـين لونـين عتيقـين؛ خـضرة الفـول الباهتـة المائلـة أحيانـا إلى صفـار؛ وكميـة الكمـون الموضوعـة فـوق ملامحـه بسـخاء؛ فيـأتي تابـل «الفلفـل المطحـون» بالأحمـر القـاني كأنـه «الحـب»؛ يُغـدق عـلي عمـي يوسـف بعدهـا بصـب زيـت الزيتـون الأخـضر الحلـو؛ يضـع فـوق الصحـن غلافـا بلاسـتيكيا وينتظـر قدومـي إليـه بعدمـا أكـون قـد غسـلت يـدي في البيـت؛ لكنـني عندمـا صعـدت وجـدت السـيد «فـردق» أمـام الشـقة؛ إنهـا المصائـر العنيـدة؛ ورغـم أني سـلكت زقاقـا آخـر؛ غـير أن تأخـري بـين شراء صحـن الفـول والخـبز قـد أخـر قدومـي قبـل السـيد «فـرزدق»:

تجنبـت مصافحـة يـده واعتـذرت: يـدي متسـخة جـدا سـيد فـرزدق كيـف حالك؟

–آه لا عليـك لا عليـك؛ نقـول يـد الفـلاح دائمـا نظيفـة؛ الحمـد لله يـا ابنـتي القليـل مـن ألـم الركبـة.

–ألـف سـلامة عليـك؛ يبـدو ذلـك مـن صعـودك الـدرج بكـثرة هـذه الأيـام؛ كان عليـك أن ترتـاح وألا تكلـف نفسـك عنـاء المجـيء عنـدي في كل مـرة!

– هذا واجب ابنتي.

كان قـد انتبـه أني أفتـح البـاب بتعـب شـديد؛ قـال: لا أريـد

أن أعطلك ولكن كنت أسألك إن كنت ستظلين بالشاون طيلة الأسبوع القادم؟

وكان سؤالا عجيبا؛ فرمقته بغضب وقلت: ولم؟ هل على المكتري أن يضع برنامجه ومخططاته رهن صاحب الشقة؟

فضحك بمهل: لا لا يا بنيتي فقط من أجل صيانة صنبور الحمام؛ السيدة «نعيمة» عادت من شهر العسل؛ العقبى لك ووجدت حمام عيادة الدكتور «زاهر» يفيض ماء؛ ويبدو أن ثمة خللا ما بالموضوع.

–آها؛ قلت غير مستوعبة لكمية المعلومات التي لفظها مرة واحدة بوجهي: طيب؛ أنا موجودة غير ساعات العمل؛ وتجنب الساعات المتأخرة أيضا فأنا لا أستطيع تحمل شخص غريب معي بالبيت.

–لا سأكون معك لا عليك.

كان يوما طويلا؛ طويلا فعلا.. غسلت يدي كأول حدث أقوم به؛ وقد يطول الأمر لنصف ساعة؛ وفي كل مرة كنت أفكر في حمام زاهر الذي يغرق ماء؛ فكرت أنه ماء مليء بالأوساخ؛ أوساخ يدي.

***

بالمقابل من ثانوية «السيدة الحرة» كان المراهقون هنا يتبادلون الشتائم؛ ويدخنون بشراهة؛ يتكئ رأس أحدهم على الحائط كعجوز خمسيني؛ فيما قد تظن أن شرودهم عظيم وكأن

مشاكل العالم كلها فوق رؤوسهم؛ كان «عمر» بينهم؛ وحيثما يكون عمر يكون الحزن الثقيل؛ يخفي رأسه الأصفر خلف كومة الرفاق؛ ما إن يلحظني حتى يرفع سيجارته عاليا محاولا بذلك إثارة بعض من الهتاف والتصفيق الطويل؛ وكان ينجح في ذلك إلى حد ما؛ أمر من أمامه شبه مستاءة وكان قد كتب إلي ذات يوم حماسي: «أنا أكرهك أيتها الأستاذة وأكره مادتك».

كنت قد وجدت العبارة فوق المكتب؛ وتمالكت الحنق الممزوج بالضحك: من هو البطل كاتب هذا الاعتراف؟ سألت ببهجة؛ سكت الجميع ولم يملك عمر وقتا لإخفاء ذلك؛ كأنه كان مستعدا للجواب؛ متهيئا وعلى أهبة أن يعترف بموقف بطولي قلما نجد مثيله في الناضجين؛ إن عمر كان مستعدا لأن يرفع أصبعه؛ فينهض بكل زهو الوسيمين بعد أن يكون قد رفع من غرته الصفراء فيظهر ابتسامته البراقة؛ فيبدو لكل البنات حلما ورديا؛ لقطة فاتنة قد تصلح لفيلم رومانسي؛ غير أن المأساة كانت حين أنهيت كل ذلك بعبارة عفوية: أتعرفون؛ أنا لا أريد أن أعرف من البطل! إن الفلسفة هي ماهية البحث عن الحقيقة؛ هي رحلة البحث وحين نجد الحقيقة قد تنتهي لدينا المتعة؛ اللذة بمعنى آخر هي في مرحلة المعرفة؛ الوصول قد يعني النهاية ونحن لا نسعى إلى امتلاك حقائق! ثم إني أضمن لكم بهذا الفصل حق الاختلاف؛ قبوله وحق رفضه بمن فيهم شخصيتي؛ غير أننا نحاول بشكل أو بآخر تجاوز كل ما هو شخصي؛ لأننا بالأخير لا نريد أن نكون نسخا عما نريد أن يكونه الآخر؛ بل الأجدر تقبله كيفما كان وحيثما أتى هو إنسان؛ وعلى الفكرة أن تكون المحور وهي التي ينبغي بشكل أو بآخر كرهها

أو الانغـرام بهـا.

بالطبـع كان مـن الممكـن أن يوضـع لبطولتـه حـد؛ كنـت أريـد أن يظـل لهـا هالـة مـا؛ وكانـت لا تزعجـني نظرتـه الـتي كونهـا عـلي؛ أو «كرهـه» هـذا الـذي لا أعـرف مصـدره؛ بـل إني أتفهـم أننـا قـد نثـير مشـاعر مختلفـة؛ غـير أن «عمـر» لـم يكـن مراهقـا عاديا فحسـب؛ بل كان «الزعيـم»؛ وحيثمـا يكـون القائـد يكـون هنـاك «أتبـاع»؛ ومريـدو عمـر كـثر مـن جنـس الإنـاث اللـواتي لا يـردن لحسـنه أن يغضـب؛ وعـلى قـدر وسـامة عمـر وذكائـه وزرقـة عينيـه؛ تكتفـي التلميـذات بالهتـاف والتأييـد؛ وقـد أكـون الخـاسرة الوحيـدة في معركتهـم هـذه؛ وفي كل مـرة كان عمـر يتطـاول عـلى شرح الـدرس: لقـد سـبق وشرحـت هـذا المقطـع؛ هـل درسـك يتكـرر مئـات المـرات؟ إنـه ليـس كمعقـم اليديـن!

لسـانه السـليط؛ مـع جرأتـه المفرطـة في التحايـل أربكتـني في البدايـة؛ ابتسـمت لـه وأنـا أمـر مـن أمامـه وهـو يعـلي سـيجارته: نخـب الشـعر اللولـبي الأحمـر!

ثـم يتصاعـد ضحـك هسـتيري؛ حـتى قـال بعصبيـة نـادرة: ومـا شـأنك أنـت فيـه؟

لقـد عرفـت حينهـا أن الاعتمـاد عـلى عبدالسـلام وحـده في بعـض المهـام لا يعـود عـلي بالنفـع؛ وأن جهلـه بمثـل هـذه الأمـور التربويـة المحضـة هـو الـذي يجعلـه غـير مـدرك لأهميـة ذلـك؛ لقـد كان الولـد مهذبـا مـع الجميـع وليـس لـه حكايـات بطوليـة تذكـر إلا معـي؛ وكانـت الشـهور الماضيـة غـير صالحـة لأفهـم فيهـا كل مـا يـدور داخـل الفصـل؛ قلـت لعمـر ذات مـرة: أريـد أن نتحـدث.

رد باستعلاء: ليس هناك شيء نتحدث فيه أنا وأنت!

وخـرج متجاهـلا كل عبـارات الاحـترام؛ لكـني بالمقابـل لـم أغضب؛ لقـد ظللـت أفكـر وأرصـد خطواتـه علـني أهتـدي لخيـط رفيع يقـودني إلى شيء مـا؛ ورغـم أني تظاهـرت أمـام زملائـه بـأن الأمـر يعـدو عاديـا يدخـل في خانـة «التعبـير عـن الـرأي»؛ لكـن طبيعـتي النسـائية استاءت أو تفاجـأت؛ وقـد أخـبرني المديـر بأنـه وحيـد أمـه؛ هـل مـن مشـكل أسـتاذة؟

قلـت إن المشـكل عـادي وأن تجربـتي في ميـدان التربيـة تجعلـني اكـثر انفتاحـا عـلى شـخصيات المراهقـين؛ غـير أن عمـر لـم يكـن مراهقـا عاديـا بـل كان ناضجـا كبـيرا: إنـه الأول بدفعتـه تخصـص العلـوم الرياضيـة.

وكانـت «منـال الفـارابي» حفيـدة الحـاج «فـرزدق» تلمـح لي بأنهـا مسـتاءة ممـا يفعلـه عمـر والآخـرون قالـت بجديـة: إنهـم يدخنـون ويحلمـون بالغـد الأفضـل! ثـم دائمـا مـا يـردد في باحـة الاسـتراحة: إن مادتـك مضيعـة بحتـة للوقـت.

كانـت «منـال» صبيـة لا تشـبه جدهـا في شيء؛ لهـا عينـان حادتـان ووجـه ناعـم أبيـض؛ وخـدان مكتـنزان كجـدتي.. تجلـس بثيـاب الحكيمـات وحيـدة إلا في أوقـات يـتردد بجانبهـا «عمـر»؛ وكانـت محط حسـد الكثـيرات في الفصـل؛ فعمـر لا يقـترب مـن الصديقـات بـل يتهكـم في الغالـب منهـن؛ ومنـال كانـت ربمـا الاسـتثناء الـذي لا يخلـو مـن اسـتعلاء؛ إنهـا وبرغـم النظـارة الطبيـة قـد يبـدو عليهـا شيء مـن المـرح؛ وحـتى وإن لـم تكـن مـن الأوائـل، ولكنهـا كانـت حريصـة على أن تكـون تلميـذة جيـدة تتفهـم الجميـع؛ وتصلـح خيـوط النزاعـات بـين الجميـع أيضـا.

حسـنا؛ كانـت منـال الخيـط الفاصـل بيـني وبـين المريديـن؛ لـم

تكن ضدهم وبالطبع فإنها لم تكن في صفي؛ تناولت من أمامي ورقة وقالت: سأكتب لك عنوان منزلهم.

-- ألن تذهبي معي.

-- أمي لن تسمح؛ وجدي أيضا!

-- صحيح.

كتبت «منال» العنوان متأثرة باعترافها عن «عمر» والآخرين كما زعمت؛ وكانت حدة عينيها كافية لتخبرني أنها الآن «واشية» خرجت مرتدة عن الجماعة؛ لم أشأ أن أخبر عبدالسلام بهذه الترهات كما اعتقدت لوهلة؛ وذكرت نفسي بأني لن أدخل أنفه في كل صغيرة وكبيرة على الأقل في الأشياء التي أملك أن أخفيها عنه؛ ثم كان منشغلا بفيلق من السياح الصينيين القادمين بعد أيام؛ وكان يرتب عمله ولأول مرة؛ وقد قال بعزم: أظن أني سأخط برنامجا وسأرتبه مع فندق «الحرة»!

إن عبدالسلام الآن لا يهمه إلا الصفقات الرابحة والتنقيب على أوفر خط لنقل سياحه إلى جبل «أقشور» وعلى صفقة رابحة ورخيصة لمأكلهم ورفاهيتهم؛ ثم كاد يجزم أن الخير كله في السياح الآسيويين الأجانب بعدما فقد الإسبانيون والفرنسيون ثقتهم بالباعة مثلما فقدوا ثقتهم في الحب والوفاء.

كان عنوان البيت صعبا حتى وإن حفظت عن ظهر دهاليز المدينة القديمة؛ وكانت البيوت هنا متشابهة إلى الحد الذي قد يصعب إيجاده بلونه أو المرفقات بجانبه؛ سيما وأن الأزقة الصغيرة وإن حملت أسماء فلا أحد ينتبه إلى أن هذا الزقاق هو زقاق «الموريسكي»؛ أو زقاق «الكاتب» الموجود بالقرب من عين

«رأس المـاء»؛ توغلـت هنـاك حـتى وصلـت للعنـوان الـذي كتبتـه «أمـل» بخطهـا المرقـون رقـن «الكيبـورد»؛ ووجـدت البـاب الخشـبي نصـف مفتـوح؛ طرقـت البـاب موقنـة بـأن «عمـر» مُلتـهٍ داخـل حصـة الرياضيـات؛ طرقـت البـاب مـرة واثنتـين؛ ورغـم أن البـاب المـوارب قـد يجعـل مـن صوتـه مسـموعا لكـن لا أحـد رد؛ مـددت رأسي قليـلا لأنـده: أم عمـر، أم عمـر، هـل أنـت هنـا؟

كان الهـواء الرطـب متسـللا إلي؛ ورائحـة «العـدس» المطهـو بصلصـة الطماطـم تزكـم النفـس؛ كانـت رائحـة طيبـة؛ وفجـأة طـل وجـه أشـقر صغـير مسـتدير مـن سـطح البيـت؛ وكان السـطح غـير بعيـد؛ إذ لمحتهـا قريبـة؛ والسـطح بـلا جـدار فتـكاد تـرى خفهـا الجلـدي الأحمـر مـدركا الخـواء القائـم بـين اسـفلت الجـدار وبـين الزقـاق!

–احترسي سوف تقعين.

أجابـت بوجـه بشـوش وبلكنـة أهـل الشـاون: لا تخـافي؛ تعـودت عـلى هـذا السـطح؛ مـن تكونـين؟ سـأنزل حـالا انتظريـني.

لـم تنتظـر أم عمـر «شـامة» أن تعـرف مـن أكـون؛ بـل وجدتهـا في دقائـق قادمـة بضحكـة مائلـة لتعـب؛ كانـت ملامحهـا صغـيرة جـدا حـتى ظننـت أنهـا أختـه لا والدتـه! ولـولا أنـه قـد قيـل لي أنـه وحيـد أبويـه ولا يسـكن معهمـا أحـد لقطعـت اليقـين بالشـك! كان قفطـان شـامة صوفيـا عليـه بعـض الـورود الذابلـة؛ وشـعرت أن روحهـا تشـبه هـذا البيـت؛ قديـم بتفاصيلـه العصريـة؛ بـارد برغـم دفئـه؛ وقلـت بعدمـا أخذتـني بحضـن مرحـب:

–أنا أستاذة عمر.

–أهلا يا أستاذة ومرحبا؛ وسحبتني من يدي وأخبرتني أنه من العيب أن نتحدث بالزقاق: ستشربين معي الشاي قسما بالله.

–سيدة شامة لا أريد أن أعذبك؛ أنا أتيت في موضوع يخص عمر.

–أوه ماذا فعل لك؟ والله يا أستاذة لقد تغير الولد ١٨٠ درجة؛ أنا بنفسي قد تغير علي ابني! ماذا فعل بالله عليك. (وكانت تتحدث من المطبخ وقد أصرت بالفعل على أن تحضر الشاي بالنعناع والياسمين).

–لم يفعل شيئا يدعو للقلق؛ لكني أردت أن أتعرف عليه عن كثب؛ ولأنه تغير كما تزعمين فإني آثرت اللجوء إليك لنفهم سويا ما الذي يجب أن نفعله؛ بمساعدتك أيضا.

أخرجت رأسها من المطبخ وكأنها لتوها أحست بخطر ما؛ أنا أعرف أنه بالآونة الأخيرة أصبح مدخنا؛ والأدهى أنه لا يعاشر أصدقاء السوء وأنا لا أعرف من أين جاء بهذا الأمر؟

–هل والده يدخن؟

كانت تحمل صينية الشاي الذي اضطربت كؤوسه حتى سمعنا بعض الرنين؛ قلت: سلمت يداك سيدة شامة وآسفة على السؤال المحرج.

– لا عليك أستاذة؛ عمر بلا أب؛ لقد كانت غلطة الصبا.

–أنا آسفة حقا سيدة شامة على الإحراج.

مقاطعة إياي: لا عليك؛ لقد هربت من إحدى دواوير «باب برد»؛ تعرفين «الجبليين» لا يرحمون بناتهم؛ وأنا أستحق ما حصل لي.

مسكت بيدها وكنت لا أعرف ما أفعل بفرط الدموع التي صعدت بعيني هكذا قلت متأثرة: ولم تتخلي عن عمر وتلك شجاعة يا شامة.

ناولتني كأس الشاي وهي تغالب خجلا وحياء: لقد جلبت العار لأهلي؛ والآن لم أستطع رؤية أمي التي بفضلها هربت؛ أمي عرفت بحملي وقتها وأخبرت أستاذتي؛ ثم تضحك.. أنتم الأساتذة رأس الهم كما يقال؛ وأتذكر أنها كانت تبكي كثيرا كلما لمحتني في باحة الثانوية.

–وكيف هربت؟

–صفعتني أمي وقتها كثيرا في الحمام ثم احتضنتني وبكينا سويا؛ أعطتني سلسلة الذهب بحوزتها وقالت من الأحسن ألا يجدك أبوك غدا.. كانت قد أعطتني مبلغا من المال وقالت: الفرار أحسن ألف مرة من الموت.. رحمك الله يا أمي الغالية.

–فليرحمها الله؛ بلعت مخاوفي وقلت: وأين والده؟ ماذا فعلت بعدها؟

–«عبدالسلام» هرب لحظتها ولكن حين علم إخوتي بالأمر هلكوه ضربا وجراحا حتى كاد أن يموت؛ أما أنا فجئت إلى الشاون وعملت في المقاهي والمنازل إلى أن توظفت مؤخرا في فندق «الحرة».

–فندق «الحرة»؟ عبدالسلام؟ أرجو ألا تكوني قد قصدت المرشد السياحي؟! الذي يملك عينين رماديتين؟ لا ليس هو؟!

–نعم، نعم هو؛ لم أشأ أن أتزوج منه مرة ثانية لقد كانت غلطة وحيدة ولن تتكرر.. وأما لقد اعترف بابنه وهو يصرف

عليه ولكن الابن حاقد -على ما يبدو- على أبيه؛ لا يحبه ويكره أن أفتح سيرته؛ بالله عليك قولي لي ماذا فعل لك يا أستاذة؟

***

كان من المفاجئ على نحو ما ألا يكون هناك رد على رسائل «عبدالسلام»؛ وقد واصل بحثيث التعرف على هوية أهلي من خلال كنيتي؛ ومن خلال أسئلة متعلقة بعائلتي؛ وكنت دائما ما أرفض أن أجاريه في الحديث؛ أو كنت أقمعه بشكل مباشر لأن انكشاف أمر هروبي قد فشته سيمان؛ كنت لا أعير الأمر أهمية في بداية الأمر؛ إلا أن إصراره على معرفة من أكون صار مخيبا للآمال.

ولقد تحطم قلبي مرة ثانية.

خرجت من عند السيدة شامة شبه معاقة؛ أحسست بأنني وسط شرنقة من أشواك؛ وحيثما مددت أصابعي لتمزيقها اندملت جراح الأصابع ونزفت دما.. لم أكن أحتاج لأعرف حينها لم كرهني «عمر»؛ بل إني طرحت آلاف الأسئلة؛ ولعنته برأسي مئات اللعنات؛ وأحسست بتقزز وأنا أتذكر أني أوليت وقتي وثقتي وصداقتي وبعضا من مشاعري لذكر وغد وتافه؛ ذكر خرب لأنثى طيبة وبريئة حياة بأكملها؛ لم أستطع أن أكتم شيئا وقتها وجربت الاتصال به فلم أفلح في إدراكه؛ ذهبت بحنقي إلى فندق السيدة الحرة: أين هو عبدالسلام من فضلك؟

– لقد ذهب إلى أقشور؛ ستجدين هاتفه مغلقا فلا شبكة هناك.

–جيد إذا رجع أخبريه أن أستاذة ابنه عمر تسأل عنه.. فهمت؟ أنا أستاذة ابنه عمر.

كنت غاضبة؛ وكأني كنت أود التحدث إليه لألقي عليه بوابل من الشتائم والحقد والغضب الجاثم على صدري؛ كنت أريد أن أضربه بشدة لأخبره كم أني غبية وساذجة حين حاولت تبرير حدسي من جهته؛ كم كان بارعا في كسبه ثقتي؛ كم كان آخر شعاع نور أمام ظلام القلوب المحيطة؛ كم خذلني وخدعني كما تورط في ذلك الآخرون؛ كنت أود أن ألقي بسخط السنين بوجهه؛ وأن أصرخ بهستيرية كما لم أفعل من ذي قبل؛ كم أني توجعت من الخيانة؛ كم أوجعتني الأيادي البيضاء المرصعة باللؤم؛ كم أني حزينة أيضا عليه.

انصرفت إلى البيت أجر أذيال الرذيلة؛ أليست الرذيلة أيضا سذاجتنا في تركيبها العفوي؟ لم يكن لدي حينها فرصة للهدوء أو التروي؛ كل ما وددته هو أن يعطني عبدالسلام الفرصة لانفجر عليه كما أردت دائما أن أفعل؛ حتى السيدة نعيمة التي وجدتها تغلق العيادة لم أعرها أي اهتمام أو سلام وهي المتزوجة حديثا؛ لقد كان الجو حالكا بما يكفي بعيني لأتجاهل النظر إليها ولم يكن في مداري غير قصة شامة وعبدالسلام الذي يتأبط السلام والغموض أينما ارتحل معي.

دخلت البيت فإذا بي أقع على ورقة صغيرة مكتوب عليها:

«لقد استلمت أمانة اليوم تخصك؛ مري للبيت لأخذها؛ عمك السيد فردق».

أطلت النظر في كفي المتسختين ثم أغلقت بهما على وجهي محاولة استيعاب قدر قليل مما يجري.. ثم غفوت قليلا على

أريكة البيت بكامل اندهاشي وسخطي.

أما سوء الحظ فليس دائما بابا أُغلق في وجهك أو خذلانا من حب أو حتى نعاسا مستحقا أخرك عن شيء مهم للغاية؛ إن سوء الحظ الخطير أحيانا هو يوم طويل لا ينتهي؛ وأحداثه التي تقلب مسار حياتك لا تأتي تباعا بل تتداخل؛ ثم ما تلبث تتوالد؛ بحيث لا يمكنك التكهن أبدا بما يمكن أن تكون عليه حياتك بعدها.

استيقظت بعد نصف ساعة؛ وأجمل ما قد يحصل لمصاب بالوسواس القهري مثلي أن ينسحب عقله إلى نوم خفيف بفعل اضطرار؛ وهذا لا يحدث لي كثيرا بسبب الأرق؛ إن تراكم الهموم والمتاعب لسنوات تجعل العقل في حالة تعب شديد؛ يريحك ويريح نفسه من السؤال والبحث الحثيث عن جواب؛ وما الذي سيجعلني أنهي يومي عند السيد «فردق»؟ الحقيقة لا شيء؛ لكن كلمة «أمانة» خيلت لي «ظرفا» والطرد بطبيعة الحال لا يعني رسائل؛ إلا أني قرأت جملته ثلاثين مرة تقريبا؛ محاولة فهم سياق «أمانة» وهل سيستحق ذلك العناء أم لا؟

ولكن بالنسبة لمصابة بالهلوسات المتكررة؛ فإن مجال الشك عندي حين يدخل من العينين؛ يخلد للأبد.. يعني أنه علي أن أتبع الخيط وأن أفهم وإلا أكلتني الشكوك.. لم أكن قادرة على بلع ورقة السيد فردق هكذا على الريق بل كان علي الذهاب.. والذهاب فقط.

كنت لا أحس بشيء وأنا أدلف بخطاي؛ الهواء بارد وأما الشمس فكانت إلى أفول؛ وفي كل مرة كنت أمسك بهاتفي وأجرب تركيب رقم عبدالسلام لأصرخ في وجهه؛ تجيبني سيدة العلبة

الصوتيـة ومودعـة سرائـر الغائبـين بالقهـر أو بالرصـد والترصـد أن هاتـف مخاطـبي خـارج التغطيـة؛ وخـارج الـبراءة أيضـا؛ وتكهنـت قليـلا بـأن مـا يريـدني في شـأنه السـيد فـردق هـو ربمـا عقـد الكـراء؟! أو لعلـه شيء يخـص حفيدتـه منـال؟ أو هديـة زاهـر مـن بـلاد الاسـكندناف؟ سـخرت في أعمـاقي رغـم سـوداوية الأفـق بـرأسي؛ أي هديـة هـذه الـتي يبعثهـا طبيـب قديـم العقليـة يريـد الـزواج بامـرأة بـلا مـاضٍ؟ لا يدافـع عنهـا؛ لا يبحـث عنهـا.. لا يخـوض معـارك وهميـة لإقنـاع لاوعيهـا السـاخط والمـتردد.. لـم يرسـل لي يومـا أحـد هديـة؛ أنـا لسـت امـرأة لاسـتقبال الهدايـا؛ لا أتلقـى هـذه الأشـياء إلا عندمـا يريـد أن يورطـني أحدهـم في مشـكل؛ حـتى زوج عمـتي قبـل حـادث الاتصـال بأيـام جلـب لي جريـدة وضربهـا عـلى وجهـي باسـتفزاز: قـال هـذه هديـة إليـك؛ عـدد اليـوم مخصـص لفتـاوي المـرأة وأسـأل الله لـك الهدايـة.

لقـد وصلـت إلى دار السـيد فـردق وكنـت لا أزال غارقـة في بعـض المشـاهد؛ أتحسسـها وأسـاوم بعضهـا لتمـوت في مخيـالي الحزيـن؛ أيـن أنـا وأيـن ذكرياتي؟ هـل هـي الأسـوأ أم حـاضري البئيـس؟ ومـاذا ينتظـرني بعـد هـذا المرطـون الطويـل ابتـداء بعمـر وانتهـاء بـأبي عمـر.. إنهـا أشـياء لـم تكـن في الحسـبان؛ وهنـا وجدتـني أدق البـاب؛ تفتـح لي منـال بوجههـا السـعيد جـدا: أسـتاذة؛ مرحبـا بـك في منزلنـا؟

–هـل تسـكنين مـع الحـاج والحاجـة؟ وابتسـمت بإرهـاق بـاد عـلى وجهـي.

–نعم تفضلي إنهم ينتظرونك في الأعلى.

أمسكت بيدها: ينتظرونني؟ من؟

–الحـاج والحاجـة ووالـدتي ثـم سـكتت وصمتهـا بـدا لي فرحـا.. هل

تـزوج الحـاج فـردق الزوجـة الثانيـة وأنـا مدعـوة للـزواج أم ماذا؟

فضلـت أن نسـخر بمـا أن العائلـة ستسـتقبلني في الطابـق الثالـث؛ وقلـت ياللعجـب جـدك يهـوى المرتفعـات؛ هنـا وبالعمـارة الـتي أسـكن فيهـا.. أنـا ألهـث.. قالـت منـال بخفـة: كدنـا نصـل.

اسـتقبلني السـيد فـردق بموالـه المـؤدب: يـا أهـلا وسـهلا زارتنـا البركـة.

وكنـت لا أستسـيغ المجامـلات والعبـارات الرنانة؛ الحيـاة لا تحتاج هـدرا في الكلمـات اللطيفـة؛ هـي بمـا هـي عليـه جافـة وقاسـية؛ بـل إننـا نزيـد مـن تعميـق مأسـاة النفـاق حـين نقبـل ونتقبـل مثـل هـذه العبـارات الشـائكة.

قلت: شكرا، وكان العياء غائرا متبجحا في سحنتي الصفراء.

– أوه ما بك نطقت الحاجة وهي تقبلني؛ هل أنت «لاباس»؟

– نعم سيدتي لا تقلقي.

لكـن يـدا مـن خلـف حـين كنـت أتحـدث إلى الحاجـة وأم منـال وضعـت عـلى كتفـي؛ يـد رقيقـة أعرفهـا ذكرتـني باهـتزاز المهـد وأنـا أحـاول أن أغفـو بهـذا العالـم؛ يـد وضعـت عـلى كتفـي فأصابـت جسـدي بخـدر لطيـف؛ يـد ثقيلـة ورطبـة كمرهـم الجـراح؛ يـد مبتلـة بالعـرق كأنهـا نهـر متدفـق مـن الحكايـات المبكيـة؛ يـد وضعـت عـلى كتفـي حـتى مـا عـدت أحـس بـشيء؛ يـد شـدت عـلى كتفـي؛ نزلـت عـلى ذراعـي تمسـح يتمـه؛ أدارتـني اليـد الواحـدة.. كانـت خلـف اليـد جـدتي.

***

الأقـدار؛ هـي مـا يمكـن أن نقولـه حـين لا نملـك أجوبـة علميـة أو منطقيـة صحيحـة لنفهـم الحيـاة؛ ولعلهـا تتفـق أو تتداخـل مـع المنطـق كي لا تبـدو «معجـزات»؛ كأن تكـون جـدتي جـارة السـيد فـردق حـين شـبابه؛ وأن الحاجـة «بهيجـة» زوجتـه كانـت لتكـون صديقتهـا الغاليـة؛ وأنهمـا اقتسـمتا خـبزا وملحـا وذكريـات كثـيرة بالمدينـة القديمـة قبـل أن يهاجـر الحـاج إلى مدينتـه الأصـل ويمسـك إرثـه وإرث عائلتـه؛ «لقـد سـخطت عـلي العائلـة وقتهـا حـين تزوجـت بهيجـة ولـم يكـن حينهـا لي سـند غـير جدتـك للاللـة «سـعاد» أداماهـا الله؛ وعرفتـك بعدهـا باسـمك عـلى البطاقـة الوطنيـة لأني أعـرف والـدك أيضـا وحـضرت زيجتـه مـع أمـك؛ لـولاك لمـا تكبـدت عنـاء التنقـل إلى مدينـة تـازة؛ والتحـدث مـع جدتـك بخصوصـك.. لـم أشـأ أن أربـكك بـأي شيء يخـص الموضـوع لأن جدتـك ألحـت عـلى سريتـه عـلى والديـك؛ ورتبنـا مجيئهـا للاطمئنـان عليـك».

- مـا أحـلاك يـا جـدتي وأنـت تنامـين ببيـتي؛ مـا أحـلاك وأنـت تربتـين عـلى كتفـي وتمسـحين الدمـع الغزيـر؛ يـا جـدتي إني مظلومـة وتعرفـين أني كذلـك.

- لقد حرقتِ قلبنا عليك يا بنيتي.

- كنت أخاف أن تموتي؛ وأن تموت أمي دون أن أراكما.

- أنـا لا أقبـل بحفيـدات ضعيفـات؛ انظـري إلي؛ لقـد عشـت قويـة وحيـدة وتحديـت الزمـان والعقليـات والعـادات؛ أنـت تشـبهينني؛ ودائمـا مـا تكـون هنـاك امـرأة في زمـن خاطـئ؛ الحـاج فـردق يعـرف ما تكبدتـه لأجـل أن أربي أمـك وبـاقي إخواتـك مطلقـة ووحيـدة؛ في زمـن كان ليشـتريني فيـه الجميـع ولكـن قلـت لا واشـتريت ماكينـة الخياطة؛ وخطـت قفاطـين البسـيطات؛ وبرمـت خيـوط الحريـر؛ وتجرحـت

أصابعي من التغريز بالإبر؛ وضعف بصري من التطريز؛ والآن تعز علي العصافير المهاجرة فوق سطوح البيوت؛ يحز علي رؤية مخلوقات الأرض في صراع مع النجاة؛ إن الطيور حرة يا بنيتي حرة أبية لا تهاب رياحا ولا تخاف قلة رزق؛ تطير بإيمان شديد أن الأرض تحمل الزرع والدود وحبات الكسكس؛ لذلك أنا أحتفي بها في كل يوم.

- لمن الشكلاطة يا جدتي؟

- هي لك! حتى وإن بدوت كبيرة وكبرت؛ وإن مت اجعليها عادة؛ اشتري لنفسك شكلاطة وقولي لقد جاءت لي بها جدتي للاللة سعاد.

لا لم أكن أحلم؛ كانت جدتي فعلا؛ قادمة إلي بكل تعبها وشيخوختها وكبرها لتطمئن علي؛ لتقول الآن إن جاء الموت بعد أن اطمأننت عليك فلا بأس؛ فأنا امرأة عاشت كثيرا؛ وحاربت كثيرا؛ لذلك كانت تطلب من الله بصمت أن ترتاح راحة بقدر تضحياتها الجليلة مع الجميع.

ذهبت إلى العمل بعدها مفعمة بالحب؛ كأنني أصبحت وردة جديدة العبير؛ لبست ثيابي الملونة؛ ووضعت عطري الثقيل بالعود؛ ومضيت إلى الفصل باسمة؛ انتبهت إلى غياب «عمر» فرجحت عدم رضاه على ذهابي إلى والدته ربما؛ أنا لم أنس قصة عبدالسلام قط؛ إن جدتي أتت كنقطة سوداء أنيقة فوق سطر الحكاية؛ أتت كغيمة شهية مثقلة بالمطر؛ أتت كعبارة رومانسية داخل فيلم رعب؛ جدتي تدخلت في وقت كاد ليكسرني أنصافا أخرى؛ ثم إن هروب جدتي للاطمئنان علي جعلني أستكشفها من جديد؛ فالعقل يتوقف إزاء اللحظات العظيمة؛

والمرض يقهره الفرح الغزير؛ لا شيء يبدو أمام الوسواس ممكنا غير المرارة المتتالية؛ والوحدة الخطيرة؛ بيد أن قدومها كأنه أجل بعضا من المشاكل الجانبية؛ وصار علي أن أتصل بعبدالسلام لأقلب عليه أكاذيبه؛ أو بالأحرى لم تكن كذبة ولكن اختفاء ماكر داخل عباءة «الجانتل مان» أو أنه صيد فريد لضحية أخرى بعقلية جديدة؟ أنا لا أدري حتى لم أقفل هاتفه منذ المساء؛ وحين اقترب الدرس من الانتهاء قلت بشيء من عدم الاكتراث:

– ما به الكابتن «عمر» اليوم؟ يبدو أن درسي لم يعد يعجبه فعلا.

سكت الجميع؛ وكنت أدون بعض الملاحظات حول سير الدرس؛ إلا أن السكوت العجيب أثار انتباهي:

– ما بكم؟ لقد انتهى الدرس وبلغوا عمر أن هذه حركات صبيانية ليست في صالحه؛ وعلى العموم أبلغوه بالامتحانات وبأني مستعدة لأن أعيد له درس اليوم.

ظل الجميع ساكتا ومحدقا؛ وكانت وجوههم مريبة؛ أو أنني تهيأت بأنها كانت تحمل شيئا من التشاؤم أو عدم الرضا؛ قلت: - ما به عمر؟

أغلق الجميع فمه؛ ودارت الأعناق كلها صوب «أيمن» صديق طفولته:

– أيمن، ما الأمر؟

– لقد جاءت البارحة والدته من العمل ليلا في حالة بكاء؛ يقال إن أباه «عبدالسلام» سقط البارحة من جبل «أقشور» هو وسائحان يابانيان، وأنهم نقلوا على وجه السرعة إلى مستشفى

«عبدالكريـم الخطـابي».

لعـل الـشيء المربـك في الحيـاة هـو الحـزن؛ أمـا المـوت فخـلاص لنـا جميعـا.. لقـد مـات «عبدالسـلام» مـات شـامخا كالجبـل متأثـرا بجروحـه؛ لـم تسـعفني الأيـام الـتي انتظرتهـا آملـة أن يسـتفيق؛ أن يسـتفيق فقـط.. لقـد ظللـت تائهـة بـين روائـح «الكحـول» وبـين مشـاهد الإصابـات العديـدة الـتي تجـيء إلى هنـا رغبـة في الحيـاة مـرة أخـرى؛ ولـم يفلـح الأطبـاء بإقناعـي بـلا جـدوى المكـوث عـلى بـاب غرفتـه بـلا نـوم أو أكل؛ كأنمـا كنـت أسـيرة لرؤيتـه مـرة أخـرى أخـيرة؛ متجادلـين أو باسـمين أو ضاحكـين أو بمـكان مـا؛ آه يـا عبدالسـلام؛ تصـورت أن الجميـع قـد يمـوت إلاك؛ أنـت الشـخص الـذي اسـتطاع أن يفقـدني احترامـه وجعلتـني أكرهـك وأحبـك بنفـس الشـدة أيضـا؛ حبـا متأرجحـا بـين العطـاء والامتنـان؛ رحلـت شـامخا دون أن تـرد عـلى المـاضي؛ دون أن تـشرح شـيئا؛ وأغلقـت عـلى كل شيء يخصـك بالرحيـل الـذي لـم تختـره؛ فأنـت العاشـق للحـب والحيـاة وللإنسـان؛ وأنـت صاحـب الـزلات المتهـورة؛ والقـرارات الـتي لـن أتمكـن مـن فهمهـا بالمطلـق؛ الـشيء الوحيـد الـذي عرفتـه سـاعتها أن مكانتـك كانـت أكـبر مـن ردات الفعـل؛ وأن بالحيـاة لحظـات كانـت تصلـح للأفـراح ولكـن العنـاد والكتمـان يخـرب عـلى النـاس متعتهـم؛ الصعـب يـا عبدالسـلام أنـك أكـبر مـن ذكـرى؛ وأكـبر مـن عـبرة وأن وقوفـك بجانـبي عرفـان شـديد الأثـر عـلي لـن أنسـاه مـا حييـت؛ ربمـا تركـت لي «عمـر» و»شـامة» تركتهمـا لي دون أن تقـول شـيئا؛ تركـت لي عرفـان أن تبحـث مـع الحـاج فـردق عـن عنـوان جـدتي الجديـد بـ»تـازة» وأنـت الـذي كنـت تتأمـل كل يـوم مـا إذا حمـل الصنـدوق مسـتجدا.

وعلى قبرك كل يوم جمعة أجيء لأرى إن كان أصيص الورد ثابتا على قبرك؛ لا أستطيع يا عبدالسلام ألا أبكي عليك؛ لا أستطيع؛ بالمناسبة لقد تزوج «زاهر» أتعرف من زوجته؟ لا لن تعرف ولن يخطر لك على بال أنها السيدة نعيمة؛ تكبره؟ القصة ليست كبرا يا عبدالسلام؛ القصة أن الرجل وجد نفسه في اللحظة المناسبة لأن يتزوج أيا كان؛ حتى وإن كان الحاج فردق مالك العمارة! أقهقه بدمع بريء؛ أريد أن تضحك وأنت تسمعني؛ حين مت ما عادت الأخبار هذه قد تعني الكثير؛ إلا أنها قد تصلح خبرا أصفر في مواقع باهتة على الإنترنت؛ مثل تلك التي يسمونها بـ»شاهد قبل الحذف».

هو كذلك خبر زواج زاهر من سكرتيرته؛ ثم أتعرف شيئا أفتقدك ولعل هذه الكلمة وددت لو قيلت لك؛ تكبرت عليك؟ كنت أراك صعلوكا؟ كنت أراك لا تصلح لي؟ يا عبدالسلام ستظل عصيا على النسيان؛ سنلتقي في مكان أفضل يا عزيزي.. وقبل أن أقرأ عليه آيات من الذكر الحكيم؛ أستدير له بابتسامة:

إلى اللقاء يا أصدقاء.

ثمة من لا يعرف قلبه حزنا ولقد بات من المحير أن نعيش نحن وهُم على أرض واحدة.

-١٠-

أغسطس

أشعر أن حنان الأمس قد عاد؛ أشعر بالشمس الحادة؛ بالوقت المُعطل؛ بالسلام الداخلي؛ ألقي برجلي من تحت الطاولة وأرفع رأسي إلى الشمس عساها تُعكر صفو هذا اللون؛ أشعر أن الحب قادم من فصل ربيع؛ وأن الأفواه التي ترصدت قدومي قد أعياها الانتظار؛ أشعر بأن عبدالسلام بمكان ما هنا؛ أشعر بدعاء جدتي بالليالي المقدسة؛ أشعر أن الله معي.

أشعر بأني أريد أن أعترف لأحدهم بالحب؛ أن أقول بصوت مرتفع أني مريضة مهووسة بالقلق؛ وبأني لا أشكل خطرا بالرغم من ذلك على أحد؛ أشعر باستحالة السراب في الطرق البعيدة؛ أشعر برغبة البدايات الجيدة في الأماكن التي لا يصل إليها الجميع؛ ثم أشعر أيضا بامتنان الوحدة للوفاء؛ بالساعة العاشرة الممددة بجانبي على هذا الكرسي المهتز؛ أشعر باهتزاز السلام بقلبي؛ بحنان النسيم الآتي من الجبال البعيدة؛ بألم المدينة الصغيرة الصامدة بوجه السياح؛ بانتظار عصفور توارى تحت سقف البيت من شمس الظهيرة ريثما يعود المساء إلى عشه؛ أحس بارتفاع العمر في رجليّ المتعبتين؛ أشعر بنهر من الحزن الخامد في صدري؛ بعربدة الشجن نحو سماع ناي أو حفيف شجر.. أحس بخرافة الأمل وبتفاهة اليأس وبرقص الشهوة حين

يلـوذ المـوت بالفـرار؛ وبالرغـم مـن ذلـك أحـس أن حنـان الأمـس قـد عـاد؛ حنـان النهـوض عـلى مـزاج أبي المعكـر؛ لرقـة الدعابـة بـين أسـوار سـجن احتياطـي؛ لخصـام حـول لفـة حجـاب؛ أو تـورط مثخـن بالإهانـة حـول رأي أو اعتقـاد؛ حنـان النظـر لعيـون جـدتي.

أشـعر أن الغمامـة الـتي تمـر مـن أمامـي فـرد مـن العائلـة؛ وبـأن الليـل المتأخـر حبيـب؛ أشـعر أنـني مدينـة لهـذا المـكان؛ بامتنـان

نحـو الزعـتر المـصر عـلى السـكن بـين الجبـال؛ للصخـور الموحشـة مثـل هـذا التمـرد بـرأسي؛ أحـب هـذا الشـعور بالمـكان بقـدر حـبي لأن أولـد مـرة أخـرى في مـكان آخـر؛ وأظـل هكـذا بـين كل فـترة وفـترة مسـتعدة لقلـب الصفحـة بحيـاتي عـشرات المـرات؛ وأشـعر بامتنـان نحـو المسـاءات المسـالمة؛ كهـذا اليـوم القريـب مـن ذاكـرة الأمـس؛ لكـني أشـعر أيضـا بالوقـت المُعطـل؛ بالصـورة غـير الواضحـة للغـد؛ بالغـد الغاضـب مـن الأمـس؛ بـشيء عدمـي؛ أشـعر بألـم مـا؛ في فرح مـا.. وأشـعر بانهيـار شـديد الصمـود؛ وبصمـود شـديد الانفعـال.. هـل ذلـك كان يعـني المـوت؟

–بل كان يعني أنك في الحقيقة؛ ما عدت تشعرين بشيء.

عـلى الأقـل بعـد مـوت عبدالسـلام اسـتطعت الاقتنـاع بأننـا لا نملـك أكـثر مـن لحظتنـا المنفلتـة مـن الزمـن؛ لذلـك تمنيـت أن أعـود إلى مشـاعري؛ أو إلى جـزء منهـا عـلى الأقـل؛ الجـزء الـذي غـاب بالخـدر عـن واقعـي البشـع: الهـروب!

كان يبـدو لي دائمـا أني سـأواجه شـيئا فظيعـا لـم يـأت بعـد؛ ورغـم أن حكايـتي بـدأت تأخـذ مأخـذ الذيـن ماتـوا واسـتأنس أهاليهـم مـع الوقـت فقدانهـم؛ فـإن مـا أيقظـني اليـوم للإمعـان في كل مـا فـات هـو عيـد الفطر الـذي سـيحل بعـد سـاعات مـن الآن؛ لا يبـدو عـلي

فـرح ولا حـزن؛ قـد سـبق أن حـددت جليـا في أي رقعـة أقـف؛ إني أقـف اليـوم مـع هـؤلاء الذيـن لا يهتـم بهـم أحـد: المتخـلى عنهـم؛ الجنـود؛ اليتامـى؛ المعلمـون؛ أطفـال الشـوارع.. ومـن هـذه الرقعـة الـتي نقـف فيهـا حـد أقـصى مـن اللامبـالاة؛ إننـا لا نهتـم فيـأتي العيد ليعـري سـوءة هـذا الادعـاء الـكاذب؛ إن العيـد سـيظل عيـدا؛ لا أحـد سـيغير مـن أجلـه عاداتنـا أو سـيقتنص مـن يومـه بضـع ثـوان للبـكاء والترحـم والتذكـر؛ إن جـدتي تقـول: مـن يـرد أن يبـكي عـلي فليفعـل ذلـك بحيـاتي! إن هـذا الأمـر صـادق جـدا؛ وكل الذيـن أبكيناهـم بحياتهـم ورثيناهـم يطـردون مـن الذاكـرة بـلا رحمـة؛ كنـت لاكل كعـك أمـي الـذي صنعتـه ذات سـعادة نـادرة؛ وكنـت لأنظـر إلى إخـوتي بالكثـير مـن الحـب؛ وكانـوا لينظـروا إلي بنظـرة عاديـة سريعـة؛ وكنـت لأفعـل كل ذلـك بقيـد ثقيـل بالقلـب؛ هـا أنـتِ دون أن يجـبرك أحـد عـلى التكـور داخـل الأريكـة بالصالـون ذي النافـذة الواحـدة؛ هـا أنـتِ دون أن يكمـم فاهـك عـن رأي تؤمنـين بـه أو فكـرة غبيـة تريديـن تحقيقهـا؛ هـا أنـتِ حـرة داخـل فلـك أسـئلتك السـوريالية؛ مـا الـذي فاتـك؟ فاتـني أن يعرفـوا أني لسـت كـم يظنـون.. فاتـني تصحيـح تلـك الصـورة الـتي يأخذهـا الآبـاء عـن أبنائهـم؛ فاتـني أن أرى دفاعهـم عـني وفخرهـم العظيـم بي.. فاتـني ألا تقـص شـجرتي الفاضلـة حاملـة النجـوى وأعشـاش العصافـير المهاجـرة؛ فاتـني الحق في تغيـير محطـة التلفـاز دون أن يـصرخ في وجهـي الجميـع؛ فاتـني أن أحـكي عـن مشـاعري وأبـكي كثـيرا حـين ظلمـني قانـون التطليـق واعتـبر شـهادتي عـن الاعتـداء اللفظـي والجسـدي لا يمكـن الوثـوق بهـا؛ فاتـني أن أغـني لهـم وردة وأم كلثـوم وفـيروز؛ أكـثر مـا كنـت أعتقـد أنـه مـن الممكـن فعلـه في بيتنـا هـو ألا تكـثر مـن الشـكوى.

عظيم هو عيد الفطر؛ حين لا ننام بفعل السهر لساعات انتظارا لموعد سحور متأخر؛ ومناجاة عميقة من العبد لربه؛ متشعبة هي انتظاراتنا للهلال؛ بين اعتيادنا لمتعة الإمساك؛ وشهوة إفطارنا جميعا في صباح العيد.. نظل متأرجحين.. وبين هذا وذاك؛ رائحة المسك والعنبر والعود أشتمها بلا عناء من شرفتي؛ المصابيح الصغيرة الملونة المعلقة بين زقاق وزقاق؛ الليل الذي يتحول إلى نهار معتم؛ والنهار الذي يتحول سريرا كبيرا للنيام الكسالى؛ حين يتحدى الجميع سيرورة الزمن والبيولوجيا؛ ويتمردون عن كل ما من شأنه أن يغضبنا ونحن صيام! نكف عن إيذاء الناس بمزاجيتنا المتقلبة بالنوم فيما تتعبد النساء في المطابخ بالتقرب إلى معدات أزواجهن بالطواجين والحريرة والمخابز العامرة بالخضر أو الفارغة إلا من سمن وزبدة! لكنه تعب جميل صاف؛ يحب أن يجزي به الله النساء أو تحب النساء أن يفعلنه طواعية من باب: خُدّام الناس.. سيدتهن!

أما أنا فكنت لا أتبع طقوس الجميع؛ كان التمر والماء وبضع فواكه كافية لسد الرمق على الأقل عند الأذان؛ وأما السحور فشيء به حامض وملح؛ أحب هذين الروحين الممتزجتين في الأطعمة؛ المذاق الموقظ للحواس بأجمعها مع اهتزاز خفيف لإحساس الفقد.

لعل يوم العيد غدا على ما يبدو؛ فالناس من أسفل الشرفة تبدو على عجلة من أمرها؛ عفاف الصغيرة ابنة الجارة «عُليّا» بضفائرها السوداء تحمل صواني «الفقاص» إلى الفران «مولاي علي»؛ دكان المصبنة المجاور للفرن مليء عن آخره بطلبات الزبائن التي تحمل قفاطينها وجلاليبها الجديدة للكي حتى تكون

جاهـزة لأن تلبـس غـدا؛ حركـة دؤوب في الزقـاق عـلى غـير عـادة؛ حالـة مـن الهيجـان قـد ألمحهـا مـن ذهابهـم وإيابهـم؛ وحديثهـم المتفائـل؛ وضحكاتهـم المتلبسـة بـتردد حـول مـا إن كان العيـد غـدا أم بعـد غـد؛ ينتظـرون أن يفـرج عن الخـبر في الإذاعة الوطنيـة؛ أو أن تواظـب الأمهـات بصنـع «الرغيفـة» و«الفقـاص» عـلى أمـل أن يكـون العيـد الصغـير غـدا؛ فيسـتفيق المغاربـة عـلى التهـاني والتبريـكات؛ يـوم حقيقـي يغلـق فيـه الجميـع خلافاتهـم ويحومـون حـول مائـدة إفطـار واحـدة؛ يـوم حقيقـي للفـرح بحـرص عـلى إغـلاق الذاكـرة الحاقـدة والحزينـة؛ نـوع مـن النفـاق الاجتماعـي؟ وليكـن! مـا همنـا نحـن في نوعيتـه إن كان يحبـس أنفـاس الـشر والحـزن!

وقد كان كذلك..

أغلقـت جميـع النوافـذ والسـتائر وقفلت البـاب بالمفتـاح؛ وأغلقت الهاتـف الـذي لا يـرن إلا عنـد انتهـاء شـحن بطاريتـه؛ ثـم عـم الظـلام؛ وضعـت رأسي حـين اسـتيقظ الجميـع للاحتفـال بالعيـد.. ونمـت.

***

لا يمكـن للشـاون أن تغلـق بعـد هـذه السـنوات دكاكينهـا بدعـوى عطلـة العيـد في وجـه زوارهـا القادمـين مـن شـتى بقـاع العالـم؛ قـدري أني جئـت للسـكن في مدينـة تفتـح بيتها للإنسـان؛ إن الشـاون لا تشـتغل إلا بسـواعد أهلهـا البسـطاء القادمـين مـن الجبـال والدواويـر

المجاورة؛ لذلك يصعب على «الشاوني» أن يترك مدينته أو أن يتنازل عن دكانه الصغير أو عن فرنه التقليدي بمقابل البحث عن فرصة عمل مغرية في المدن الكبرى؛ الشاوني يظل بابتسامته وسعة صدره وأخلاقه العالية تجاه النساء والأطفال؛ تهذيب خارق للعادة وترحاب متأصل في طباعهم حتى أصبحوا هم منه وهم فيه.. ولذلك لا يترك نادل مقهى «برشلونا» لزائر جديد طاولتي؛ إنها طاولة عادية في موقع معتاد لا جديد فيه.. مفروشة بستار بنفسجي وبها زهور مطرزة كما بقية الموائد؛ مزينة بشمعدان ووردة حقيقية يضعها «محمود» لي مبتسما: الورد للوردة!

محمود هو الآخر لم تعد نظرته كما قبل وجود «عبدالسلام»؛ الحياة أصلا تغيرت وأصبح حريا بيّ أن أقول: الحياة قبل عبدالسلام، وبعد عبدالسلام.. فأما قبله فكانت بمثابة عائلة وأما بعده فلست أعرف أي مرادف يليق بغياب كـ«الموت».. ومحمود يأتي لي بكأس الشاي الضخم الذي تطل منه عروش النعناع الخضراء المنصهرة في سكر الشاي؛ يضع لي على خصر الكأس منديلا ورقيا صغيرا حتى لا تحترق أصابعي ريثما أنشغل بقراءة كتاب ما فلا يبرد كأسي دونما متعة في ارتشافه!

إنها المدينة التي يهتم فيها بكل التفاصيل الدقيقة التي لا يمكن أن تخطر لنا على بال؛ يفكرون بدلا عنا ويهتمون بجلب القليل من «الكاوكاو» الفول السوداني المحمص في صحن صغير هدية لقتل الوقت والجلوس هنا مطولا دونما إزعاج؛ جلوس متفرغ لمشاهدة وصلة من مقطوعة موسيقية لهاو ما قادم من بلاد ما؛ يجلسون وسط الساحة أمام مقهى «برشلونا» لإمتاع جماهيرها غير العاديين الذين لا يجلسون للتلصص على قامات

النساء.. مرتادو هذا المقهى بالذات هم أناس تغطس رؤوسهم في جريدة أو كتاب حتى وإن لم يدع صاحبها أنه مقهى أدبي أو ثقافي؛ لكن السياح عامة يجلبون كتبهم وأبحاثهم لتفحصها في استراحة شاي بعد إكمال رحلاتهم من وإلى الشاون.

وفي أيام إجازتي أيضا أصبح سائحة خفيفة الظل تتفقد حقيبتها سبعين ألف مرة لتتأكد إن كانت مفاتيح شقتها في مكانها؛ حتى عند الصباح آتي محاربة الملل وسط هذا المقهى اللطيف؛ اليوم بدأ بصفائه المعتاد وسط ضباب كثيف حتى تكاد الجبال المحيطة غير موجودة البتة؛ صباح بارد بالفعل في يوم أغسطسي كاذب؛ تقول جدتي أن أيام الضباب في مثل هذه الأيام الصيفية الحارة ما هي إلا تحضيرات لعرس الذئب في الغابة «عرس الذيب»، وكان يضحكني هذا المنطق الطبيعي في فهم ظاهرة التبخر إلى» مناسبة اجتماعية» عند الذئاب! ولما سيحتاج الذئب هذه الأجواء إلا إن كانت عوامل مساعدة على الصيد والاصطياد ربما! اقتناص فرصة للانقضاض على فريسة ضاعت بفعل تشتت الرؤية وضبابية الأفق! غير أني رجحت هذا المنطق أكثر من عرس وزواج! على الأرجح فالذئاب الماكرة لا تحتاج إلا لمكر جوي متواطئ معها لتسود.. فالبقاء في لعبة الطبيعة هو للأقوى دائما.. إن هذا الجو المصطبح على كوب ضباب ينقلب دائما عند الساعة الحادية عشرة إلى يوم مشمس عظيم؛ وكأن الطبيعة تلطف الأجواء باكرا حتى تضع الشمس أوزارها عند منتصف رؤوس العباد؛ ولكني آتي باكرا قبل أن يصحو الجميع؛ وأشرب كأس شاي في كامل برودة جوه وهدوء عصافيره وأحواله، وعلى أي فالناس هنا يستيقظون وقد فاتهم الكثير

ليحللوه ويشاهدوه من ظواهر جوية ومن حديث عصافير ومن أعراس محتملة للذئاب! ولكني لمحتك أيضا؛ في آخر دقيقة.. كان محمود قد وضع لي كأس الشاي في موضعه وعلى منديله؛ وجلست بالطاولة المقابلة مديرا ظهرك للساحة؛ وفي كل الأحوال ظننتك غير مكترث أو غير عارف لأهمية النظر إلى الساحة بدل أن تدير لها ظهرك! إنها الساحة! كل شيء يحدث هنا؛ المتسولون والعازفون يمرون من هنا كل دقيقة؛ بائعو الهدايا الصغيرة على شكل «باب الشاون» العظيم؛ البوهيميون بأزيائهم الممزقة الغريبة؛ الحاج فردق؛ عمر والآخرون.. السمراوات والصينيات والمشهورون والمشهورات؛ إنها الساحة التي يلتف حولها الصبيان والبنات والعجائز والحمام؛ إنها لبائعي الذرة وفقاعات الشامبو الملونة التي تتفرقع قبل الإمساك بها.. إنها للأيادي الممددة للحناء في بهجة تمنٍ أن يحن القدر على العازبات والوحيدات.. إنها ساحة للحرب بالكلمات بين الشباب؛ ساحة للمطر ولإذابة الاحساس بالوحدة على زليجها اللماع.

في الحقيقة بدا أنك زائر جديد للمدينة؛ ورغم أنك كنت أمامي ورغم أننا في الحقيقة كنا الوحيدين الجالسين بهذا المقهى الممدد على طول هذه الساحة في الساعة السابعة والنصف صباحا! كنا هنا قبل أن تأتي الشمس وتنقشع السحب وتذهب إلى حال سبيلها؛ ومع أن المقهى كان فارغا لكنك فضلت أن تجلس بالطاولة أمامي على بعد كرسيين فارغين؛ نظر «محمود» إليك وابتسم مخبرا إياك أنه قادم إليك لأخذ الطلب؛ وكنت لازلت مديرا وجهك إلى حيث الزقاق الصغير الذي خرجت منه؛ لعلك كنت في لحظة تذكر للطريق وحفظها قصد الرجوع من حيث

أتيت؛ أخذ محمود يشرح إليك عن أنواع الفطور المتواجدة في هذا المقهى الشعبي جدا:

– لدينا سيدي بيض وزيتون وجبن عربي وشاي أو قهوة وحليب أو عصير ليمون.

– قهوة وجبن وخبز؛ موجود خبز؟

– نعم موجود سيدي؛ دقائق فقط وسيكون الإفطار بين يديك.

– شكرا.

وانطلق محمود ليفتح الراديو القديم؛ وليدخل صوت فيروز من باب الصباح الباكر؛ وكنت لأغني مع فيروز بالعادة؛ أتابع صوتها وأحاول أن أحمله أكثر من طاقته في الشجن؛ وحين انتهت فيروز وصمتنا صفقت لي! وقلت لي: صوتك جميل سيدتي!

استدرت لأرى إن كان الكلام موجها لشخص آخر من وراء طاولتي أو كان موجها إلي! إنك لم تكن تنظر إلي!

قلتُ بصوت مرتفع ومندهش: هل كنت تحدثني؟ تقصدني أنا أم الراديو؟

– أنتِ.. صوتك جميل حقا.. تفضلي للجلوس سويا هنا على هذه الطاولة.. إن أردت طبعا.

لم أفكر أبدا فيما قد يمكن أن يحدث بعدها؛ لم أتساءل إن كان ذاك يجب أو لا؛ إننا الوحيدان المستيقظان بهذه المدينة؛ نحن ومحمود وصديقه عماد؛ فلم لا نتشارك هذا الضباب الكثيف؟ ونتحدث - كما يليق بغريبين- عن ارتساماتهم وتوقعاتهم حول الصباح والمدينة والحياة!

أمسكت بكأسي من خصره المغطى بمنديله الورقي؛ سحبت

الكرسي الذي أمامه وأفسحت مجالا للجلوس؛ كنت تلبس قميصا رماديا مفتوحا يبدو منه ضمادة طبية بيضاء؛ تبدو للتو خارجا من عملية جراحية ما؟ قلت متسائلة.

–ستيفان.. اسمي ستيفان؛ مريض متوحد؛ لا يستطيع أو ينسى أن يقول في حديثه أنا؛ أن يتحدث بضمير المتكلم.

–أوه لا عليك.. أردفت مطمئنة إياه بتفهمي لحالته.

–تتحدثين اللغة الفرنسية بطلاقة!

–كل المغاربة إن لم يتحدثوها بطلاقة تحدثوها بأي حال.. سأقول لك سرا؛ إن النخب هنا تحب أن تتكلم بالفرنسية حتى وإن كانت غير فرنسية البتة! إنه شعور لغوي بالبرجوازية!

تضحك ضحكة سريعة وخاطفة؛ ثم قلت: ماذا تفعلين هنا؟ مغنية؟

–لا لم أفكر في الأمر مطلقا في الحقيقة؛ سأخبرك سرا ثانيا أيضا؛ ربما هو قدرك اليوم أني على استعداد لقول كل شيء متعلق بي ثم اقتربت هامسة إلى أذنيك: أنا هنا هاربة!

–ستيفان كذلك؛ أصبحتما اثنين!

–حقا؟ أهربت من عملية جراحية؟ من مستشفى؟ هل أنت فرنسي أم مغربي يعيش شعور البرجوازية باللغة؟

–نصف جزائري نصف فرنسي؛ كان يعيش شعور البرجوازية سابقا؛ هارب من مستشفى الأمراض العصبية والعقلية بباريس.

–حقا!

–لقد تم وضعه بالجبر شهرا كاملا في مستشفى للأمراض العقلية؛ إن والديه اتهماه بالجنون وبأنه فقد جزءا من قدراته

العقلية بعد الغيبوبة التي دخل فيها؛ سيقول لك سرا كذلك؛ ربما سيشاركك أسرارا كثيرة؛ إنه مر بتجربة غريبة قلما تحصل للآخرين؛ إنه كان يسمع كل شيء كان يدور حوله وهو في المستشفى شبه نائم لكنه كان عاجزا عن الحركة؛ تعرفين.. لقد ذهب البارحة إلى ذاك الجبل وراءنا؛ هناك؛ صعد وكان هناك غار جلس عنده؛ وطلب من الله أن يهتدي إليه؛ أراد أن يرجع إلى الله الذي رافقه في كل تلك الشدائد؛ لقد وعده وهو في غيبوبته التي كان يسمع فيها كل شيء؛ إن أنقذ الله حياته مرة ثانية سيكرس نفسه لإسعاد الناس والأطفال والمتوحدين؛ والرحلة لم تكن سهلة في تحقيق ذلك؛ إن والدتي وهي تصف للأطباء حالتي العقلية وتحكي عنه أشياء لم يفعلها كأنها تنتقم من فرصة تواجده مرة ثانية في الحياة؛ لذلك آمن بالرسائل الإلهية؛ تعرفين عن هذا الأمر شيئا؟

– تعني عندما يأتي شيء ما مثل الرسائل الخفية في موقف ما لم نتوقعه فيكون بمثابة إنذار أو علامة إيجاب وتوفيق فنتخذه كإشارة للمضي في ما كنا عازمين على فعله أو التوقف نهائيا والعدول عن الفكرة.. هذا ما كنت تعنيه؟

– بالضبط؛ هذه هي الأشياء التي كان يقصدها ستيفان؛ شيء مفاجئ يحصل فتعرف أنك في الطريق الصحيح.

– ما المعجزة التي حصلت لك؟

– أنه عاد من الغيبوبة بعدما ظن وتمنى الجميع موته!

– ألهذه الدرجة كرهك الجميع؟!

– ليس الجميع؛ بعض منهم أو هؤلاء الذين لم يكن

حريـا بهـم أن يفعلـوا ذلـك؛ هـو ليـس كرهـا؛ هـو محاربـة لـكل مختلـف بـكل مـا تحملهـا الكلمـة مـن إقصـاء ونبـذ ومحاربـة؛ سـتيفان متوحـد ولكنـه تقاتـل داخليـا مـن أجـل أن يتواصـل مـع المجتمـع بطريقـة المجتمـع؛ حـاول جاهـدا ودرس جيـدا وكان الأول في دفعـة الماجيسـتير الاقتصـاد الـدولي ثـم دكتـورا وخبـيرا في الاسـتثمار المـالي في الـدول الناميـة.. لكنـه لـم يشـتغل أبـدا في مجـال تخصصه وذهب إلى ميـدان إنشـاء المقـاولات والبورصـة؛ كان محظوظـا بالتعليـم في المـدارس الـتي تعـنى بالمتوحديـن؛ وبمرافقـة جيـدة علمتـه قواعـد الحيـاة العامـة وكيفيـة اكتسـاب مهـارات التواصـل مـع الآخـر؛ لـم يكـن جيـدا؛ صعـب ولازال الأمـر صعبـا عليـه؛ إلا في أحايـين قليلـة حـين يرتـاح إلى أنـاس لا يعرفهـم.. بالعـادة سـتيفان لا يتحـدث كثـيرا كمـا اليـوم؛ غـير أنـه يشـعر برغبـة أن يحدثـك بـكل القصـة.. تعرفـين؛ كان لـدى سـتيفان ممتلـكات كثـيرة بعـد الغيبوبـة أصر عـلى أن يـوزع كل ثروتـه عـلى أنـاس كانـت تحتـاج تلـك الأوروهـات.

–كلها؟

–أغلب ما كان لدي.

–وهـل شـعرت بالسـعادة بعدهـا؟ أعـني؛ كيـف عرفـت أنـك تفعـل الـشيء الصحيـح؟ الـشيء الـذي يجـب أن يفعـل؟

كان الشـاي أمامنـا قـد شـارف عـلى الانتهـاء؛ وكنـت منهكـة في سـماع قصتـك الغريبـة عمـا سـمعت؛ الأغـرب حـتى مـن قصـتي وأنـا الـتي ظننتـني أعيـش أتعـس قصـة في الوجـود؛ قلـت بعينـين منهكتـين بمشـاهدة هدوئـك الغريـب وأنـت تـسرد عـلي القصـة؛ وحـتى حـين كنـت أطـرح عليـك سـؤالا كنـت لا تنظـر إلي بـل تنظـر إلى السـماء رغـم ضبابيتهـا؛ بكفـين ملتصقتـين أسـفل ذقنـك؛ وجرحـك الملتئـم

بضمادته البيضاء التي يبدو أنك تغيرها من وقت لآخر؛ وأكملت جوابك عن سؤالي بعزم.

– تعرفين منذ أربعة أشهر تقريبا قد أهدى ستيفان شقته بباريس لزوجين لاجئين في فرنسا ليس لهما مأوى؛ وقد كتبنا الإعلان ولم يصدقه إلا السيد «كمال» وزوجته «سعاد»؛ وبالطبع لم يعرف عنهما شيئا فقد ترك كل الإجراءات لمحاميه وصديقه «كريستوف» فقد كان أخا كريما دائما؛ وحين هرب ستيفان من المستشفى منذ أسبوع -وقد كان كل الحظ معه فالإجراءات جد مشددة ولكن لا يدري كيف استطاع أن يملك الجرأة لفعل ذلك- وجد التذاكر وجواز السفر وكل شيء مع كريستوف بالشارع الخلفي؛ لقد كان يزوره بحكم أنه محاميه الخاص وبالطبع في كل مرة كان يملي عليه طرق الهروب والتوقيت والتفاصيل بأكملها؛ ستيفان يحب التفاصيل الدقيقة؛ وحين وصل إلى المطار؛ وجد أن رحلته كانت إلى المغرب وبالتحديد إلى طنجة؛ هو لم يزرها بالطبع لم يسبق أن عرف شيئا عن العالم إلا عن طريق الدراسة؛ أو مشاهدة الوثائقيات أو قراءة مقالات بالصدفة في الجرائد الفرنسية؛ ووصل سريعا؛ وكان لا يملك خطة واضحة ولا برنامجا عما سيفعله في تلك المدينة ومع أناس غرباء ومختلفين؛ وقد خاف من نوبات الصرع والذعر التي تصيبه؛ لقد أخبر نفسه بأنها لعبة؛ وبأنها ستكون لعبة ممتعة دون شك؛ وعليه أن يجد حلا لهذه اللعبة؛ تمشى كثيرا حتى تعب؛ ووجد في المدينة القديمة فندقا بسيطا ارتاح له خاطره؛ ودفع لهم ثمن ثلاث ليال؛ وكان عليه أن يأكل شيئا؛ فتذوق الأكل المغربي؛ إنه جيد بالمناسبة؛ وبعد أن انقضت الثلاث ليال؛ سأل الله عن

حـل أو عـن رسـالة أو عـن دليـل عـلى أنـه لـم يرتكـب حماقـة بالسـفر والهـروب؛ النـدم يسـيطر عليـه؛ إحسـاس فقـد ابنـه أيضـا.. ثـم وأنـا بالقصبـة المدينـة القديمـة؛ لـن تصـدقي!

– ماذا؟ قلت بعينين متشوقتين.

– لقـد سـمع صوتـا يقـول: سـتيفان سـتيفان؛ كنـت بزقـاق صغـير مصبـوغ بالأبيـض؛ وكانـت زهـرة البونغافيليـا البنفسـجية تزيـن الجـدار؛ والزقـاق بـه ممـر يبتـدئ بقـوس؛ ممـر ضيـق ومعتـم وبآخـره يمكـن أن تخـرج إلى سـور صغـير يطـل عـلى البحـر؛ قـال مـن يعرفـه يـا تـرى! اسـتدار فوجـد كمـال وسـعاد قـد أخـذاه بالأحضـان.

– الزوجان اللذان أهديتهما البيت؟ يالها من مفاجأة حقا!

– لـم يكـن يعـرف سـتيفان أنهمـا مـن مدينـة طنجـة بالتحديـد! وتمكنـا أخـيرا مـن أخـذ أوراق الجنسـية بمسـاعدة كريسـتوف.. العالـم صغـير جـدا سـيدتي!

– يالها من صدفة عظيمة! ثم أدركت أنك في الدرب الصحيح!

– تماما؛ ما اسمك؟

– الجديـد أو القديـم؟ لي اسـمان.. أحدهمـا في أوراق هويـتي وعملي وأحدهمـا مسـتعار للتخفـي! ولكـني أفضـل أن أظـل بـدون اسـم.. يقولـون لي «أسـتاذة».

– تدرسين إذا.. في أي مادة؟

– الفلسفة.

– في مدينة الشاون؛ أمر رائع!

– كيف اهتديت إلى هنا؟ لم لم تجلس بطنجة؟

– لقد كان ستيفان ممتنا لكرم السيد كمال وزوجته ببيت أهله بطنجة؛ لكنه أحس بالحرج وبالقليل من الضيق؛ لا يحب أن يجلس ببيت كثير الضجيج؛ لقد استسمحهما في الذهاب بعد وليمتي الغداء والعشاء؛ ثم جاءا لزيارته بالفندق البسيط حيث أقيم؛ حينها سألتهما عن مكان أهتدي فيه إلى الصواب والسكينة؛ فقالا ستحب الشاون؛ ولأنها ليست بعيدة أيضا تحمس للموضوع؛ الشاون.. يا لها من كلمة عميقة.. كالسماء.

– إن قصتك من أغرب ما يمكن للمرء أن يسمعه بزماننا! فإذا هنا؛ لا يعرف أحد عنك شيئا كذلك! يالها من صدف!

– لكن شيئا ما موجع بالداخل.

– بالتأكيد.

ثم استأذنتني في المغادرة؛ كان التعب يظهر على وجهك؛ قلت لي أنك لا تتحدث بالعادة كثيرا؛ وذلك يصيبك بالارهاق؛ لم تختلق كلمات مجاملة؛ أو شكرتني على شيء؛ بل انصرفت تلاحظ السماء بالأفق؛ متجنبا أن تقول لنلتقي مثلا؛ وكأني كنت أعرف أن أمثالك لا يبحثون عن مكان آخر يجلسون إليه؛ كنت متأكدة أن لقائي بك سيتكرر في هذا المقهى بالذات وبمكاني ومكانك المعتاد؛ نحيفا وطويلا بعيني عبدالسلام الرمادية الحادة؛ ذكرني وجهك بالعالم النقي الآخر في هدوئه وبساطته.. بنظارتك الزرقاء.. بأنفك الصغير الحاد المتكور في مكانه؛ شعرك الأشقر الحليق؛ ورموشك الكثيفة المتماسكة؛ مشيت أمامي منصهرا في الأزقة التي تصبح منا وفينا؛ أما أنا فلازمني فرح ما؛ غمرني الأمل في احتمال وجود شبيه بي.. تجرعتَ الحياة المرة فناضلتَ من أجل أن تجد مكانا آخر على سطح الأرض قابلا

للعيـش فوقـه؛ لـم يعجبـني مـا فعلتُـه؛ لـم يعجبـني مـا فعلتَـه أيضـا؛ ولكـن في الحقيقـة ليـس ثمـة خيـارات شـجاعة أخـرى كهـذه المحاولـة للصمـود؛ انتظـار أن يبحـث عنـا الآخـرون إذ هـم لمحـوا أنهـم قـد تمـادوا في القسـوة؛ وحـين لا يبحـث عنـا أحـد بالمطلـق؛ فإننـا نعيـش بالرغـم مـن ذلـك؛ نعيـش مسـتدركين الضعـف والقـوة؛ الحـسرة والمـسرة؛ الحكمـة والرعونـة؛ الشـفقة والإجحـاف.

كل ذلـك جعلـني أعيـد الحكايـة في رأسي؛ وأشـك في كل كلمـة قـد حكاهـا لي وأنظـر في عينيـه فأجـد فيهمـا صفـاء العالـم الحالـم؛ لقـد تكـررت لقاءاتنـا في مقهـى برشـلونا؛ وكنـت أكتشـف كل يـوم حلقـة حزينـة مـن حلقـات حياتـه؛ كمـا رواهـا هـو بتفاصيلهـا المملـة الدقيقـة؛ بارتقـاء الإنسـان فيـه؛ بوصفـه المميـز للأشـياء والشـوارع والشـخوص؛ بذلـك الشـعور الـذي لا يفهمـه وبامـتزاج الحـب بالعاطفـة بالاحتيـاج بالشـوق بمرادفـات لـم يكـن يملـك منهـا الكثـير؛ فهمتهـا مـن سـياق حديثـه الـذي كان يمتـد أحيانـا لسـاعات مطولـة؛ وحـين ينتهـي؛ كالعـادة يسـتجمع أنفاسـه؛ ويذهـب حيـث فندقـه الصغـير الـذي يقيـم بـه بأعـلى الشـاون القديمـة.

سـمعت الكثـير والكثـير منـك؛ وفي كل يـوم كان شيء مـني ينطلـق إليـك؛ شـعور الحـب لشـخص حـاد الطبـاع؛ لا يقـول أنـا! يتحـدث عـن نفسـه بضميـر الغائـب كغائـب؛ أو كمجهـول يعـرف نفسـه أكـثر ممـن يدعـون معرفتهـم بأنفسـهم؛ لـم أر تصالحـا مـع النفـس مثلـك؛ ولـم ألتـق بشـخص كريـم لا يبـدو عليـه سـوى تجاهـل واسـتخفاف بالآخريـن! شـخص هـو عكـس الصـورة الـتي قـد نرسـمها عنـه؛ شـخص يحمـل معـه عالمـه الكبـير بـرأس صغـير؛ شـخص يقـدر مـرور النملـة أسـفل قدمـه؛ ويبجـل السـماء فوقنـا كشـاعر؛ لم

أر طفلا بجسد كبير من قبل؛ هارب من إقصاء بشع؛ يستقبل صباحه بدعاء الله وينام على دعوات الله أن يكون معه في أرض هو غير مدرك نهايته فيها.

***

الشاعر؛ هو من ينظر إلى الحياة بحس طفل حتى وإن لم يمتلك قصيدة واحدة.

قلت لي ذلك في خضم انهماكنا جميعا في طلاء بيت جديد استأجرته من أجل إنشاء جمعية تعنى بالمتوحدين وبتدريسهم؛ ولم يكن لذلك سبب لحظي كاف لتنطق بما نطقت به؛ ثم أكملت: والحب هو الهروب من المعاناة.

–فإذا أنت تحب.. قلت ذلك بتمنٍ خفي.

–ستيفان لا يعيش الآن معاناة ليهرب منها؛ كل شيء جيد الآن؛ لا حاجة له بالحب.

استلمت جوابك الذكي عن نهاية شيء ما كان بقلبي؛ شيء ينمو وفي طريقه إليك؛ اشتممته في اعتنائي الإنساني بك؛ ربما لم أكن ذكية للدرجة التي كنت عليها؛ أو أنك ربما تكشف حيلنا اللاواعية واللامؤذية عليك؛ لم أفعل شيئا قد يستحق أن يدخل في ضمن المعجبة! لقد كنت صديقة تمد لك يد العون قبل أن تطلب ذلك؛ وتحمست لموضوع إنشاء جمعية تعنى بالمتوحدين لقلة مثل هذه الجمعيات؛ وعملت على نصحك وإرشادك ليس إلا! هل يبدو من كل ذلك أني أحببتك؟ هل كان يعني حين أمسح

دموعك عن ابنك وأساعدك على الاتصال به من هاتفي حبا؟ هل الذهاب معك إلى طبيب مختص بأمراض القلب من أجل الاطمئنان على صحتك والإقناع بتناول الدواء بعد أن انقطعت عنه حبا؟ هل كانت مساعدتي لك في تعلم اللغة العربية وقواعدها والنطق السليم بها حبا؟

ولكني كنت محتاجة لهذا النوع من الحب الذي لا يسعى إلى شيء؛ وكنت أحس أن شيئا من «الكارما» تعاقبني على كل من لم أرفقهم بحب متبادل؛ كالمطر.. كعبدالسلام.. إن شيئا ما بهذه الحياة غير عادل بالمطلق.. قلت بأنانية شديدة وبلهجة حادة:

– لكني أحتاج الحب وليس هروبا من معاناة؛ بل كنوع من الدواء؛ إن بعض الأمراض النفسية لا يداويها إلا الحب. أحتاجه كي لا أعيد غسل يدي مرات عديدة؛ كي أنام ببال غير قلق؛ كي يكون هناك شخص ما دونما الحاجة إلى الوحدة!

وكنا نصبغ الجدران باللون الأبيض المخملي حين وضعت فرشاة الصباغة إلى سطلها؛ ومسحت أصابعك البيضاء بطرف كم قميصك الأزرق ثم ولأول مرة حدقت في عيني مطولا واقتربت مني ووضعت يديك على كتفي وقلت: لو انتهى الرجال على سطح هذه الأرض سوف لن يكون الشخص الذي تبحثين عنه هو ستيفان.. لا يعيش مريضان تحت سقف واحد سوف تغرق بكما سفينة الحياة.

– وليكن، أنا أريدها وأتحمل عواقب.

– ليس هناك من إرادة مع شخص متقهقر وانطوائي؛ فكري في مستقبل أفضل.

لـم أكـن أنتظـر تلـك الكلمـة؛ بـل رحـت أكمـل طـلاء الجـدران بـكل القـوة المتاحـة؛ وكاد العـرق الكثيـف يتصبـب مـن وجهـي حـتى امـتزج مـع الدهـان الأبيـض لـولا أن عـرق البنائـين لـم يـسئ في يـوم إلى لمعـان الجـدران؛ وحـين انتهيـت أطلقـت سـاقي للبيـت؛ دون أن أغسـل يـدي مـن الدهـان سـبعين مـرة؛ في عيـني شيء كالحـصى؛ هـذا العـدو كلـه بغرابتـه وسرعتـه الـذي لا ينقـل رسـالة ولا يفـسر شـيئا؛ ويبـدو أن الرغبـة في الوصـول لـم يكـن وراءهـا طائـل؛ أو هـدف مـا؛ أو تخفيـف عـن عـبء مـا قيـل؛ أو شـخص هنـاك أركـض مـن أجل أن أحـكي لـه؛ أو حضـن حنـون أهـرع إليـه؛ كان عـدوا طائشـا في عمقه؛ أو هروبـا مـن إيـذاء قديـم لشـعور أشـد؛ عـدوا للبيـت مـن أجـل إعـادة حسـاب؛ أو هروبـا ببضاعـة كاسـدة كـ»حـب».. لقـد اعتـدت جمـع خسـائري الصغـيرة دفعـة واحـدة ووضعهـا عـلى الـرف؛ وبهـذا البيت الموحـش بقصـص النـاس في تحفهـم ونوادرهـم وإطـارات صورهـم وزرابيهـم ومزهرياتهـم؛ أتحـسر داخـل كل شيء بالبيـت؛ وأرغـب أن يبـكي معـي كل شيء؛ لقـد انهزمـت كثـيرا في هـذه الحيـاة؛ وانهزمـت أكـثر حـين لـم يسـعفني الحـظ لأن أقـضي عـلى وحـدتي الشـنيعة؛ لكـني لا أسـتطيع أن أظهـر عـدم الرغبـة في المـضي في هـذا الحـب الأحـادي إنسـانيا عـلى الأقـل؛ ولـم أشـأ أيضـا أن أتراجـع بخطـواتي بالمسـاعدة أو التواجـد معـه في رحلـة الاسـتقرار والبقـاء؛ مثلمـا فعـل آخـرون معـي؛ ومـدوا لي يـد العـون في الاغـتراب؛ كان حريـا بي أن أبقـى وأن أسـاعد وأن أظـل في مـكاني بـين الصداقـة والحـب؛ ليـس جميـلا أن يتراجـع النـاس بخطواتهـم إلى الـوراء؛ بـل لـم لا يوجهـون خطواتهـم للمـكان الأكـثر ارتياحـا لهـم؛ لربمـا أكـثر برغماتيـة مـن ذي قبـل؛ ربمـا كنـت لأحتـاج حبـا أضعـه عـلى كتفـي مثـل عبـاءة

خفيفة؛ وهذه فكرة في محلها.. أن الوحدة والأسى تربكان القيم الحقيقية التي كافحنا من أجلها؛ ثقب نحو الفرار العادل والنجاة بأقل الخسائر الممكنة؛ وإذا كان الظفر بالحب مستحيلا فبعضه ممكن.. عطفا أو شفقة أو إرجاع امتنان بامتنان أكبر؛ كل هذه الأشياء حتما أنا بحاجة إليها؛ رأسي يأكلني بالصداع، وقلبي رغم هذه القوة التي يقبع فيها يتقطع وريدا وريدا؛ أحسست وأنا أرتب هذه الخيبات بعيني الغائرتين بالحزن بحالة من الذعر الشديد.. الرغبة في التقيؤ؛ اليدان المهتزتان الباردتان؛ الحالة الأولى التي خرجت فيها من بيتنا.. تتكرر في مسامعي كلمة: لا تزوري بيتنا مجددا.. ثم ينخفض صوته؛ ثم يكبر هذا الصوت؛ أضع يدي على أذني متوسلة الله ألا أسمع شيئا؛ أعثر على صورة جدتي وأمي؛ وجهيهما الحزين؛ معطف أبي بالباب.. صداع برأسي حاد كصراخ؛ لا يمكن..لا أريد.. أرجوكم.. لم أفعل شيئا.. ثم.. قد يغمى علي..

***

بدايات أكتوبر..

الخريف هو الجو الذي يستخف بحكايات العام؛ أحسه جالسا بمكنسته التي خصصها لطرد مخلفاتنا على هذا الكوكب المليء بالغرابة؛ أجلس بالقرب من قبر عبدالسلام أقرأ عليه آيات من الذكر الحكيم؛ ثم أحكي له بلا صوت عن عمر الذي قرر أن يصبح مهندسا معماريا؛ لقد ترك السيجارة يا عبدالسلام! لم يكن يعنيك ما يفعله أو ما لا يفعله لكن موتك أثر فيه بشكل كبير؛ أثر فينا جميعا؛ إن الحب غير موجود.. إنه وسيلة لإلحاق

الـضرر بالآخريـن؛ وإن كان مـا يفعلـه بنـا الآخـرون ليـس حبـا فمـاذا سنسـميه؟ نسـميه مرضـا؟ نسـميه تملـكا؟ نسـميه تجاهـلا؟

هـذا الجـو يـا عبدالسـلام؛ جـو سـاخن نهـارا بـارد ليـلا يذكـرني بعبثيـة الأقـدار؛ بهـذه الرغبـة العاصفـة الـتي بداخـلي مثـل زوابـع الخريـف.. حيـث لا أفـق؛ المـدن الـتي يبـدأ فيهـا حـزن وألـم ليسـت مكانـا مناسـبا وإن غـارت في الجمـال.. الأماكـن نحـن مـن نفعلهـا؛ نحـن مـن نبصـم هويتهـا؛ نحـن مـن يجعلهـا أمكنـة لطيفـة أو مسـتحيلة؛ باهظـة أو رخيصـة؛ نحـن مـن يخلـق فيهـا الألفـة ونحـن مـن ينـشر فيهـا الفسـاد والنفـور.. نحـن يـا عبدالسـلام وفقـط.. حـتى في العمـل هنـاك أصـداء غـير لطيفـة بخصـوصي؛ زمـلاء جـدد ينافقـون بعضهـم بعضـا ويتحايلـون عـلى بعضهـم بعضـا مـن أجـل أن يكسـبوا ود الإدارة واسـتعطافها؛ وبالطبـع فأنـت تعـرف أني متمردة عـلى الوضـع؛ وهـذا شيء لا يعـود عـلي بالنفـع؛ إنهـم يا عبدالسـلام يكيـدون لي مكائـد مـع طـلابي؛ وأحسـهم يحاربـون اختـلافي معهـم؛ حـتى أنهـم قـد بلغـوا الإدارة بـأني أمتهـن مهنـة ثانيـة غـير التدريـس! إنهـم يعتـبرون مسـاعدتي لسـتيفان في جمعيتـه لرعايـة المتوحديـن عمـلا! أنـا لا أتقـاضى أجـرا عـن عمـلي بالجمعيـة؛ ومسـاعدتي تدخـل فقـط في ترجمـتي لبعـض الوثائـق القانونيـة الـتي يحتاجهـا أو لمعاملاتـه مـع البقيـة فقـط.. ولـكي أكـون منصفـة معـك فـإني أحببته بالرغـم مـن مرضـه وحكايتـه الـتي أتى بهـا؛ لـكل منـا حكايتـه الخاصـة وكل منـا يراهـا مـن الزاويـة الـتي يريـد يـا عبدالسـلام؛ مـن منـا بـلا مـاضٍ متشـعب وغزيـر؟ حـتى أنـت يـا عبدالسـلام لـم تقـل لي يومـا أنـك تنـوي أن نـتزوج مثـلا! لـم تقـل شـيئا كهـذا الـشيء الواضـح؛ بـل إنـك لا تعـرف أني مطلقـة.. إطلاقـا؛ ذهبـت دون أن تعـرف نصـف

الحقيقة ذا الوجه العريض بعينين سوداوين.. ورجوعا إلى ستيفان فإني كنت مستعدة لئلا أكرر أخطاء الأمس إن اعتبرناها أخطاء غير مقصودة في التوقيت؛ لكنه أحس قبل أن أقول؛ وأدرك قبل أن أفصح بالمباشر.. إنه شخص حساس للغاية وأنا أحببت فيه هذه الخصال التي لا نألف وجودها؛ حتى في صراحته الوقحة كان مختلفا عن البقية ممن يتهربون بلا شجاعة في قول الشيء بدقة وفي وقته بالضبط؛ غير آبه إن كان مناسبا أو لا؛ بطريقة لبقة أم لا؛ بغض النظر عما نفعله نحن جاهدون في تأخير أشياء لا تستدعي التأخير؛ كان حاسما يا عبدالسلام؛ ولم يترك لإحساس الوحدة المفزع أن يرتكب في حقي فظاعة بقدر «الحب والزواج».

قال أن الحب هو هروب من المعاناة؛ وحين جلست مطولا بعد إحساس الهزيمة وتأملت ما قال وجدته صائبا نوعا ما؛ صائبا في حالتي بالضبط.. آسفة لأني أحكي لك ما لا يتوجب عليك سماعه.. لكني بلا بوصلة الآن؛ تائهة دون أقول كلمة واحدة؛ غير أني أعرف بالضبط أن الشاون أصبحت مضجرة بالألوان.. صاخبة بالسياح.. وفيها رجل لا يقول أنا.

***

بعد عشر سنوات

عزيزي Yanis؛

لقد تعذر علي في المرة الفارطة بعث رسالة جديدة إليك؛ أخبرك أن والدك على ما يرام؛ وسأظل أعيد على مسامعك

أنه لن يستطيع في هذه السنوات الأخيرة أن يبعث إليك برسالة جديدة مخافة أن يعثر عليه أو على عنوانه؛ لكني سأظل حريصة بوصية من والدك على أن أطمئنك عن أحواله بالبريد الإلكتروني؛ وأنا بين كل رسالة وأخرى سأظل سعيدة بالثقة التي خولها لي والدك طيلة السنتين الأخيرتين بعد آخر زيارة له إليك؛ إنه لا يستطيع الآن مغادرة المغرب بسبب صحته المتدهورة؛ لكنه حريص على أن تكون بخير وتسمع منه الأخبار الطيبة دائما؛ هل لك أن تأخذ صورة في المرة المقبلة؟ سيكون سعيدا برؤية قامتك التي تطول رسالة بعد رسالة! لو أستطيع أن أصف إليك الفخر الذي أراه بعينيه حين أخبره أو أريه إحدى صورك!

ظل بخير عزيزي

MERIM ميريم

من مدينة براغ؛ أبزغ مرة ثانية في هذه المدينة الغارقة بلونها البرتقالي الآجوري؛ أطل هنا بتجاعيد أكثر ملاءمة لهذا الوجه؛ وبالطبع فإني تبخرت هنا مرة ثالثة آملة في بداية حقيقية لا يعرفني فيها أحد ولا أعرف أحدا؛ لا يمكن للمرء إلا أن يصالح ماضيه ثم يذهب ليشرق في مكان آخر.. في محاولة للتكفير عن مآسي الذكرى والأمكنة؛ وتخفيف هذا العبء الجاثم على الصدر؛ إن المرء لا يريد أن يسمع أنه مبحوث عنه كأنه صانع لخراب عالمي! لم أستطع أن أعيش في خوف أن يقتلني أهلي مخافة العار.. بل كان وهما حين شجعتني يا ستيفان.. شجعتني على مجابهة القدر أولا؛ تصفية الحساب والصور التي تخاطف الآخرون على نقل

النسخ المشوهة منها؛ أنا لن أنسى كيف رافقتني في الطريق إلى مدينتنا وكيف وقفت في الحي تراقب خطواتي المهتزة؛ قلت: إنك قادرة على هزيمة هذا الخوف.. الحقيقة هناك وراء باب بيتكم.

لا أنسى ذلك اليوم؛

يستحيل على المرء أن ينسى العودة تلك أو يتوقع حدوثها: زغاريد أمي؛ دموع أبي.. وأحضان إخوتي.. وجدتي التي غاب وجهها؛ وتأخرت كثيرا ربما عن توديعها بما يليق.. كان الأمر عبارة عن اختراق غضب في غضب؛ سديم بسحاب متوهج فيتصادم ويتكاثف ليكون منظرا جميلا من الأحاسيس.. هذه الصورة بالذات معروف لن أنساه لك؛ يحسب إليك؛ كأنك جئت لتوقظ هذه الشجاعة المتأخرة؛ ما الذي أفعله في براغ؟! أتبخر أيضا باسم مستعار ليس لي؛ بحياة وماضٍ مجهولين؛ أشرقتُ هنا بمساعدتك؛ وبمنحة مقدمة منك لإتمام دراسة الدكتوراه في سلك الفلسفة بعنوان «الذاكرة والاعتراف» عند كافكا.

يستحيل علي أن أنسى وجهك عندما سلمت عليك في المطار؛ وحتى أنه قال لي دونما كلام: سأفتقدك!

لم تكن تعلم أن للفقد لغته الخاصة به.. إيماءات تتواصل بكل حروف الأبجديات الممكنة؛ وأن دمعة عصية تقف بناصية البؤبؤ كموجة وحيدة هي كافية بأن تصنع موقفا قاهرا.. كالفقد.

رحلت عنكَ وسافرتْ تلك التي رأيتها في منامك مائلة لأحلام اليقظة؛ بينك وبينها سِنة وتذكرة طائرة طائشة اشتريتها بمطار «شارل دغول» في آخر اللحظات؛ وكنت تعلم أن بلدان الله واحدة تحدها حواجز أمنية وهمية وأن السفر العنيد بعد زمن كان مخصصا للموت هو سفرٌ نحو الله والحياة والإنسان.. قلت

لي سـافري؛ وتذكـري أني هنـا مـن أجلـك بطريقـة مـا واحـرصي عـلى أن ترسـلي رسـالة لابـني يانيـس؛ فـإن سـتيفان لا يجيـد طمأنتـه كمـا تفعلـين.

ميريم .. هل كان اسما حقيقيا أم مستعارا أم تمنيا؟

لا أعـرف يـا سـتيفان.. حـين يتبخـر المـاء فـإن بخـار الهـواء لا يعـود لهويتـه اسـما أو معـنًى أكـثر مـن رغبتـه في أن يصبـح شـيئا آخـر بآخـر السـقف.

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية.

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش.
ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com
info@kayanpublish.com
أو زور موقعنا:
www.kayanpublish.com
وللاتصال الهاتفي:
هاتف أرضي: **0235688678- 0235611772**
هاتف محمول: **01001872290 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpubishing

+KayanPubishing

KayanPublishing